محمد الغزالي



دار الشروق

المقدمة

أحس قلقا بالغا على مستقبل الإسلام وأمته وأوطانه، فإن القوى المخاصمة له تطمع فى استئصال حقيقته، واستباحة بيضته.

وهى ترى أن الظروف ملائمة لبلوغ هذه الغاية الهائلة.. !

وعندما أنظر إلى الواقع الكئيب أجد أعداءنا يتقدمون بخطا وئيدة وخطط صريحة حينا، ماكرة حينا آخر..

ولكنها خطط مدروسة على كل حال، محسوبة المبادئ والنهايات، لا مكان فيها للدعاوى والمغالطات، ولا للارتجال والمجازفات.. !

أما نحن المسلمين فعلى العكس من ذلك كله..

وقد نكسب تقدما ما فى بعض الميادين وسرعان ما تفقد ثماره فى ميادين أخرى تكون خسائرنا فيها أبهظ..

وعندما أشعر بأن حلقات الحصار تضيق حول الإسلام، وأن مكاسب عداته تكثر على مر الأيام أتساءل : هل وعى تاريخنا الطويل أحوالا فى مثل هذه القساوة والخباثة ؟

وأتردد فى الجواب قليلا !!

لقد سقطت الدولة الإسلامية قديما، وناوشها الأعداء من الشرق والغرب، واحتلوا عواصمها، وألحقوا بها أفدح الخسائر.. ومع ذلك نهضت من عثرتها واستأنفت السير، فلم لا تكون ظروف اليوم كظروف الأمس ؟

وأقول لنفسى : لعل !! ثم أدرك أنى أغالط، لأسباب ينبغى شرحها إن أردنا مواجهة الحقيقة والنجاة من عواقب الخداع..

لقد أقام الاستعمار العالمى « إسرائيل » فى أرضنا من عشرين سنة وكان الإنجليز قبل ذلك بثلاثين سنة يخلقون الجو الذى يمهد لقيام إسرائيل ويستجلبون اليهود من كل بلد لينشئوا على أنقاضنا كيانهم الجديد . .

وإذا كانت هذه السنوات الخمسون قد وعت الإعداد والتنفيذ فى فلسطين فإنها قد وعت أيضا التدويخ والتفتيت للعرب حول فلسطين ، من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر كما يحلو للبعض أن يصف حدود الأمة العربية التائهة . . !!

ونشرح ما نعنى فنقول : إن اليهود الذين بدأ استجلابهم من سنة ١٩١٧ لم يضيعوا ساعة عبثا . .

لكأنهم تمثلوا بقول الشاعر :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا ... إن الحياة عقيدة وجهاد .. !!

فشرعوا لفورهم يحولون اليهودية إلى عقيدة بعث وبذل ، وفداء وإخاء ! ثم كرسوا أعمارهم لعمل موصول الجهاد بالليل والنهار . .

وأخذت أوروبا وأمريكا تمدان جرثومة العدوان الجديد بما تشاء كى تضمنا لها التفوق والنصر .

أما العرب فإنهم فى أرضهم الواسعة كانوا يمضون منحدرين إلى القاع . .

العقيدة فى بلادهم وهى الإسلام تذبل وتنكمش ، وروح الجهاد تناوشها اللذات المطلوبة والشهوات الغالبة .

الخمسون السنة التى أعقبت وعد بلفور شهدت إحياء لليهودية وللقتال من أجلها فى فلسطين !!

وشهدت فى الوقت نفسه إماتة للإسلام ، أو إضاعة لتعاليمه وشرائعه ، أو إهانة لحدوده وحقوقه ، أو تنكرا لعنوانه وشعاره فى الأرض العربية من المحيط إلى الخليج ، مع حذف وصفى « الثائر الهادر » لحدود هذه الأمة العربية الجديدة التى خلقها البعثيون والقوميون !! .

تلك الأمة التى رأت - بدولها الأربعة عشر - أن توهى صلتها بالأمة الإسلامية الكبرى ، لأنها أوهت صلتها بالإسلام ذاته . . !

وجاءت النتائج كما رسم الاستعمار الذى أقام إسرائيل . .

انهزم العرب أمام اليهود من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٦٧ فى حروب متتابعة.

والسبب واضح فإن روح اللهو لا تغلب روح الجد، وفاقد الإيمان لا يقاوم من يتحركون بيقين راسخ..

والواقع أن اليهود كسبوا معاركهم ضدنا منذ أفلح الغزو الثقافى فى زحزحتنا عن ديننا، وتهوين قيمه ومثله وأحكامه أمام أعيننا، ومنذ أفلح فى خلق شباب يقاد من غرائزه الجنسية، ويغرى بعبادة الحياة الدنيا وينسى ربه وآخرته..

إن مصدر خشيتى على الإسلام هو موقف العرب من دينهم!

إن العرب يريدون أن يدخلوا بغير دين فى معركة دينية..

ومع أن مطارق الهزيمة التى وقعت على أم رأسهم كانت كفيلة بإزالة هذا الوهم إلا أن عملاء الشيطان يستميتون فى مكافحة هذه اليقظة، والحيلولة دون اعتناق العرب للإسلام، كلا لا يتجزأ..

ولا يستغربن أحد هذا التعبير!!

فإن العودة إلى الإسلام لا تقبل إذا كانت كلمات تمرق من الأفواه ولا علاقة لها بالواقعين الفردى والاجتماعى..

لكى تكون العودة إلى الإسلام صحيحة لابد من أمور ثلاثة:

(أ) هيمنة التربية الدينية على مراحل التعليم كلها.

(ب) رد جميع القوانين إلى الفقه الإسلامى، وربطها ربطا موثقا بالشريعة الإسلامية.

(جـ) تحكيم الإسلام فى التقاليد الاجتماعية السائدة ومحو ما يخالف الدين، وإثبات ما يلائمه.

ويوم يحس جماهير العرب بأن أمورهم تسير إلى هذه الوجهة فسوف يندفعون كالسيل وراء حكوماتهم، ويومئذ تماع إسرائيل كما يذوب الملح فى الماء، فلا يبقى لها شكل ولا موضوع..

لقد تأملت فى الصورة التى تمت بها هزائمنا خلال العشرين السنة الأخيرة فرأيت ما يدعو إلى الدهشة..

كنا أكثر من عدونا عددا، وأقوى عدة..

ولو فرضنا جدلا ، أننا كنا مثله أو دونه قليلا فإن من المقطوع به أننا لم نحسن القتال بما حملنا من سلاح ، ولا ثبتنا به المدة المناسبة ، ولا آذينا به عدونا الإيذاء المستطاع . .

كانت هزائمنا فريدة فيما تتركه من انطباعات مخزية .

إننا هزمنا أنفسنا ، وقلدنا خصومنا شرفا فوجئوا به . .

وما تقول في قوم ينبهون إلى أنهم قد يهاجمون يوم كذا . . فإذا هم في هذا اليوم غافلون أو نيام ، أحرقت طائراتهم على الأرض ، وبوغتوا بما شل حراكهم خلال ساعات ، وأكسبوا اليهود دعاوى عريضة ، وتركوا جباهنا تقطر من الحياء والذل ! !

كانت أسباب الهزيمة خلقية ، ودينية قبل كل شيء وبعد كل شيء .

ومع ذلك فإن العرب ابتلوا بمن يكذب عليهم يوم محنتهم فيتحدث عن تفوق اليهود العسكري ومهارتهم « التكنولوجية » .

أي تفوق وأية مهارة ؟؟

وتذكرت قصة الريفي الذي جاء إلى القاهرة ، واشترى الترام من أحد المحتالين . .

إن هذه القصة لا تدل على عبقرية المحتال قدر ما تدل على أن المشترى مغفل كبير . .

والذين يرجعون أسباب هزيمة العرب أمام اليهود - وخصوصا في المعارك الأخيرة - إلى عبقرية اليهود إنما يريدون مواراة قصة استغفال محزنة . .

إنهم يريدون أن نذهل عن عيبنا كي تتكرر المأساة نفسها .

لقد علم القاصي والداني أن اليهود امتدوا في فراغ ، وأن رجالنا يوم اللقاء كانوا في سكرتهم يعمهون ، وصدق القائل :

رب أصباح محزنات يتركها المرقص اللعوب ! !

فهل نعمى عن علتنا المهلكة ثم ننسب النتائج إلى الوهم ، ونزعم أن اليهود غلبونا لعبقريتهم الحربية وتفوقهم في كذا وكذا . . .

يقول التاريخ إن شبيها لهذه المأساة وقع من تسعة قرون ، فقد انهزم العرب أمام الحملة الأولى للصليبيين دون سبب معقول !

كان الصليبيون قد هبطوا من أوروبا إلى الشرق الأوسط وهم يجرون أقدامهم جراء

وبلغت بهم المجاعة إلى حد أن أكلوا الجيف، ولم تكن ظروفهم تمكنهم من كسب أي معركة.

ومع ذلك فقد هزموا العرب الموفوري القوة والعدة والصحة والشبع. وذبحوا سبعين ألفا منهم في القدس!!

لماذا؟ لأن العرب كانوا في حالة من الفرقة والبطر والفسوق والغفلة تحرمهم من رعاية الله، وتبعد عنهم النصر القريب..!

كذلك انهزمنا اليوم، وبين أصابعنا من أسباب الغلب ما لو سانده الإيمان الصاحي، والحماس الصادق، لروع اليهود ومن وراءهم..

لقد سمعت رجلا يعلق على ضرب اليهود لمطار بيروت تعليقا مرا، يقول: أينزلون، ويحرقون الطائرات، ويمكثون في المطار ريثما ينفذون مرادهم، ثم يصعدون دون أن يفقد جندي منهم نعله!!

لو أن مع رجل واحد مسدسا لألحق بهم بعض الخسار!!

لو أن هناك رجالا يحملون العصي فقط ما عاد اليهود سالمين على هذا النحو!! لكأن القوم كانوا في نزهة!!

ياحسرة على العباد، أين الرجال؟؟

والجواب ضاعوا مع ضياع الإيمان!!

إن الدين بالنسبة لنا نحن المسلمين ليس ضمانا للآخرة فحسب إنه أضحى سياج دنيانا وكهف بقائنا.

ومن ثم فإني أنظر إلى المستهينين بالدين في هذه الأيام على أنهم يرتكبون جريمة الخيانة العظمى، إنهم - دروا أو لم يدروا - يساعدون الصهيونية والاستعمار على ضياع بلدنا وشرفنا ويومنا وغدنا..!!

فارق خطير بين عرب الأمس وعرب اليوم.

الأولون لما أخطئوا عرفوا طريق التوبة، فأصلحوا شأنهم، واستأنفوا كفاحهم، وطردوا عدوهم...

أما عرب اليوم فإن الاستعمار الثقافي أحدث تخريبا شديدا في ضمائرهم وأفكارهم، وربما رأيت الواحد منهم يبلغ الأربعين أو الخمسين من عمره ولا يعرف كيف يصلي! أما حصيلته من سائر المعارف الإسلامية فتتذبذب عند درجة الصفر!!

وهذا الجيل الفارغ القلب واللب صيد سهل للمذاهب المادية أو للمبشرين وسماسرة الغرب، لأنه - مهما كبرت الوظائف التي وضع فيها لم يتجاوز مرتبة الطفولة من الناحية الدينية.

وقد يعترض نفر من هؤلاء على العودة إلى الإسلام اعتراضا مكشوفا، أو مطويا، إما لأنه فاسد النفس، أو لأن الجهل أتاهه وحيره.

يقول أحدهم: إن العودة إلى الإسلام سوف تغضب المسيحيين العرب!

قلت: لماذا يغضبون؟ إننا لا نسخط على تمسكهم بالنصرانية ولا نعترضهم فى ذلك..

ومن الذى قال إننا نرضى الآخرين بترك ديننا؟ وإذا كان الآخرون لا يرضون إلا بذلك فمن الذى يجعل لهذا الرضا قيمة؟

ويقول ثان: إن العودة إلى الإسلام سوف تغضب الشيوعيين وهم الذين يمدوننا بالسلاح!!

قلت إن الشيوعيين تهمهم مصالحهم، وهم إنما يسوؤهم أن نأخذ أسلحتهم ونسلمها لليهود! فإذا تعاملوا مع رجال يقدرون اليد المسداة، ويحسنون النكاية فى عدوهم كان هذا خيرا لهم ولنا..

ويقول ثالث: إن أمريكا تساعد إسرائيل بدوافع صليبية مطوية فإذا أعلنا إسلامنا وتشبثنا بوحيه أسفرت عن وجهها وأعلنت علينا حربا مكشوفة..!

قلت إن أمريكا لم تدخر جهدا فى تغليب اليهود علينا، ولو أنها فعلت مع إسرائيل مافعلته فى فيتنام ما بالينا بها لو كنا أصحاب إيمان..

ويقول رابع: لا مانع من العودة إلى بعض الإسلام، أما العودة إليه كله فصعبة، وقد تغير الزمان..!!

قلت: الكفر ببعض القرآن كفر به كله، والإسلام هو الحل الأوحد لجميع مشكلاتنا المعاصرة، وليس هناك عائق أمام عودتنا لديننا لو أردنا..

إن الصعوبة المدعاة هى فى نفوسنا نحن...

تلك النفوس التى ضللها الغزو الثقافى الحاقد على الإسلام. فجعلها تحسب حسابا لكل شىء إلا لله وحده..!!

إن العراك بيننا وبين بنى إسرائيل سوف يمتد سنين عددا، فإذا أحببنا أن نذوق حلاوة النصر فالطريق إليه بينة . .

أما إذا كررنا أنفسنا القديمة، وأساليبنا القديمة، فلن نحصد إلا ثمرات الغرور، وما أبشع مذاقها وأمره !!

إنه ليحزننى أن أرى العرب يتخلون عن رسالتهم العظمى.

أو يأخذونها بضعف واسترخاء.

أو ينفذون ما يحلو لهم ويهملون ما لا تهوى أنفسهم.

أو يخشون الناس ولا يخشون الله . .

إن عقبى ذلك هو ما بلونا مبادئه، ولا نريد أن نجر بواقيه . .

إنا نجأر بهذه الصيحات لعلها تنفع فى مدافعة ما لا نطيق من بلاء.

وقد كنت - بحماسة المؤمن الغيور - أرصد أحوال الأمة العربية قبل الهزيمة وبعدها، فأشعر بمدى قربها أو بعدها عن دينها، ومدى قدرة التيارات الأجنبية على التطويح بها هنا وهناك . .

وكلما قرأت كلمة ضالة، أو سمعت تعليقا منحرفا، أو تدبرت توجيها زائغا أمسكت [1] بالقلم لأرد فى نطاق ما أستطيع قوله وعمله . .

غير أننى لم أتبين إلى هذه الساعة انعطافا حقيقيا نحو الإسلام يعيد بناء الأمة العربية داخل إطاره الواضح.

وذاك سر إشفاقى وقلقى.

﴿ قل رب إما تريني ما يوعدون ﴾.

﴿ رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ﴾.

﴿ وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ [2].

الفقير إلى الله تعالى

محمد الغزالى

---

(١) - الفصول المنشورة هنا بعض ما أديت به واجبى كاتبا أو محاضرا، وقد رأيت جمعها فى سياق متقارب ميسور التناول كى تخدم القضية التى يجب نصرها ودعمها، استبقاء لديننا وأمتنا.

(٢) - المؤمنون : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ .

صراع بين رسالتين

كان بنو إسرائيل أول أمرهم ممثلين لعقيدة التوحيد وسط شعوب فلما تعرف حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر.

والانفراد بعقيدة صحيحة بين أمم ضالة يتطلب غير قليل من العناء والمصابرة، فقد يسأم الإنسان تكاليف الغربة الروحية، وقد يبتلى بمن يضيق به وبعقيدته ويحاول فتنته عنها..!

ومن هنا رأينا يعقوب يجمع أبناءه قبيل موته، ويريد أن يطمئن على سيرتهم بعد أن يغادر الحياة، ترى أيظلون على الإيمان الذى شرفوا به أم يتبعون غيرهم على الشرك والفساد؟؟

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ [(١)].

وكلمة الإسلام قديما وحديثا هى العنوان الفذ للدين الأثير عند الله، بما يتضمنه هذا الدين من توحيد للخالق، واستقامة على أمره، وإنفاذ لوصاياه، وإقامة لأحكامه...

وقد كان يوسف الصديق أشرف رجال هذه الأسرة، وأصلح أولاد يعقوب وأرعاهم لتعاليم أبيه فى حياته وبعد مماته.

وكان يقدر نعمة الاختيار الإلهى لبيت يعقوب كى يحرس التوحيد ويرفع لواءه..

ولذلك رأيناه فى السجن ينتهز الفرص فيدعو المسجونين إلى الله، وينفرهم من الوثنية، ويشرح لهم معالم الإيمان الحق..

وكان السجناء قد لحظوا قدرته على استنباط الغيوب من خلال تعبير الرؤيا، فقال

---

(١) - البقرة : ١٣٣ .

لهم يوسف : ﴿ **ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ (١) .

ويوسف بهذه الكلمات ينوه بمكانة أسرته، ووظيفتها الرفيعة في قيادة الناس إلى الله الواحد، ونبذ الوثنية السائدة على عهده.

ولذلك يتابع نصحه لرفقاء السجن قائلا : ﴿ **يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (٢) .

ومن الإنصاف أن نقول : إن أبناء يعقوب في تاريخهم المتقدم وفوا بعهدهم لأبيهم، وقاوموا أمواج الوثنية التي حاولت أن تجرفهم، ولعلهم تحملوا في ذلك آلاما رهيبة.

وأي آلام أبشع من تذبيح الأبناء واستحياء النساء ؟ لكنهم مع تلك المحن لم يفقدوا شخصيتهم، ولم يذوبوا في غيرهم، ولم ينسوا أصل رسالتهم.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم عنهم ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين** ﴾ (٣) .

لكن بني إسرائيل مع سير الزمان واختلاف الليل والنهار أخذوا يبددون أمجادهم، ويغاضبون ربهم، ويتنكرون لمواريثهم، ولم ينشأ هذا الانحراف من غلبة عدو عليهم وتأثيره فيهم، بل نشأ من اعتزازهم بالله، وجراءتهم عليه، وابتذالهم لنعمه.. وأضحوا كالولد المدلل لا ينتظر منه أدب، ولاتثمر في تقويمه عظة.

وتطرق هذا العوج إلى المبادئ التي اختيروا لإعلاء منارها وتمهيد سبلها، فإذا هم يخلطون التوحيد بالشرك، ويذهلون ذهولا مطلقا عن اليوم الآخر، ويرتكبون المعاصي دون حذر، وينسون قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينطلقون على ظهر الأرض ما تسيرهم إلا غرائزهم الدنيا مقترنة بدعاوى عريضة ومزاعم مكذوبة.

فكانوا بهذا المسلك الجديد شرا من الأمم التي كلفوا قديما بتعليمها وتأديبها وفضلوا تفضيلا عليها.. !!

---

(١)- يوسف : ٣٧، ٣٨ .
(٢)- يوسف : ٣٩، ٤٠ .
(٣) - الدخان : ٣٢، ٣٣ .

ومن رحمة الله بعباده أنه يقيل عثراتهم، ويغفر زلاتهم، ولا يؤاخذهم لأول ما يفرط منهم، وقد أمهل بني إسرائيل طويلا كيما يثوبوا إلى رشدهم ويعتذروا عن خطائهم، وبعث فيهم أنبياء كثيرين يذكرونهم بالله ويخوفونهم نقمته.

لكن القوم لم يرعووا ويدعوا ما هم فيه، بل تأدت بهم شراسة الجامحة أن يعتدوا على أنبياء الله فيقتلوا من صدقوا بنصيحته منهم ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون * وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾ (1)

وكان آخر اختبار سقطوا فيه موقفهم من عيسى بن مريم، فقد جاءهم هذا الإنسان الصالح يبغي ترقيق قلوبهم وتهذيب طباعهم وإلزامهم حدود الله وتعاليم الوحي الأعلى واعتناق حقيقة الدين بدل الاستمساك بقشوره والخروج على جوهره.

ولكنهم سخروا منه أقبح سخرية، ورموه وأمه بأغلظ الإفك، ثم بيتوا قتله كشأنهم مع من سبقه، بيد أن الله نجاه منهم ووقاه شرهم.

وكان هذا كما قلنا آخر اختبار لبني إسرائيل، فقد كانت النبوات وقفا عليهم، وهدايات السماء تنبعث من أرضهم.

وطالما سطعت أشعة الوحي من ساحات المسجد الأقصى على أيدي رسل كرام، غير أن هذه الأشعة ضاعت بين غيوم كثيفة من الشهوات... ومحا أثرها شغب عز على العلاج بعد أن تغلغل الفساد الخلقي والفساد الاجتماعي في أعماقه.

وقررت العناية العليا أن تنقل قيادة الإنسانية من جنس إلى جنس، أو من أولاد إسرائيل إلى أولاد إسماعيل، أو من اليهود إلى العرب.

كان عيسى بن مريم آخر إسرائيلي يرسل إلى قومه، وكان تكذيبهم له آخر جرم يختم به تاريخهم الديني..!

ثم يجيء دور العرب بعدئذ ليفتتحوا صفحة جديدة في الحياة، بعد ما ملأ اليهود الصفحات السابقة بمخازيهم ومآسيهم ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (2)

* * *

(1) المائدة: ٧٠، ٧١ (2) الصف: ٦، ٧

وفي تسويغ هذا الانتقال الحاسم، وسرد أسبابه وملابساته، وفي تعريف العرب بمكانتهم الإنسانية الجديدة، ودورهم على هذا الخط، وفي تقرير التبعات الثقيلة التي تفرضها هذه الرسالة العظمى على العرب.

في هذا كله نزلت آيات شتى نريد أن نتدبرها ونتدارس دلالاتها وأبعادها. يقول الله لنا نحن العرب: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾[1]

ويقول سبحانه: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾[2]

ويقول عن مدى الاستمرار في خدمة هذه الرسالة والوفاء لها: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾[3]

وفي مواضع كثيرة من القرآن الكريم بيّن الله للعرب مكانتهم، ثم أوحى بعد أن انتزعه من اليهود، وكيف انتقصهم ذلك الإخلاص له وحرمهم رسالته والسهر على أدائها.

فلننظر في سورة الجمعة، وكان يوم الجمعة في الجاهلية يسمى يوم العروبة، حتى غلبت التسمية الشرعية نظرا للصلاة الجامعة التي تحتشد الناس فيه.

إن أول هذه السورة تسبيح الله والثناء عليه بما هو أهله... ثم شرعت تتحدث عن العرب، وكيف اختار الله منهم نبيا يربيهم ليرقى بهم العالم، ويعمم نعمه بهم الآخرين: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[4]

نعم كان العرب قبل الإسلام في جاهلية طامسة وتأخر ظاهر، ثم أحيا الإسلام موتهم وأعلى ذكرهم، فمنهم نعمة من السموح التي تعم ومن دين عاقلة بشرية في طبيعتها: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[5]

ثم يذكر الله جل شأنه في هذه السورة بعد ذلك أن العرب بهذه الميزة يعدون كالكتب قبلهم، فيقول: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[6]

وهذه الآية واضحة في أن اليهود فقدوا صلاحيتهم لحمل رسالات السماء فقدانا

---

(١) الأنبياء
(٢) الزخرف ٤٤
(٣) فاطر ٣٢
(٤) الجمعة ٢
(٥) الجمعة ٤
(٦) الجمعة ٥

أبدا لأنهم فقدوا القدرة على الانتفاع بالوحي الإلهي، ولم يستطيعوا تهذيب أنفسهم به فكيف يقدرون على تهذيب غيرهم؟

إن صاحب القلب القاسي لا يجدر به أن يحمل عنصر الرحمة لغيره وصاحب الذهن المغلق ليس أهلا لتوعية الآخرين، وفاقد الشيء لا يعطيه !

والحامل للكتب الذي لا يدري ما فيها لا يصلح تلميذا فكيف يكون أستاذا؟

هذا ما عرف عنه رسالته من اليهود إلى العرب ثم الآخرين بحسبان الوصاية عليها والسير بها

وإن كان اليهود بعدما رأوا هذا التحول المفاجئ في بعثة الأنبياء قد استماتوا في تكذيب الرسالة الجديدة والعدوان على صاحبها فقال الله جل شأنه

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (1)

وفي موضع أخرى من القرآن الكريم سجلت هذه النقلة بين اليهود والعرب تسجيلا يحمل في أطوائه ما يجب أن ندرس وما يجب أن نعرف، لأنها تعرفنا ما وقع من غيرنا، وما ينبغي أن يقع منا

في سورة آل عمران وصف الله بقوله ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ لماذا؟ أهو امتياز عنصري أو تفضيل جغرافي؟ كلا، لا هذا ولا ذاك

إنما هو خصائص خلقية وفكرية تنفع الإنسانية جمعاء، بعد أن تنفع أصحابها أولا، هذه الخصائص هي قوله ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾

وهذه الخصائص هي التي فقدها أصحاب الرسالة السابقة فعزلوا عن منصب القيادة العامة للبشر ثم قال مبشرة ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ (2)

والأمم تؤاخذ بما يسود كثرتها الكبرى من عوج أو ريبة، ووجود قلة صالحة لا يغني عنها ولا يجنبها المصير المحتوم

والظاهر من تفسير القرآن الكريم أن قدر الأمة مرتبط بمدى إيمانها، وأن سبقها غيرها، وترجيحها عليه، مرتبطان بحرصها على فضائلها

(1) الصف ٨ ، ٩ (2) آل عمران ١١٠

وإلا فسوف يصيبها ما أصاب غيرها

ومن أخطاء أهل الكتاب الأولين أنهم ظنوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه

وأنهم قادرون على منحه لمن يحبونه من شاءوا وقادرون على مغفرته يبيعون بها صكوك لمن يدفع الثمن، وهذه كلها تصورات باطلة فهي الأفراد والأمم تعلو إذا قدرت على التحقيق، وتهبط إذ فترت منها الهمم، وغلب عليها الكسل

وليس لأحد قط أن يتدخل في هذه العلاقة بين الطرفين **﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا ﴾**[1]

وبدلت عندئذ رسم القرآن الكريم الطريق أمام الأمة الجديدة بين أن الله يختار من يشاء من خلقه ليحمله شيئا من أمره، وأن هذا التحميل اختيار مقصود لا اختيار مصادفة، فقال جل جلاله **﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾**[2]

ثم شرح بعد ذلك الرسالة التي أذن للعرب بحملها، والأعباء الشريفة التي تقترن بها فقال **﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾**[3]

والظاهر من هذا السرد التاريخي أنه كان هناك شعب مختار فسقط وعزل

وأن هناك شعب آخر وقع عليه الاختيار، ليسمع رسالات الله ويضيء الطريق أمام الأحياء

نعم هناك شعب آخر مكلف أن يتصدر الركب الإنساني المنطلق بحدوه باسم الله، ويعطيه الأسوة الحسنة من تمسكه بهداه

شعب تعلم من محمد ثم يعلم الآخرين ويطبق تعاليمه على نفسه ثم يجعل منها نماذج لغيره **﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾**[4]

---

(١) - الكهف ٢٦
(٢) - الحج ٧٥، ٧٦
(٣) - الحج ٧٧، ٧٨
(٤) البقرة ١٤٣

تلك هي الحقيقة التي تاه عنها جمهور كثيف من العرب فتخطفته ربانية الأرض، ثم هوت به في مكان سحيق !!

والصراع الدائر الآن هو بين المطرودين من أصحاب الرسالة الأولى، وبين التائهين من أصحاب الرسالة الخاتمة.

فلنشرح أدوار هذا الصراع، وملابساته المرة.

* * *

إن اليهود الذين كذبوا عيسى منذ عشرين قرناً، وكذبوا بعده محمداً مضوا في الطريق التي اختطوها لأنفسهم، وعاشوا في حدود ما لديهم من تعاليم وتراث وتقاليد، وتحملوا غضب الله عليهم بجلادة تثير الدهشة.

إنهم على امتداد القرون والحقب لم يتخلوا عن رأيهم في أنفسهم أنهم شعب الله المختار.

وقد طاردتهم الأقطار والشعوب فما فني بعضهم بعضاً ولا تلاشوا في الأمم التي ضاقت بهم ونظرت إليهم شزرا.

ولما كان النصارى يعتقدون أن اليهود قتلة عيسى وسبب بلائه فإن الأمم النصرانية تقربت إلى الله بإذلال اليهود حيث كانوا، واستباحة دمائهم لأتفه التهم، حتى إنه لولا ظهور الإسلام لبادت اليهودية من فوق ظهر الأرض !!

ولم يتورع شعب مسيحي في طول أوروبا وعرضها عن إلحاق الأذى باليهود جهد ما يستطيع.

ومع هذا كله فإن اليهود ثبتوا مستقبلهم وسط هذه الصعاب، موقنين أنهم شعب الله المختار، ومؤمنين في مستقبل أفضل، مستقبل يفرضون فيه مشيئتهم على العالم، وتتوج السلطة العليا فيه رأس إسرائيل.

واستطاع علماء بني إسرائيل وأساتذتهم أن يستغلوا ثغرات واسعة في علاقة المسيحية بأتباعها، وأن يكملوا النقص في تغطية الحاجات الخاصة والعامة الأدبية والمادية على السواء.

فما كاد يقبل عصر النهضة مع القرن السادس عشر الميلادي حتى شرع اليهود يثبتون لأنفسهم دعائم مكينة، وواصلوا السير في صمت ومكر حتى أمكنهم خلال القرن العشرين أن يكونوا في مختلف القوميات الأوروبية والأمريكية طائفة ظاهرة اليسار والارتقاء.

وهنا شرع بنو إسرائيل يعملون دون [illegible] في دعم دولتهم المنشودة وتحقيق حلمهم القديم في حكم العالم.

وسنحت الفرصة بسقوط الخلافة الإسلامية، وغيبة العرب عن رشدهم، وذهولهم الهائل عن رسالتهم، فضربت اليهود ضربتهم، وأخذوا فلسطين.

ويدعي أن اليهود وحدهم من كانوا يقدرون على ما فعلوا. إن التحالف المشترك على الإسلام وأمته وحده في تحول اليهودي إلى فرصة، وتقدم بنفسه وبدأت حربه وأعداءه – ولا يزال – على طلوع أهدافه.

وإن أوشك تحالف الصليبيين الجدد، في السياسة الأمريكية والأوروبية المتعصبة للإسلام وأمته يرون في إقامة دولة اليهود على هذه البقعة من أرضنا خطوة لها ما بعدها في زلزلة الكيان الإسلامي كله.

ومن ثم حرصوا على خذلاننا في كل ميدان وتخييب آمالنا في كل سعي، ولم نر من خمسين سنة – أي منذ بدء احتلال اليهود فلسطين – سياسة مسيحية تعارض اليهود أو ترثي للعرب المنكوبين.

حتى الجنرال ديجول، رئيس حكومة فرنسا الذي يشيع الآن أنه نصير للحق العربي، لم يفكر قط في أن فلسطين للعرب وأن اليهود مغتصبون لها. وغاية ما صنع أنه – لأمر ما – وقف ضد التوسع اليهودي الحالي، وأدان ما سمي «محو أثر العدوان»..!!

أما بقاء إسرائيل في موقعها المرسوم المحدود فليس موضع جدل.

والواقع أن السلاح الأمريكي والفرنسي والإنجليزي هو الذي سفك دمنا، ونهب حقنا، واستباح وجودنا وتاريخنا، وأنكر حاضرنا ومستقبلنا.

واليهود هم الأداة الطيعة التي اختيرت لتحقيق هذا المأرب.

وإلى جانب الصهيونية والصليبية عملت الشيوعية العالمية عملها في إقامة إسرائيل، وساندتها في المجال الدولي مساندة مكشوفة.

ولا ريب أن الشيوعيين سرهم أن ينقسم العرب قسمين، وهيأ لهم ذلك في مكانهم للموقع الذي تحتله الآن، فإن ضعف الإسلام وضعف العرب يساعد على نشر الشيوعية وإزاحة السدود الصحية من أمامها.

وموقفها الحالي من التوسع اليهودي تمليه ظروف سياسية معقدة

وسط هذه النصر والمحن أقبلت اليهودية العالمية تريد استعادة نشاطها الأول، معتمدة أن الإسلام أكذوبة يجب أن تنتهي، وأن أمته خرافة يجب أن تزول.

أي أن الهدف المخطط هو إزالة دين، ومحو أمة!!

وإسرائيل الكبرى تمتد شرقا وغربا من الفرات إلى النيل وتمتد جنوبا حتى تشمل الحجاز، وتستوعب مكة والمدينة.

وحجتهم أنه في هذه البقاع تحول أسلافهم وانتشروا، وأن الظروف التي شردتهم قد انتهت.

وأن العرب الذين يستوطنون هذه الأرض ليسوا أهلا للبقاء فيها.

إن المقدسات الإسلامية إنما تستمد مكانتها الروحية من تعلق أصحابها بها وقدرتهم على حمايتها، ولكن محمدا مات وترك بنات!!

هكذا كانت التظاهرات اليهودية تجأر بالهتاف في مدينة القدس حيث المسجد الأقصى.

وقد رأيت بعيني صور الجنود اليهود يحملون التوراة في اليد اليمنى والمسدسات في اليد اليسرى، وهم على ظهور دباباتهم المنطلقة بهم في ربوع القاهرة، وأرض الدليلة المرحشة.

إن الأماني التي دفنت في التراب الذي نحو ثلاثين قرنا انتفضت محمومة، وجرت معها عداء الصليبية للرسالة التوحيد، وعداء الوثنية لرسالات السماء، ولوحي الله جملة وتفصيلا، ثم هجمت على العرب المنقسمين على أنفسهم، الراغبين عن رسالاتهم، واستطاعت أن تكسر جنودهم بالعار، وأن تملأ وجوههم بالخزي.

بلغ خراب اليهود ومن والاهم نظرة عجلى على أكناف الميدان العربي.

❊ ❊ ❊

شهدت العرب مع اليهود ثلاث مرات، سنة ١٩٤٨، سنة ١٩٥٦، سنة ١٩٦٧، وانهزمت دولهم خلال هذه المعارك هزائم شائنة، وكانت كل هزيمة أسوأ من سابقتها وأشد خزيا.

وإذا غيب الروح الدينية والأسباب الخفية لدى العرب على مستوى المعهود في معاركهم السابقة فقد انكسروا في معركة الأيام الستة، وانحسروا وخرجوا كلهم، ويذهبون في حيرة كدن

إن اليهود يقاتلون بدافع من إيمان، ويعملون كما شرحنا لتحقيق رسالة دينية ومدنية معاً.

أما العرب فإن ساستهم خلال خمسين سنة كانوا يعملون بمخطط استعماري لإبعاد الدين عن أفق الحياتين الخاصة والعامة. !

ويوم يلتقي رجل ملتهب المشاعر بعقيدة ما، مع رجل لم يستقر فؤاده بحقيقة دينية، بل لا يدري من حقائق هذا الدين قليلا ولا كثيرا، فماذا تكون النتيجة؟ إنها الهزائم المرة التي ذقناها.

إنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يقف أمام معتدين باسم الدين إلا مدفوعون باسم الدين.

إن اليهودي يأبى أن يأكل لحم الخنزير مثلا، لأنه محرم في دينه، ولديه ضمير ديني يمنعه من هذا الطعام بقوة.

أما المسلم لدى أمامه فهو يشرب الخمر المحرمة في دينه دون ضمير رادع!

ولست أتهم كل أحد بهذا الاتهام، ولكن عدداً من القادة أصبحوا يشربون الخمر جهرة في شتى الجيوش العربية.

واليهودي يعظم يوم السبت، ويصوم الأيام المقررة عنده.

وعدد كثيف ضخم من الرجال لا يصلون الجمعة ولا يصومون رمضان، بل إن الصلاة متروكة في بعض الجيوش في كل الأوقات.

فإذا طويت هذه الصفحة من التمرد على أمر الله، فلنلفت النظر فيها إلى أن لا نشكو لمعاص فردية تقع من هذا أو ذاك، أو أن مرد النتائج الضخمة إلى سيئات محدودة... كلا كلا.

إنه تخطيط شامل من خطة محكمة، هي أن الدين أُبعد إبعاداً متعمداً عن ميداني الحرب والسلام جميعا.

وإنه حجر على صوت الإسلام أن يخترق الآذان بتوجيهه، بينما تمضي كتائب اليهودية تعمل عملها في جبهة القتال ووراء الجبهة.

فهل كان إذن مقصوداً أن إبعاد الإسلام عن هذه الميادين ليس إلا عملا لحساب إسرائيل، أو لحساب القوى التي تساندها كليا أو جزئيا؟

كل الدلائل تشير إلى صدق هذا الاتهام.

والغريب أن العرب في تخلصهم من قيود الدين وآدابه ظهرت عليهم أعراض طفولة عقلية ونفسية مزرية، فلم يتصرفوا مع عدو أو صديق تصرف الرجولة الناضجة، والبصيرة الواثقة الحادة، بل على العكس، كانت خططهم الحربية هزيلة وكانت مع هزائمهم مفضوحة، وكانت خطبهم ذات رنين عال وبهجة مفرغة.

ثم أتت الجمعة تكشف الغطاء عن مهزلة، بل عن هزائم من غير قتال، وانسحاب دون أن يتحقق لخصومنا نصر يذكر.

والمرتقب من كل عاقل أن يدرس هزيمته، ويحدد علله حتى يحسمها مستقبلا فهل فعلت الدول العربية ذلك؟ وهل رسمت سياستها التربوية والثقافية والعسكرية على ضوء ما مسها من كروب؟ لم يقع شيء من هذا.

وأذكر أنني كنت أتحدث مع مقاتل شهد معركة صبحة في الخمسينات فقال لي: والله لقد قاتلنا بشدة وعزم.

فقلت له: لكن اليهود استولوا على الموقع!!

فقال: إنا والله كلفناهم خسائر جسيمة، غير أنا كنا نحصد منهم صفا بمدفعي حتى يسد مكانه صف آخر وهو يرتل الأناشيد الدينية.

وهززت رأسي عجبا وأنا أسمع هذا الكلام ثم تساءلت بيني وبين نفسي: كم نشيدا دينيا يحفظه شبابنا؟

كم آية قرآنية تغري بالاستشهاد، أو حكمة نبوية توحي بالثبات والتحمل يحفظها ضباطنا وجنودنا، ويرددونها في ساعات الهول؟؟

إذا كانت الحاجة أم الاختراع فالإيمان أبو الاختراع وأمه.

إن المؤمن يورثه طلب النصر ويفتق له وجوه الحيل ويبصره بأنواع الخدع، ويبعثه على التنقيب في فجاج الأرض وآفاق السماء، راصدا العدو، مستعدا لمواجهته.

فهل فعل ما فعله العرب؟ لا، لا، لأن آباءهم الأقصين والأدنين لم ينهضوا على قواعد الإسلام... ثم غمرتهم الطفولة الفكرية والخلقية التي ذكرناها، فقادتهم بتكرار هزائمهم لثلاث مرات خلال عشرين سنة، ويزعمونها، أو بعضها كأنه انتصار.

وقد قرأت مقالات شتى تريد لتقنعنا أن الهزيمة ليست فقدان الأرض، وضياع المقدسات، وخسارة الرجال!! لا، إن الهزيمة عند هؤلاء شيء آخر لا تعرفه قواميس اللغة ولا مفاهيم الناس، وهكذا

يمضي على المرء في أيام محنته — حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وأحقر ما سمعته في أعقاب هذه الهزيمة أنهم لم يعللوا الهزيمة بأي شيء إلا ضعف العقيدة والخلق، وما نشأ عن ضعف العقيدة والخلق، من فوضى في وضع الخطط، وترتيب الرجال، ونسيان الله، والحرمان من توفيقه وتأييده

وضربت كفا على كف وأنا أسمع رجلا من رجال الدين الأتاسي يقول: إن سبب الهزيمة هو عدم التطبيق الكامل للاشتراكية!

ويوم يقع قادة العرب في أسرى شيء من هذا الطراز فهيهات أن يصح لهم قصد، أو تعلو لهم راية. ولله في خلقه شئون

* * *

وأعرف أن هناك من حرص على تفكير هذا ويستنكره، إنه ضعف المسكين الذي يخرج وفق البرامج المدرسية التي خلفها الاستعمار في بلادنا

قال لي أحد هؤلاء: يريد حربا دينية؟ إن هذا نوع من الحروب انتهى مع العصور الوسطى، سيروا مع الزمن واطلبوا حربا تحريرية معقولة!

وقلت لمحدثي: إني لا أطلب حربا دينية، إنها فرضت علي. حرب دينية اتسمع أن الدولة التي سمت نفسها باسم نبي قديم وأغفلت القوميات الحديثة، وضمت اليهود من مع اليهود من بولندا ... في أخوة دينية شاملة، وألهبت المشاعر الدينية عند النصارى المؤمنين بالعهد القديم، وحركت ذكرياتهم الصليبية الدفينة ليهجموا على المسلمين معها. هذه الدولة تعلن علينا أي نوع من الحروب أيها الإنسان الذكي؟

حرب أكل وشرب؟

حرب رياضة وتسلية؟

حرب مجد شخصي لملك مغرور؟

إنها حرب دينية فرضت علينا! ولا بد أن نواجهها راضين أو كارهين!

وإقصاء الدين - وهو في جهتنا الإسلام - معناه هلاك الأبد.

قال لي: لكن الحرب الدينية عمل منكر، وهو تحجر عقلي متعصب لا نستطيعه!!

قلت له: إن الحرب الدينية عندنا لا يراد بها المفهوم الذي تعارف عليه الغربيون، لأن هذه الحروب في تفكيرهم وفي تاريخهم كانت شرا على الناس، فرضت على معتقداتهم بقوة السلاح، أو لتغليب مذهب على آخر وإدخال الناس فيه كرها

وهذا المفهوم النسبي للحروب الدينية لا نعرفه في ماضينا ولا في حاضرنا، ومع هذا كله فلماذا توصف دفاعنا عن ديننا وأرضنا وتاريخنا ومقدساتنا بأنه حرب دينية رجعية ؟؟

ولقد سكتت أبواق الغربيين الغربية والشرقية عن هجوم إسرائيل علينا، ووجهها الديني ليس موضع جدال

هل يباح لليهودية أن تعلن حربا علينا دينية، ولا يباح للإسلام ذلك ؟ وهو يدفع وهي تهجم ؟

أم إن القضاء على الإسلام هدف مشروع ؟ وأصبح أهله وهم يدفعون عنه عملا مستهجنا ؟؟

لقد نجح الاستعمار في خلق جيل يستحي من الانتماء لدينه، ويرفض العمل تحت لوائه، وهذا الخجل الذي أصاب الطليعة العربية ثقافيا هو التصور الأول لا التصور الخامس الذي ألحق بنا الهزائم، ونكس رؤوسنا في كل ميدان

ومن هنا بدأ العمل لتحقيق نهضة إسلامية، من شأنها أن تحشد الجهود المخلصة لإنقاذ أمة تمكن أعداؤها من أن يوجهوها ضد نفسها ورسالتها.

من هنا يحق لنا أن نسأل: أحركة حياة مشروعة مستغرقة لنضال حاضرنا ومستقبلنا، ونعرف من نحن؟

وما وظيفتنا في الدنيا ؟

وماذا يراد بنا ؟

وماذا يراد منا ؟

إن العمل للإسلام ليس كفالة للآخرة فقط بل هو ضمانة حياتنا الآن.

وإنها لحماقة كبرى أن نجهل رسالتنا التي اصطفانا الله لها لأننا نفقد مكاسبنا الأدبية والمادية، ونخسر الأولى والآخرة جميعا

* * *

هذا يعني فهم سر ثنائي على أنفسنا «يقول المؤرخ الإنجليزي «ويلز»: إن اليهود اتخذوا الرب كنزا وادخروه لجنسهم !!

واليهود الذين فعلوا ذلك من عشرات القرون لم يتغير فسادهم النفسي ولا غرورهم الجنسي، ولقد كذبوا عيسى ومحمدا، وسيظلوا يكذبونهما لأنهما جاءا لإصلاح هذا الفساد وقمع ذلك الغرور

واستنفد اليهود أداء رسالتهم الأولى بعد توطيد أركان الربا، والحقد، والنعرة العنصرية، واستغلال الشعوب، كما بعد قطع حبل الإنسانية مع الله، ونسيان اليوم الآخر، وإهمال الجوانب الروحية.

وذلك بداهة غير الآثار التي للرسالة الإسلامية من تقوى وعدل، وتمزيق الشعب العربي كل ممزق.

ونحن شئنا أم أبينا سنلتحم مع اليهود في حرب بقاء أو فناء، فإما انتصرنا عليهم وإما أتم أبناؤنا ما عجزنا عنه.

فإن نجح أبناؤنا فيها وتحققت، وإلا فمعنى الانهزام سيستتبع الاستئصال إلى آخر الدهر.

ومع استعار هذه الحرب إلى ما شاء الله أريد أن أقول للمسلمين كلاما طويلا يدركون منه حقيقة رسالتهم وسر نكبتهم.

وهو كلام يعيدهم إلى الصراط المستقيم، ويقربهم من يوم النصر، ويشرح لهم سنن الله التي تنطبق عليهم وعلى غيرهم.

فإنه من المستحيل أن يرضى الله إذا سقطنا نحن المسلمين خلائف اليهود الأقدمين مسخهم الله بمعاصيهم قردة وخنازير.

يستحيل أن ينصر الله هؤلاء، ومن المتوقع أن يلتقي اليهود بأشباههم ثم تعمل القوانين الطبيعية عملها فينتصر الأذكى على الأغبى والأدهى على الأجهل وذلك ما كان!!

* * *

حسبت لأول وهلة أن حديث القرآن الكريم عن بني إسرائيل تكاثر واستفاض بعد الهجرة النبوية، أي بعد أن جمع اليهود والمسلمين وطن مشترك وجوار قريب.

ثم تبينت خطئي بعد أن تدبرت الوحي النازل في مكة، فقد ظهر لي أنه تكرر ذكر بني إسرائيل في القرآن المكي تكرارا يشمل أغلب السور.

ولا عجب فقد ذكر اسم موسى في القرآن نحو مائة وعشرين مرة، فما ذكر اسم نبي ولا ثبت بهذه الكثرة، ولا تحدث الوحي عن أمة من الأمم الأولى كما تحدث عن اليهود.

فقد جاء ذكرهم في الأنعام والأعراف والإسراء وطه ويونس وهود وجميع الحواميم والطواسين وسور أخرى كثيرة.

والسور التي أحصيناها مكية كلها. وقوله تعالى ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾[1] آية من سورة النمل المكية.

وعجيب واليهود في مكة نفر لا يؤبه لهم أن يعنى القرآن بقصصهم كل هذه العناية!

وقد ساءلت نفسي: ما السبب في هذا السرد المفصل لتاريخ بني إسرائيل في مكة قبل المدينة؟

أهو تعريف المسلمين بحقيقة القوم الذين سيختلطون بهم فيما بعد؟ إن هذه إجابة غير مقنعة.

وبعد تأمل غير قليل وجدت أن هذا التاريخ يحوي في طياته العناصر الحقيقية لقيام الأمم، واستقلالها بأمورها، وازدهار حضارتها، كما يحوي العناصر الحقيقية لانهيار الأمم، وذهاب ريحها، واضمحلال أمرها.

والقصص القرآني من أبرز الوسائل التربوية للأفراد والجماعات، وقد كان المسلمون المستضعفون في مكة بحاجة إلى أن يعرفوا كيف تحول اليهود الأولون من ذل هائل إلى تحرر وتمكين، ومن هي العناصر التي لا مناص منها كي تبلغ الأمم هذه الغاية الكريمة.

وقد نوهت السور المكية هنا بالشرع، وأثبتت الحقيقة المستقيمة كيف تحول شعب ذبيح صبيانه، وتستحيا نسوته، إلى شعب مكين في الأرض يستعلي على ظهرها.[1]

وقد سئل بعض الأئمة: المكلف يمكن أولاً ثم يبتلى، أم يبتلى أولاً ثم يمكن له؟ فقال: يبتلى أولاً ثم يمكن له. وتلا قوله تعالى: ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[2]

والآية من سورة السجدة المكية، وهي تنبه إلى الصبر واليقين سبب الكفاح الطويل الذي يصل بالأمم الناهضة إلى هدفها.

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة الاجتماعية في سورة الأعراف ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى

---

(1)- النمل ٧٦ (٢) السجدة ٢٤

على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ (1)

وهكذا تفاوتت مصائر أقوام كانت بداية أمرهم متقاربة، أبعد الفوارق فصراعة يصمدون للأوامر بالصبر والتسليم، وحكمة التوحيد يمضون في الطريق المضرجة بالدماء والأحزان.

فأما الأولون فقد حق عاقبة خسرانهم صغاراً وبواراً ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ (2)

أما الآخرون المعتصمون بحبل الله المستمسكون بعروة الإيمان والتقوى، فقد ظفروا وعمروا ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ (3)

إلا أن البشر كثيراً ما ينجحون في امتحانات البأساء والضراء حتى إذا وسع الله عليهم وغمرتهم نعماؤه، لم يحسنوا اجتياز الاختبار الجديد.

وما أكثر الذين خرجتهم البساطة إلى حضارة متسلطين، وخرجتهم الثروة إلى طغاة مستكبرين.

وكان من المنتظر من بني إسرائيل أن يستغلوا تمكين الله لهم في نصرة دينه وإسعاد عباده، إلا أنهم سرعان ما فتكت بهم جراثيم السطوة والثروة، فلم يعصموا من الجزاء السحيق لأمثالهم ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ (4)

وقد بين الله للمسلمين مراحل هذا التحول لنعمه، وأوضح مظاهره في أخلاق القوم ومسالكهم، ومن شعر حرصه على ذلك أن يتجنب المسلمون المزالق التي هوت بغيرهم، فإن الأمم لا تسلك جزافاً، ولا تسوق إليها المصائب خبط عشواء، ولكنها قوانين الله التي تخضع لها الأولون والآخرون ولا تعمل فيها شفاعة، ولا يقف حكمها استثناء.

إن الله نحى أبناء إسرائيل عن المنصب الذي لم يقدروه قدره، واستقدم العرب ليقودوا الإنسانية حيث عجز أبناء عمومتهم.

والغريب أن [illegible] الذي قبل هؤلاء قبل لا [illegible] على [illegible]

(1) الأعراف ١٣٧ — (3) الأنبياء ٧٣

(2) القصص ٤١، ٤٢ — (4) البقرة ٢١١

وفي ندائهم من العذاب الأليم صرخ بنو إسرائيل لنبيهم موسى قائلين: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾(١)

ترى إذا تحررتم واستخلفتم تحسنون وتعدلون؟ أم ترتكبون الآثام وتستحلون المحارم؟

وبعد أعصار طوال جيء بالأمة الإسلامية بعد انقضاء بني إسرائيل الذين أساءوا وظلموا، فماذا قال الله للأمة الجديدة؟ قال: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾(٢)

ذات القول الذي قيل لبني إسرائيل من قرون سحيقة!

فلنقارن بين تاريخ وتاريخ، وعوج وعوج، لنعرف ما لنا وما علينا.

وهل وقفنا أم عدلنا، وهل ما أصابنا كان جورًا استبد علينا؟ أم هو صنع أيدينا وحصاد ما غرسنا؟

* * *

إذا كانت أمة ما صاحبة رسالة، فيجب أن تكون جاذبة في ظاهرها وباطنها، وفي معاملاتها الداخلية والخارجية على السواء؛ لأنها بهذه الرسالة صورة تحبب الآخرين فيها، وتغريهم باعتناقها.

أما أن ينفر الدعاة غيرهم من قبول الدعوة، فهذه هي الخيانة الكبرى!

وحملة الدعوة المخلصون، يخشون أن يصح فيهم أو يقع منهم ما يكون حاجزًا للآخرين أو عائقًا عن تصديق دعوتهم.

وبهذا نفسر الدعاء في قول المؤمنين: ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾(٣)

وكيف يكون المؤمنون فتنة للذين كفروا؟

إن المؤمنين حين تصيبهم المحن ثم تنسب إلى تقصيرهم فينظر الكفار إلى هذه المحن ثم يقولون: لو كانوا على حق ما مستهم تلك المصائب.

---

(١) الأعراف: ١٢٩
(٢) يونس: ١٣، ١٤
(٣) الممتحنة: ٤، ٥

إن الدعاة الصادقين يخشون أشد الخشية أن يكونوا عبئاً على رسالتهم أو سبباً للتحول عنها.

ولعل هذا سر قول النبي صلى الله عليه وسلم «من آذى ذمياً كنت خصمه»

عمداً؟ لأن إيذاء الذمي ليس ظلماً عادياً لواحد من الناس، كلا، إن الذمي المظلوم سوف يعتقد أن مصدر متاعبه هو دين المؤذي لا شخصه.

وبذلك يكره الدين وصاحبه، وينصرف عن التحول فيه، فتكون مساءة فردية سبب في كفر أفراد وجماعات.

وبنو إسرائيل عاملوا الأمم الأخرى بأسلوب حافل بالدناءة والشره، وتواضعوا على أكل أموالهم، واستباحة حقوقهم، وافتروا على الله تعاليم يزعمون فيها أنه ليس عليهم من حرج في هذا اللون من السلب والاختطاف.

﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾(1)

ولن تنكب أمة رسالتها بأسوأ من صرف الناس عنها بهذه الطريقة الخسيسة.

ومن المؤسف أن المسلمين أثاروا في أفق الدعوة الإسلامية ضباباً لا آخر له بقولهم وعملهم على سواء.

فتخلفهم العلمي مريع، وهبوطهم الخلقي شديد، وهذا وذاك صدود عن سبيل الله وفتنة كبرى!!

وربما كان المسلمون في معاملاتهم للأجانب عن دينهم وبلادهم أدنى إلى الشرف والكرم، بل ربما كانوا هم المغبونين المحرجين.

بيد أن المسلمين بعامة لا يعطون صورة صحيحة ولا مقاربة للإسلام.

والشعوب المتطلعة إلى السمو العلمي، والكرامة السياسية، والرفاهية الاجتماعية، والانفتاح الواسع، وغير ذلك من مظاهر الارتقاءين الأدبي والمادي، في غيظ تام من أن يكون المسلمون نماذج لهذا أو لشيء منه!

وهذه الشعوب المتطلعة ترد الأمية الشاملة بين جماهير المسلمين، إلى الدين الذي توارثوه لا غير!

---

(1) – آل عمران ٧٥، ٧٦

وقد كانت تعاليم الإسلام في الأوج وكانت حال المسلمين في الحضيض وإن هذا التناقض سيظل أبدا مثار ارتداد عن الإسلام، أو اتهام له !

فهل نحسب أن الله يكرم أمة من الأمم بدين عظيم فتأبى هي الكرامة، ثم تعكس هوانها على دينها وبعد ذلك تفلت من العقاب الأعلى...؟

كلا... ومن هنا تتابعت السياط الكونية على الأمة المفرطة، وتناوشتها اللطمات من كل جانب.

وبلغ من تجهم القدر للمفرطين أن اليهود كانوا هم الأداة التي ضربوا بها! كأن المسلمين لم يضربوا بعضا، حين أخطئوا، لقد ضربوا بهذه الأمة مع إخوان القردة وبغال الأرض.. !

ومن من ينكر أن بني إسرائيل قديما واستحقوا به غضب الله ما لا فعل المسلمون في العصور الأخيرة مثله.. !

ولكننا شهدنا عيب، فلنظر... من لدى ننسب إلى هؤلاء ولنقارن بين ما وقع منا، وما نسب إليهم

أخذت المواثيق على بني إسرائيل ألا يسفكوا الدماء، وألا يروعوا الآمنين، وألا يشردوا رجلا من بيته، ويخرجوه من أهله

ففعلوا ذلك كله، وفعلنا نحن مثله

تأمل قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴾ [1]

وهذا الميثاق يتضمن سعة عصرنا. ضمانات لحقن الدماء، وحفظ الحرمات، وإشاعة الطمأنينة

والواقع أن القيمة العليا، أو الثمرة العظمى للمجتمع المتدين أن يكون الإيمان مصدر أمان لكل فرد فيه، وأن يكون الإسلام مبعث سلامه وعافيته ورضا

ما أن يحيا الضعيف فيه على حرماته، وأن يمشي في البلاد حائفا يترقب، أما أن يسمح للقوي ويبسط يده بالأذى دون رادع، أما أن يستطيع ملاك السلطة اختطاف الناس من بيوتهم أو بتعبير القرآن الكريم إخراجهم من ديارهم فهذا وضع لا يستقر معه إيمان

---

(1) - البقرة : 84، 85

ومن جوامع الكلم للنبي صلى الله عليه وسلم «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن» أي أن الإيمان يغل اليد عن العدوان ويحجز عن الأذى.

وقد أخذ الله على بني إسرائيل ... أنه لما قامت لهم دولة، وملك بعضهم السلطة، هانت عليه أخوة الدين، فبغى، وأفسد، وقاتل، وأسر.

وقد نظرت إلى تاريخ المسلمين وخصائص هذه الأعصر، فوجدته نسخة أخرى من خلال اليهود الذين مسخ الشرع طبعهم وأوهى بها بناءهم.

حتى لقد خيل إلي أن الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط، دون غيرها من شعوب الأرض، استمتاعا بالحقوق الطبيعية للإنسان.

ولقد رأيت بعض المعارضين يفرون من وجوه الحكام إلى أوروبا، فإذا وراءهم من يقتلهم حيث لجئوا!

فماذا يقول الأوروبيون الذين لا يدينون دينا، في مثل هذه التصرفات؟ وكيف يكون رأيهم في الإسلام وأهله..؟

أذكر أني منذ ربع قرن كتبت خاطرة بعنوان «حرب الحريات وحرب العصبيات» فرقت فيها بين أصحاب من عنى في الخصومات العنصرية وبين أصحاب الشعوب التي تقاتل من أجل حرياتها، فوجدت الصحيفة أكثر في هذا الشقاق العائلي أو هذا النزاع الداخلي بين المسلمين!!

كأن قد قوله تعالى: ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾ (١)

والدماء التي يهريق بعضها على بعض، تحرم عناية الله وبركته في الأولى والآخرة.

* * *

وقد عرفت كيف كرم الله بني آدم، وكيف نظر رسول الله إلى الكعبة ثم قال: «ما أطيبك وأطيب ريحك وما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك، حرمة دمه وعرضه وماله».

إن هذه مقدسات، ومع ذلك فإن الجور استباحها.

ونحن نكرر الإسلام كلا لا يتجزأ، فمن أنه عد استباحة بعض محارمه إضاعة له كله، كما عد الكفر ببعضه كفرا به جميعه ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب

(١) الحشر ١٤

وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾(1)

والتنويع بمعالم التصور إشارة إلى أن ... الفسوق والغش لا تكسب ذويها عزة في الدنيا كما لا تكسبهم كرامة في الدار الآخرة

ومن حصانة الأمة ورسالتها أن تسود عواطفها تجاه حقوق الله، وأن تجعل حبها وبغضها مرتبطين بمصالحها لا بمبادئها

ولو أنك رأيت امرأ يتطاول على علم بلاده وهو يحترق مثلا ثم لا يبالي ما ترددت في الحكم عليه بأنه خائن

كذلك عندما ترى تابعا لدين ما يستهين بشعائره ثم لا يعنيه حلاله ولا حرامه، إنك ما تتردد في اتهام عقيدته

ويوجد ناس ما يسوؤهم أبدا أن تعطل الصلاة، ولا أن تباح الأعراض

أهؤلاء بينهم وبين الله علاقة حسنة؟ مستحيل

فهب أنهم يصدقون بركن الفرائض، ويدعون المناكر، فهل يحسبون مع ذلك في أعداد المؤمنين؟ كلا

عندما تحلل اليهود من دينهم نعى هذا المسلك الله عليهم ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾(2)

وظاهر أن تقاليد الخير تذبل وتتلاشى مع ضعف التحمس لها، وأن تقاليد الشر تنمو وتربو مع ضعف النكير عليها

من أجل ذلك كانت الخصائص الأولى للأمة التي تحمل رسالة الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وكانت الشروط الأولى لانتصارها أن يكون هذا العنصر طريقا لتكوين بيئة تزدهر بها العبادة، وتسود فيها التراحم وتستحكم فيها الرقابة على السلوك العام، وتظهر علامات

---

(1) البقرة: 85، 86 (2) المائدة: 80، 81

الخمر، والعصر، والسمر في طريق الهدى والأخلاق، فمن كان معروفاً سُمح له بالمرور، وإلا وقف في مكانه وأُغلقت في وجهه كل الطرق..!!

ذلك معنى قوله جل جلاله في سرد مؤهلات النصر ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ (1)

فهل أرض الإسلام الآن على هذا المستوى الشريف الجدير بالنصر؟ أم إن العلل الخلقية والاجتماعية استوطنت بلادنا، وغفل الحراس عنها وغطوا في نوم عميق؟

في اليهود الذين [illegible] الوحي الإلهي، ورد لعنهم على لسان المرسلين نقرأ قوله تعالى: ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾ (2)

فهل هذا الوصف للمجتمع اليهودي اللعين وحده؟

أم تراه صادقاً على مجتمعات شتى في العواصم الإسلامية الطافحة بالعصيان ودواعيه، الطافحة بجراءة الفساق، وجبن العلماء؟

أيحسب عاقل أن هذه أسباب النصر والتحرر؟

إن في بلادنا من يدافع عن حرية الإلحاد، والسكر، والزنا، والتسيب الخلقي، فإذا حُدّث عن حرية الإيمان والعفاف ويقظة الفكرة والأذهان تمعّض واشمأز، فهل يجر الهزيمة والعار إلا مثل هؤلاء الدواب؟

والله عز وجل ما كرّم أحداً قط لصورة اللحم والدم، إنما أكرم من عباده من زكت شمائلهم، وطهرت سرائرهم، وصلحت علانيتهم، وساروا في أرضه دعاة له، يمجدون اسمه، ويمدون حكمه، ويرفعون علمه

من استجمع هذه الخلال فهو منا، وإن كان من الجنس الأبيض أو الأصفر أو الأسود، فما للون أو للنسب وزن عند الله

وقد ذكرنا أن بني إسرائيل كرموا وفضلوا، يوم حملوا رسالة التوحيد، ونجحوا في [illegible]

ثم زعموا بعد ذلك أن تكريمهم وتفضيلهم ليسا لهذه الأسباب، إنما هما لأن بينهم وبين الله صلة خاصة، جعلت جنسهم ممتازاً على الخلق كافة

---

(1) - الحج 41 (2) المائدة 62، 63

ثم هذا الأمير؟ لقد قال الله لهم ولمن زعم زعمهم ﴿ بل أنتم بشر ممن خلق ﴾[1]

والغريب أنه في هذا العصر الأعجف فعل العرب مثل ما فعل اليهود الأقدمون، فقالوا: نحن عرب، عظمتنا ليست من رسالة الإسلام التي درسها وطبقها، فقد كنا أمة عريقة قبل أن يجيء الإسلام، ويمكن أن نكون أمة عريقة بعيدة عن تعاليم الإسلام!

ومن ثم قامت في بلاد العرب نهضات تؤخر الدين وتقدم الجنس.

وهذا كلام من أبطل الباطل، فالعرب قبل الإسلام كانوا أمة نكرة، وبغير الإسلام سيكونون ذيلا للبشرية.

ولا أعرف أقواما يستحقون أن تملأ أفواههم بحجر كهؤلاء العروبيين السفهاء.

إن فقد الوحي الإلهي والانحطاط بمكانة ممقوتة عند الله وعند الناس مما عابه الله على بني إسرائيل، ويعيبه على العرب أبناء إسماعيل.

وفي هؤلاء وأولئك يمكن أن يساق قوله تعالى: ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[2]

ومما يندى له ضمير المسلم المخلص في هذه الأيام السود أن اليهودي الأمريكي طرح جنسيته وجاء فلسطين باسم الدين.

أما العرب فيقال لهم: انسوا الدين واعتصموا بجنسيتكم العربية وحدها.

فماذا كانت النتيجة؟

أضاعت القومية العربية فلسطين، وظفر بها اليهود وأقاموا بها إسرائيل.

إن الكوارث العسكرية التي أصابت خلال هذه السنوات العشرين مزقت الملاءة المسدلة على جسم ممدد معتل تسرح الجراثيم القاتلة في أوصاله طولا وعرضا.

وأصبح ظاهرا لكل ذي عينين أن الأمة الرائعة، الفارعة، التي طوفت بالإسلام في المشارق والمغارب، قد استحالت أمة واهية الخلق، معوجة السلوك، ضعيفة الأخذ

(1) المائدة ١٨ (2) آل عمران ٢٣، ٢٥

تريه ونفسها، تفكر شبابها في المذاهب الهدامة، وتسابق ساستها وراء ترهات الفصحة وبعدها حكامها عن شرائع الله وحدوده المقررة، وتقطع علاقاتهم الروحية والاجتماعية بما يصطفون به في الصلوات الجامعة والعبادة الخاشعة

فهذه مؤهلات النصر المرتقب، ومستنزلات لتأييد الأعلى من عمر السماء ؟؟

وأراد اللطف بالله أن الأمة التي سرحت قبضتها على تعاليم السماء عجزت كذلك أن تمسك بأسباب النجاح الدنيوي المعتاد.

فخلال فشلها الديني امتدت إلى شئونها الاقتصادية والعلمية والإدارية فأصبح العمل الإنساني المبتسر للآخرين يخرج من بين يديها كما يخرج السقط من بطن الأم لا تعرف له ملامح، ولا يرجى له بقاء !!

وقد رمقت ببصر دامع وقلب مكلوم معركة سيناء الأخيرة

كان قائد الأعداء واسع الخبرة والتجربة، وصل إلى منصب القيادة بعد أن دمي بدنه، وهو يصعد من السفح إلى القمة.

وكان كما ظهر من سيرته محدود الشهوة ممدود الفكر، جحوما بعقيدته، معتزا بدينه وكتابه، يقود جيشا على غراره إيمانا ونظاما

أما نحن فقد اجتمعت في قياداتنا نقائض كل الصفات التي توفرت لدى عدونا

فهل كان الحكيم الخبير ليعين ساسة نكوبيين وقواده الأزلة الأمية فيجعل الفوضى تهزم النظام، والهوى يغلب العقيدة ؟

لقد انتهى العرب إلى النتيجة التي صنعوا هم مقدماتها، دينا ودنيا

وسيبقون على خط الهزيمة ما بقيت تلك المقدمات موجودة لديهم

ولقد كشفت هذه الهزائم خلال السنوات العشرين، بل منذ وعد بلفور ١٩١٧ أن الأدوية التي وصفها الزعماء للشعوب الأمة المريضة، لم تكن أدوية شافية بل كانت سموما كاوية، فإن هؤلاء الزعماء تشابهت قلوبهم في مخاصمة الدين وسد شرائعه وفضائله.. ثم اختلفوا ..

فمنهم من أعلن كفره بالإسلام عقيدة وشريعة وعبادة وتقاليد وأخلاقا

ومنهم من طوى هذا الكفر في صدره - من باب السياسة والكياسة وخداع الجماهير - ثم مضى في طريقه يبعد الأمة عن دينها شيئا، فلا يرى نورا للإسلام إلا أطفأه ولا نشاطا إلا عوقه

وخلال هذه المدة المتطاولة من ١٩١٧ حتى الآن استطاع اليهود باسم الدين أن يحولوا وعدا خياليا إلى حقيقة واقعة

أما نحن الذين أبعدنا الإسلام عن المعركة، فقد ظللنا نتدحرج حتى سقطنا في الهوة التي سقطنا فيها. وها نحن أولاء نحاول جاهدين أن نتخلص منها، وأن نقف على أقدامنا مرة أخرى.

ومن الحق أن نقول في آثار النكبة الحقيقية، إلا أنه من العقل أن نحول دون تكرار هذه النكبات

ومن العبث أن ننصح المخطئين، وأن نصدهم عن المضي في طريق تحطيم تقدمنا

وإن كانوا لا يحسنون إلا السير في هذا الطريق فليمضوا إلى حيث ألقت ويتركوا الأمة الإسلامية تعود إلى دينها، وتعالج قضاياها بمنطق العقيدة والجهاد

ألا فليعلموا أنه عرض على اليهود أن تقوم دولتهم في أوغندة، وفي مناطق أخرى، فأبوا إلا فلسطين! لماذا؟

قالوا: هناك نداء الإيمان والذكريات والتاريخ الأول

وانقاد الاستعمار لهم، ومنحهم أرضنا

فسايرنا هذا المنطق اليهودي، ونطقت به مقررات أحد المؤتمرات العربية التي انعقدت من بضع سنين ورأت أن قضية فلسطين، قضية عربية بحتة وقالت للمسلمين في كل مكان: لا شأن لكم بها!!

أي لغو هذا وأي إفك؟؟

إن قضية فلسطين طوال أدوار التاريخ قضية دينية ولعبة الحقد هجموا – كما زعموا – على نداء الدين

فلحساب من توصف قضية فلسطين بأنها عربية من شأن العرب؟

إن الذين فعلوا ذلك لم يحرفوا مفهوم القضية فقط، ولم يحرموها تأييد جماهير المسلمين فقط، بل فعلوا ذلك ليمسحوا معناها الحقيقي عند العرب أنفسهم وليتنفسوا عن حقد ضد الإسلام يعمرونه من زاوية حرب خفية للمسيطر على تيارات الفكر في بلادنا

إن عاطفة الدين أشد زاد يشد الإنسان قوة، وتدفع به أبعد الآماد

وعندما يفقد المسلمون هذه العاطفة تأثرا بالاستعمار الثقافي، فمعنى ذلك أن

أمريكا أمدت اليهود لا بمجموعة طائرات حديثة، بل بمجموعات طائرة، لا بل بعدد لا يحصى من المقاتلات التي تملك حصون العرب، وترغم جيوشهم على الفرار.

إن فقدان العرب لعاطفة الدين وهم يقاتلون إسرائيل يساوي حصول إسرائيل على القنبلة الذرية !!

على أننا لا نطلب العودة إلى الإسلام لتكون هذه العودة مقياساً لمساعي العرب السياسية والعسكرية، واسترداد مجدنا الذي يقطع إلى اليوم سبله.

لا، إن هذه النتيجة المحققة سوف تجيء من تلقاء نفسها.

ولكننا نطلب العودة إلى الإسلام لأن الإسلام حياتنا ... ومعاشنا ومعادنا، واختيار الله لنا، وتشريفه لماضينا ومستقبلنا !

فكيف نرضى على أعقابنا ونسى الرسالة العظمى التي ... الله بها حسبنا ولغتنا، ورفع بها قدرنا وتاريخنا ؟

ثم ماذا أصابنا من جحد الإسلام ... ؟

الهزائم التي تسود بها الوجوه، والتي جعلت البعث يستسر بأرضنا والتي حقرتنا عند أنفسنا وعند الناس ؟

إلا أنه لا يعترض العودة إلى الإسلام إلا أحد رجلين :

مرتد يكره هذا الدين، ويمشي بهواه مع أعدائه الكثيرين في الشرق والغرب.

أو جاهل بصير ... بالإسلام ... ويرى في القومية المجردة طريقاً لبناء الدولة الحديثة بعيداً عن الطائفية وشتى التهم.

فهل نحن أولاء، ندور في عاصمة ... اقتلاع جذورنا، ومحو أوطاننا فماذا كسبنا من هذه القومية الكافرة ؟

لا ... اليوم من أمر ... إلا من رحم ... العرب إلا ... في أحضان الإسلام.

* * *

ونعود إلى ما يزعمه اليهود من أنهم ... في هذه المناطق.

من هو إسرائيل الذي يتمسحون باسمه ؟

لقد كان رجلاً صالحاً ... مع أولاده في بادية الشام، كان رب أسرة كبيرة من هذه الأسر التي تنتظر رزق الله في أرضه الواسعة.

لم يكن صاحب قطاعات ضخمة، ولا سلطة معروفة، ولم يزد عن غيره من البدو إلا بدعوة التوحيد التي حرص عليها.

وكان أولاده ماعدا يوسف الصديق أصحاب خلق رديء، وغيرة ذميمة، وعندما أحدثت البادية وتعرض سكانها للمجاعة استضاف يوسف أباه وأخوته ليعيشوا في مصر كلهم يأوون إليه ويطعمون من خيره.

ويشكر هذه النعمة، وتنويها بحقها، وتوجها للمصريين الذين سمعوا ما جاء على لسان يوسف لأبويه وإخوته ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾[1] وقوله كذلك ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾[2]

فهل إذا استضافت مصر أسرة محرجة كانت تستحق عودة مصر؟ أي صفة في الدنيا تتبعها هذه المزاعم؟

ما كان بنو إسرائيل أصحاب حقوق في بادية الشام، ولا كانوا أصحاب حقوق في وادي النيل.

ثم نمت العائلة الصغيرة ووقعت بينها وبين المصريين جفوة لم تتبين أسبابها بجلاء، هل ترجع إلى أن أفرادها كرهوا الاندماج في الشعب المصري؟ أو ترجع إلى أنهم ربما لم يشتركوا في مقاومة الغزاة حين هجموا مصر؟ أم كلا الأمرين؟

إلا أن هذه الجفوة حولها فرعون إلى حرب إبادة لا عدل فيها ولا رحمة.

وقضت حكمة الله ألا يتجاور الشعبان في أرض واحدة فبعث موسى بطلب معقول، هو السماح لبني إسرائيل بمغادرة البلاد فقال موسى لفرعون ما يفيد ذلك ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾[3]

ولكن جنون العظمة استبد بفرعون، وأبى الأحمق إلا أن يدخل في عناد مع القدر، انتهى آخر الأمر بمصرعه.

ونجا بنو إسرائيل من العذاب المهين وأراد موسى أن يدخل بهم فلسطين ليجدوا فيها الأمن الذي ينشدون، وكانت فلسطين عصرئذ مسكونة بقوم من جبابرة عتاة،

---

(1) يوسف ٩٩ (3) طه ٤٧

(2) يوسف ١٠٠

وما كاد نبؤهم يقرع مسامع بني إسرائيل حتى صحوا من الفرح، وأبوا إلا أن يجيبوا موسى إلى طلبه

ومنذ ترك موسى وقومه مصر اتخذت المحاولات النفسية لليهود تتكشف، ويظهر أن هذه الملامح كانت مطوية تحت ثياب الذل والمسكنة، فما شعروا بالتحرر حتى أخذوا يجمحون يمنة ويسرة دون ضابط

وكان موسى أول من تعرض لأذى قومه، وسوء عشرتهم، وسخافاتهم وتعنتهم ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[1]

وقضت حكمة الله أن يؤدب بني إسرائيل فأتاههم في صحراء سيناء أربعين سنة مات خلالها هذا النبي الكريم وهو ضائق بقومه، فهلك في التيه الجيل الذي لا يصلح للجد والجهاد، ونشأ جيل جديد كتب الله له أن يدخل فلسطين

نعم، دخلها الجيل الجديد ... ولم يمض وقت كبير حتى انطبقت عليه نفسه هذه السنة الصارمة، فمضت فيه كما مضت فيمن سبقه

إن الجبابرة السابقين اختلفت مصائرهم وعلموا على أمرهم، ثم جاء بنو إسرائيل من بعدهم ليقيموا الحكم دينا صالحا يوفر لهم ولغيرهم الأمن والإيمان

وكانت التوراة بين أصحابها دينا ودولة وكان لهم فيها هدى ونور

فهل أقام بنو إسرائيل ذلك المجتمع المنشود، وأخلصوا لله فيه؟

إنهم سرعان ما فسقوا عن أمر الله واستشرت فيهم العلل التي أودت بمن قبلهم

فجاء بختنصر وقومه يهجمون على فلسطين الكنعانية، ويدمرون هيكلهم، ويسوقون الألوف المؤلفة من شبابهم أسرى إلى بابل، وانهارت إسرائيل ولم يمض على تكوينها زمن يذكر

ومنح الله بني إسرائيل فرصة ثانية، فتحرروا من الأسر البابلي واستردوا قواهم الضائعة، وأقاموا الهيكل، واستأنفوا تاريخهم، بيد أن العلل الكامنة في دمائهم لم تفارقهم، وتفاقمت شرورهم بالعدوان على سنن الله واستباحة دعاتهم

وقد أنهى الرومان الحكم الإسرائيلي ثانية واحتلوا فلسطين كلها

---

(١) الصف

فكم بقى مدة الحاكمين اليهوديين لفلسطين ؟

قرابة مائة وثلاثين سنة !!

ولم يكن هذا الانهيار السياسي ختام الوجود الديني لليهود [illegible] وجودهم الديني كما ذكرنا بتكذيبهم لرسالة عيسى بن مريم [illegible] نبوة محمد [illegible] العرب

وبذلك انتهى دور بني إسرائيل في توجيه الضمير البشرى

هل حكم بني إسرائيل لقطعة [illegible] الشرق الأوسط [illegible] فرص يعطيهم فيها حقوق أبدية ؟

إنهم لا [illegible] !!

[illegible] عمر بن الخطاب [illegible] تسلم القدس من بطريقها المسيحي شرط عليه هذا البطريق الناصح ألا يدخل اليهود القدس !!

وليت تذكرنا هذا الشرط ولكننا نسى

[illegible] الحلال [illegible] نحن [illegible] في عقده دفعنا ثمنها [illegible]

على [illegible] اليهود أنفسهم يجب أن يعلموا [illegible] من حق في فلسطين لا يعدو [illegible] محتوم، فهم لم [illegible] شيئا من أخلاقهم التي أحلت بهم سخط الله في الدنيا والآخرة

هم يعلمون [illegible] إلى [illegible] للخلاص منه ؟

لا شيء، إنهم وراء جميع الأزمات الروحية و[illegible] التي تدوخ الجنس البشري وتميل به عن الصراط المستقيم

[illegible] إسرائيل يعلمون أن الوجه الديني لرئيسهم يختفي وراءه نيات سود [illegible] للبشرية جمعاء

[illegible] إسرائيل [illegible] لأحد [illegible] العروبة والإسلام

وأن [illegible] لا [illegible] في المشرق و[illegible] في منطقة الشرق الأوسط هذه، أعني قلب الأمة العربية

إن تفريط العرب في الإسلام، وتسييبهم لرسالتهم العظمى، وتحولهم إلى شعوب متعطلة متبلدة هو الذي خلق هذه المأساة

إننا لم نحفظ الله فحرمنا الله سيادة الأرض

وجعل الأقربين والأبعدين ينظرون شماتة وازدراء إلى جراحاتنا التي لا ينقطع لها نزيف

إن عشرات الدول الكبرى والصغرى نظرت إلى لص يسطو على البيت، فتصامت عن صاحب البيت الذي شرع يدافع بدهشة ولهفة عن مسكنه!!

إنه يدفع مستعطفاً أي عون إنساني من أولئك المتفرجين على المعركة

وهيهات.

ولو تسللت إلى ضمائر هؤلاء المشتركين في الهيئة الدولية لوجدتهم يقولون: هذا اللص أولى من الحيوان الذي يقطن الدار!

إنها داره ولكنه لا يستحقها!

تلك هي سريرة عدد كبير من الدول التي تسخر من ضعفنا، وبالتالي تحكم علينا لا لنا.

والسبب؟

السبب نحن لا غيرنا، وذلك أن أقوى عصبة برسالة الله أمة تخلت عن دينه، وأدارت ظهرها لتعاليمه!!

وسوف يبقى الوضع كذلك حتى نذكر أننا مسلمون

وأن الإسلام يفرض علينا أن نشكل أوضاعنا الخلقية والفكرية والاجتماعية والتشريعية على نحو آخر

عندئذ تطلع الشمس وتختفي الأشباح (1)

---

(1) يمثل هذا الفصل شطر المحاضرة التي ألقيتها في دار الإصلاح الاجتماعي بالكويت في رمضان ١٣٨٨. أما شطرها الآخر فقد وزعته على بعض الفصول الأخرى اللاحقة.

وجمعية الإصلاح بالكويت تبذل جهداً مشكوراً في خدمة الدعوة الإسلامية، وتقف بصلابة في وجه التيارات المنحرفة، أنجح الله جهدها وسدد خطاها.

يهودية وصهيونية

سمعته يقول : اليهودية شيء والصهيونية شيء آخر . !

اليهودية دين سماوي كالنصرانية والإسلام

أما الصهيونية فنزعة سياسية متطرفة استغلها الاستعمار الغربي لمشروع مآربه

اليهودية دين قديم له مصادره المقدسة

أما الصهيونية فحركة حديثة ولدت في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، وعدتها ونمتها ظروف عصرية ودولية طارئة

قلت له : تعني أن اليهودية لا علاقة لها في فلسطين، وأنها لم تشن عدوانا على العرب الآمنين، وأن التوراة والتلمود وسائر الأسفار المقدسة بريئة مما تفعله دولة إسرائيل، وأن الحرب المعلنة علينا من خمسين سنة ليست دينية ؟!

قال : نعم هذا بدقة ما أريد أن أذكره !! .

قلت : أولو قرأت عليك من نصوص الكتب المقدسة ما يدحض هذه الأوهام ؟

قال : كيف ؟ يستحيل أن تتضمن هذه الكتب المقدسة استباحة أرضنا وحسب والاستهانة بحقوقنا المؤكدة ؟

قلت : بل سأقرأ عليك من الكتب المقدسة المتداولة بين أيدي القوم ما يزيح هذه الغشاوة عن الأعين، وما يشرح لك فلسطين كيف ملك بنو إسرائيل خاصة بهم، وأنهم أجلوا عنها عقابا لهم بالآثام التي ارتكبوها، وأن الإله الذي عاقبهم بالجلاء ... عن ... تهم، وقرر إعادتهم إلى أرضهم الأولى كي ينقض عليهم ... و ... وأن هذا لأنه لم يعن من غير شعبه المختار، وزود إليه مجده، ووطنه، كي توطد سلطته وسيادته على أنقاض غيره من الأمم . . !!

هكذا نقول صحائف التوراة والتلمود وأصحاب العهد القديم التي يتعبد اليهود في المشرق والمغرب بتلاوتها، والتي يستوحون منها سياستهم في القديم والحديث على سواء !!

وعلى ضوء هذه النصوص المقدسة [illegible] المحرفة كتب [illegible]
وتواصى الأوروبيون والأمريكيون [illegible] !

ثم جاء اليهود في الوقت المناسب يستمعون [illegible] المعاد الذي حدثتهم كتبهم عنه، ويشنون حروب الإبادة التي لابد منها ليسود جنسهم وتقوم مملكتهم !!

وقد كانوا في [illegible] من شيء [illegible] فلسطين [illegible] شعور ديني عارم [illegible] من وراء هذه النصوص [illegible] دولة إسرائيل وقتلهم العرب أصحاب الأرض، كانوا مطمئنين [illegible] على كلمات التوراة والتلمود [illegible] صفحات العهد القديم !!

قد يسأل سائل: أين هي تلك النصوص التي تشير إليها ؟

[illegible] المسلمين فيها [illegible] معشر المسلمين [illegible] موسى [illegible] القديم [illegible] الله فأمر آخر يتجاور فيه الحق والباطل والجد والهزل !!

[illegible] من الصدق [illegible] بنو إسرائيل [illegible]

وفي القرآن الكريم شرح دقيق لذلك جئنا بطرف منه فيما مضى

[illegible] في صحف العهد القديم من أسباب [illegible] إسرائيل والحكم [illegible] في أرجاء الأرض

[illegible] هذه الكلمات الواردة في كتبهم

« لأجل [illegible] أكثر من الأمم التي حولكم ولم تسلكوا في فرائضي [illegible] أحكامي، ولا عملتم حسب أحكام الأمم التي حواليكم

[illegible] في وسطك أحكاما [illegible] الأمم [illegible] لم [illegible] مثله [illegible] كل أرجاسك !

لأجل ذلك تأكل الآباء الأبناء في وسطك والأبناء يأكلون آباءهم، وأجرى فيك أحكاما وأذري بقيتك كلها في كل ريح [١] (٧ - ١٠ الإصحاح الخامس، حزقيال)

---

(١) [illegible] العهد القديم أو [illegible] المقدس

«من حين أنك صفقت بيديك، وخبطت برجليك، وفرحت بكل إهانتك للموت على أرض إسرائيل فلذلك هأنذا أمد يدي عليك، وأسلمك غنيمة للأمم، وأستأصلك من الشعوب، وأبيدك من الأراضي، أخربك فتعلم أني أنا الرب» (٦ – ٧ الإصحاح الخامس والعشرون حزقيال)

«ويكون في ذلك اليوم، يقول الرب، إني أقطع خيلك من وسطك، وأبيد مركباتك، وأقطع مدن أرضك، وأهدم كل حصونك، وأقطع السحر من يدك، ولا يكون لك عائفون

وأقطع تماثيلك المنحوتة وأنصابك من وسطك فلا تسجد لعمل يديك فيما بعد» (١٠ – ١٣ الإصحاح الخامس، ميخا)

«إلى الجلاء إلى السبي يذهبون والرئيس الذي في وسطهم يحمل [2] على الكتف في العتمة ويخرج، ينقبون في الحائط ليخرجوا منه يغطي وجهه لئلا ينظر الأرض بعينيه

وأبسط شبكتي عليه فيؤخذ في شركي وآتي به إلى بابل إلى أرض الكلدانيين، ولكن لا يراها وهناك يموت

وأذري في كل ريح جميع الذين حوله لنصرته وكل جيوشه

وأستل السيف وراءهم فيعلمون أني أنا الرب حين أبددهم بين الأمم وأذريهم في الأراضي

وأبقي منهم رجالا معدودين، من السيف، ومن الجوع، ومن الوباء، لكي يحدثوا بكل رجاساتهم بين الأمم التي يأتون إليها فيعلمون أني أنا الرب» (١٠ – ١٦ الإصحاح الثاني عشر، حزقيال)

ونحن نجزم بأن الله يعني بني إسرائيل لعصيانهم وعدوانهم، وسنستمد هذه الحقيقة من كتاب الوثيق قبل استمدادها من أي شيء آخر

فهي تعد من خلائق اليهود ممن استحقوا من أجله النقمة، فقد مرت آلاف السنين على هذا الشعب المطرود، فأتى الأنبياء، المتمرد حتى على وحي السماء، وبعث الله عيسى إليهم فكذبوه وحاولوا قتله، وبعث إليهم محمدا من بعده فكذبوه وحاولوا قتله، وتتابعت الأعصار وهم حيث حلوا في أرض الله نماذج للأثرة والقسوة وكل الربا وإشاعة الخبث

(١) – الخطاب هنا للشعب الإسرائيلي
(٢) – يعني أن ملكهم سيكون كالسوقة في المهانة

بعد أن كتبت العهد القديم وعد اليهود بأنهم سيعودون إلى فلسطين التي هم منها!

وتوارث القوم هذا الأمر، وأحسوا كأن هذا العقار ثابت لا بد أن يئول إليهم، وأن غيرهم طارئ عليه يجب أن يزول.

وعلى هذا الأساس عوملنا العرب، عوج وجوداهم الذي يمحى وينسى!!

وعلى هذه الكلمات من العهد القديم «برائحة سروركم أرضى عنكم، حين أخرجكم من بين الشعوب، وأجمعكم من الأراضي التي تفرقتم فيها، وأتقدس فيكم أمام عيون الأمم! فتعلمون أني أنا الرب حين آتي بكم إلى أرض فلسطين، إلى الأرض التي رفعت يدي لأعطي آباءكم إياها» (٤١، ٤٢ من الإصحاح العشرين حزقيال)

أي نشوة دينية عارمة تغمر اليهود وهم قادمون من كل فج وصوب إلى أرض فلسطين؟ وهذا النص الديني يسوقهم..!

وقبل أن أستطرد في إيراد النصوص الدينية التي تحدث اليهود عن أرض الميعاد، وعن قيام دولة جديدة بهم لا بد من أن أقف لأشرح وأشرح !

إن بني إسرائيل لم يحدثوا بأنه يستحقون بها الرحمة لعليل، فهم تائهون عن الحق في مجالي العقد والعمل، وهم وراء أزمات الإيمان والأخلاق التي تروع الكتلة البشرية، وتهددهم بالدمار الشامل.

وعودتهم الحرفية إلى فلسطين ترجع أولا إلى ضعف الجبهة المضادة لهم، وإلى أصول الأمة التي ورثت الدعوة من بعدهم - كما أسلفنا شرح ذلك في الفصل السابق.

إن العرب تخلوا عن قيادة الدعوة العالمية للإسلام

بل تجردوا من جملة فضائله وعزائمه

بل تسلمت السلطة في بعض الأقطار هناك حكومات ترفض الإسلام دولة وتكرهه نظاما (!)

في هذا الليل المعتكر من الفتن المتلاحقة قد تأذن الله لليهود بعودة لا قرار لها، لأن اليهود لا يحملون بذور رسالة صحيحة، ولأن حملة الرسالة الإسلامية الذين سوف يستفيقون من غفلتهم أو يطلعون على هزائمهم، ويستأنفون مسيرتهم حتى يجهزوا عليهم

السر من بعد ذلك ليلى بتخلي الأمة العربية عن الإسلام؟ عن الحق الذي رفع

نعم له قدرها؟ ويزعم وسائل الإعلام بأن قضية فلسطين ليست إسلامية! وذلك في الوقت الذي يتشبث الغربيون بأنها توراتهم ويعدون أن فلسطين قسمة إلهية لهم؟؟

وهل يبحث عاقل عن سر هذا ثم لغرب بعد هذا التفاوت الهائل في الروح المحاربة لكلا الفريقين؟

فلنقرأ نصاً من العهد لا كما يتحدث كتاب الصهيونية، بل كما يتحدث العهد القديم نفسه، لنقرأ هذا النص الطويل:

«لذلك فقل لبيت إسرائيل: هكذا قال السيد الرب: ليس لأجلكم أنا صانع يا بيت إسرائيل بل لأجل اسمي القدوس الذي نجستموه في الأمم حيث جئتم، فأقدس اسمي العظيم المنجس في الأمم الذي نجستموه في وسطهم، فتعلم الأمم أني أنا الرب.

يقول السيد الرب حين أتقدس فيكم قدام أعينهم، وآخذكم من بين الأمم، وأجمعكم من جميع الأراضي، وآتي بكم إلى أرضكم، وأرش عليكم ماء طاهراً فتطهرون من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أطهركم.

وأعطيكم قلباً جديداً، وأجعل روحاً جديدة في داخلكم، وأنزع قلب الحجر من لحمكم، وأعطيكم قلب لحم، وأجعل روحي في داخلكم وأجعلكم تسلكون في فرائضي وتحفظون أحكامي وتعملون بها، وتسكنون الأرض التي أعطيت آباءكم إياها، وتكونون لي شعباً وأنا أكون لكم إلهاً، وأخلصكم من كل نجاساتكم.

وأدعو الحنطة وأكثرها، ولا أضع عليكم جوعاً، وأكثر ثمر الشجر وغلة الحقل، لكيلا تنالوا بعد عار الجوع بين الأمم، فتذكرون طرقكم الرديئة، وأعمالكم غير الصالحة وتمقتون أنفسكم أمام وجوهكم من أجل آثامكم وعلى رجاساتكم.

لا من أجلكم أنا صانع يقول السيد الرب - فليكن معلوماً لكم، فاخجلوا واخزوا من طرقكم يا بيت إسرائيل - هكذا يقول السيد الرب.

في يوم تطهيري إياكم من آثامكم أسكنكم في المدن، فتبنى الخرب، وتفلح الأرض الخربة عوضاً عن كونها خربة أمام عيني كل عابر، فيقولون هذه الأرض الخربة صارت كجنة عدن، والمدن الخربة والمقفرة والمنهدمة محصنة معمورة! فتعلم الأمم الذين تركوا حولكم أني أنا الرب، بنيت المنهدمة وغرست المقفرة.

أنا الرب تكلمت وسأفعل، هكذا قال السيد الرب»

بعد هذه صب مر ست إسرائيل لاافعل لهم كثرهم كعلم كعلم ناس كعلم مقدس كعلم أورشليم في مواسمها، فتكون المدن الخربة ملآنة عنم أناس فيعلمون أني أنا الرب » (٢٢ - ٣٨ الإصحاح السادس والثلاثون ، حزقيال)

وهذا نص أيضا

« هو ذا عينا السيد الرب على المملكة الخاطئة وأبيدها عن وجه الأرض غير أني لا أبيد بيت يعقوب تماما يقول الرب ، لأنه هأنذا آمر فأغربل بيت إسرائيل بين جميع الأمم كما يغربل في الغربال وحبة لا تقع إلى الأرض بالسيف يموت كل خاطئي شعبي القائلين لا يقترب الشر ولا يأتي بينا

في ذلك اليوم أقيم مظلة داود الساقطة ، وأحصن شقوقها ، وأقيم ردمها وأبنيها كأيام الدهر ، لكي يرثوا بقية أدوم وجميع الأمم الذين دعي اسمي عليهم

يقول الرب الصانع هذا

ها أيام تأتي يقول الرب يدرك الحارث الحاصد ودائس العنب باذر الزرع ، وتقطر الجبال عصيرا وتسيل جميع التلال ، وأرد سبي شعبي إسرائيل فيبنون مدنا خربة ، ويسكنون ويغرسون كروما ويشربون خمرها ويصنعون جنات ويأكلون ثمرها ، وأغرسهم في أرضهم ولن يقلعوا بعد من أرضهم التي أعطيتهم قال الرب إلهك » (٨ - ١٥ الإصحاح التاسع ، عاموس)

ونختم بهذا النص .

« هكذا قال رب الجنود هأنذا أخلص شعبي من أرض المشرق ومن أرض مغرب الشمس ، وآتي بهم فيسكنون في وسط أورشليم ويكونون لي شعبا وأنا أكون لهم إلها بالحق والبر » (٧ - ٨ الإصحاح الثامن ، زكريا)

هذه نصوص لم يكتبها « موشي ديان » في هذا القرن ولم يكتبها « هرتزل » في القرن الماضي ولم تتمخض عنها مؤتمرات الصهيونية في سويسرا أو في فرنسا

إنها عند ذويها - آيات وحي يتلى ، ومعالم دين يتبع

وليس اليهود وحدهم الذين يؤمنون بهذه الوعود السماوية على إسرائيل بل كثير من النصارى الذين يعتبرون صحف العهد القديم أجزاء من الكتاب المقدس ، وخصوص الكنائس الإنجيلية البروتستانت ، الذين يمثلون أكثر شعوب إنجلترا والولايات المتحدة !!

ولكن عصابة من كتاب الغرب أخذت على عاتقها تغطية هذه الحقائق الدينية، وبالرغم بأن «إسرائيل» تمثل الصهيونية ولا تمثل اليهودية، وأن الدين لا علاقة له بهذه الحرب الدنسة لإبادة العرب وتهويد فلسطين!!

أهو الجهل الأعمى؟ ربما، ومن البلاء أن يكون الرأي لمن يمسكه لا لمن يبصره!!

أهو الإقصاء المتعمد لدور الإسلام في المعركة؟ ذلكم أغلب الظن، بل هو حق اليقين.

والعمل الثالث للكتاب هو تسميم الفكر العربي حتى يدخل العرب معركتهم الحاسمة بلا روح، أي بلا إيمان ديني واضح دافع.

ونعود إلى كلمات العهد القديم التي دون بعضها هنا:

إن موسى عليه السلام لا صلة له بهذه الوعود وتوراته لم تتضمن بشارة.

ثم إن احتلال أية بقعة من الأرض لا يعطي المحتل الحق الأبدي في امتلاكها.

وبنو إسرائيل دخلوا فلسطين محتلين، ومكثوا بها أقل مدة مكثها جنس آخر عمر هذه الأرض.

فوجودهم التاريخي بها لا يمنحهم أي حق للسيادة فيها أو العودة إليها.

نعم، نحن نؤمن أن أسرة يعقوب حملت راية الدعوة إلى الله، وتنقلت بها بين وادي النيل وربوع فلسطين.

لكن أولاد يعقوب نكسوا هذه الراية فيما بعد، وتنكبت كثرتهم سبيل الحق، وخرجت على الوحي ورسله، فحرمهم الله إلى الأبد من هذا المنصب، وآثر به أمة أخرى كانت فيها الرسالة الخاتمة.

ثم صب غضبه على بني يعقوب لجحودهم وبددهم في الأمم كما سجل ذلك كثير من إصحاحات العهد القديم فيما نقلناه هنا.

لكن جماعات اليهود اليوم في حياة المجتمع اليهودي بين أمرين متناقضين:

أولهما الحرص على مخاصمة الرسالات السماوية الصادقة، ومجافاة هداياتها الإنسانية الرفيعة.

والآخر التشبث بالانتساب إلى أسرة الدعوة الإلهية، والزعم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وتبع ذلك بداهة أملهم في عودة مجدهم القديم ومملكتهم الأولى

والخصومات لا بين كسروا العهد عداوتهم من عند أنفسهم تصطحب معهم على ما دونوا فكانت هذه الشعائر التي سمي بها اليهود دهرا، ثم حولوها في هذا العصر إلى أمر واقع.

ونحن لا نستغرب الانتصار المدني الذي أحرزه اليهود، ولكنا نقول إنه لم يتم لخير فيهم بل لشر في غيرهم.

إن حكامهم وسادتهم وشعبهم جميعوا رافعين عقائدهم ... متفقين ... على ... العرب ... يستحقون من الانتسابات ... ويستحقون من مواطن ... الحقيقي ... دقت ... وكانت ... جبين الحر.

وضعف من هزائم العرب ... الذي لم ... جدوته يوم كان يشد من أزر المعتدي، ويحنيه إذا ضعف، ويسدد رميته إذا طاشت.

وموقف اليهود وحدهم ... في المعركة ... فلول العرب ... من تمزق مادي وتمزق معنوي قديرة على كسر إخوان القردة.

إلا أن العرب ووجهوا ... مصاعب ... بقدر شاءه الله فكان ما كان.

وما دمنا في سياق الشك ... والدعوة لإنهائه فإن لدينا في كتاب الله وسنة رسوله ما يكمل مآل اليهود في أرض الميعاد.

إنهم سيعودون فعلا، ولكن ليموتوا لا ليخلدوا، وستنتهي رسالتهم في هذه البلاد لا لتتجدد.

ففي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ستكون ملحمة عظيمة بين المسلمين واليهود فيقتل المسلمون اليهود، حتى إذا اختفى اليهودي خلف حجر نادى الحجر يا مسلم هذا يهودي تعال فاقتله[1].

أجل ... إن اليهود سيجتمعون بعد شتات، لكي يتحقق فيهم قول الله عز وجل ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾[2].

---

(1) رواه البخاري: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله» ورواه مسلم ... المسلمون اليهود حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر فيقول ... هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود ... لا ... نقول سوف نفضحهم وتدب عليهم فيموتون فيها ولن تعدو مستعمرة اليهودية لاحتلال فلسطين هذا المصير.
(2) - الأعراف ١٦٧

على أن ما يمنحه النصر لبني إسرائيل من بلاء ماحق لن يوقعه بهم العرب - من حيث هم عرب - ولكن سيوقعه بهم العرب بعد أن يعودون إلى الإسلام ظاهراً وباطناً، ويعرفون به حكومات وشعوباً، ويكون نداء المجاهدين المتدفقين: يا مسلم هذا يهودي خلفي فاقتله.

نعم، يا مسلم، لا أي نداء آخر.

إن حرب الإبادة قد وضعت خططها لإفناء الجنس العربي وإحلال بني إسرائيل مكانه. والحقيقة أن الإسلام بالنسبة للعرب ليس فقط الهداية الممتدة ولكنه فوق ذلك المعتصم من الغرق بالنسبة إلى هؤلاء العرب، والخيط الذي يتشبثون به على قيد الحياة إن أرادوا الحياة.

إنهم ليسوا أو سيحضرون يواجهون حرباً دينية تشبه مشاعر مخلوطة بشعارات القومية، وليس كما يحكى لهم لكنهم يواجهون حرباً استعمارية عادية.

وأريد أن أوضح لشباب المسلمين أن أذكر رأيي في الحروب الدينية.

إنها صورة بشعة أن يقتل امرؤ آخر ليجعل من دمه طريقاً إلى الجنة.

إنها صورة بشعة أن أدوس الآخر لأنه يعتقد ما لا أعتقد، أو لا يترضى، وأن أشعر بلذة وأنا أوغل في دمه.

والإسلام عدو مبين لهذا النوع من الحروب، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت القاضية على كل قتال من هذا اللون القاسي.

فهل كنت أفكر وأصوغ هذا الحديث لو لم يكن أي ... أن يصالح في الأسفار المقدسة (١) وأوامره باستئصال الأعداء رجالاً ونساء وأطفالاً، واستئصال ما يملكون من حيوانات ونباتات، ونشر الخراب فوق كل شبر من أرض أعداء إسرائيل.

وعندما كنت أقرأ أخبار المذابح التي اجتاحت ... الوجود، والنسوة اللائي ذبحن بعد ما ... أصحابهن مروعين كنت أعلم أن بني إسرائيل إنما ينفذون أحكام التوراة - فيما يزعمون.

إن واضعي هذه الأسفار كانوا مجرمين في ثياب متدينين، وكان ضحاياهم في هذا العصر الأشأم من العرب المسلمين.

( ) نقلنا نصوصاً من حرب الإبادة من إصحاحات العهد القديم في مكان آخر من كتابنا « التعصب والتسامح ».

وقد قام اليهود بمذبحة «دير ياسين»(١) وغيرها من المجازر استجابة دينية حرفية للتعاليم التي يتدارسونها ويتوارثونها.

وفي العالم كله نرى نحن المسلمين - مبتوتة الصلة بشيء لله، ولن علمها هؤلاء وحيا من السماء.

ولليهود تجربة مريرة، وقد عقدوا مع المستعمرين معاهدة تمنع التبادل والتعايش عن حقد مشترك، ولست أدري بالضبط أي الفريقين كان أقدر على تسخير الآخر والإفادة منه... ولكن المسلمين بيقين هم الفريق المغلوب الفادح الخسارة.

إن سخط الله على بني إسرائيل لم ينقص أساسه وعليها لن ينقضي أبدا ما داموا على صنائع الملعونين من أسلافهم قسوة فؤاد، وشره نفس، وأكل سحت، وفساد معتقد، وبغيا في الأرض، واستطالة على الخلق!!

وإذا كان الله قد ضرب بهم بعض الشعوب التي فرطت في حقه فليس ذلك رضاء وتقريبا لهم بعد بعد، فإن الحكم الأول هلمه الوثنيون، وقد سلط على بني إسرائيل قديما من هم شر منهم.

والمسلمون اليوم يتعرضون لبلاء طويل بعد ... ومن يدري؟ قد يكون ذلك باعثا لهم على صلح مع الله وعودة إلى الإسلام الذي هجروه.

وعندئذ تكون هذه المحنة منحة ويكون انتصارا ساحقا.

ومهما ساءت الأمور فإن حلم إسرائيل بحكم العالم من أورشليم لن يتحقق، فإن الحجب بدأت تتمزق عن ... اليهود الرهيبة في أرجاء الأرض... وخصوصا وسط العالم المسيحي.

---

(١) قرية «دير ياسين»: قرية فلسطينية صغيرة قرب القدس، تعرضت في ٩ إبريل عام ١٩٤٨ أي قبل قيام إسرائيل بحوالي شهر لهجوم غادر من جانب المنظمات الإرهابية الصهيونية تحول إلى مجزرة بشعة قاسية ذبح خلالها بالأسلحة الحديثة وبالسلاح الأبيض (٢٥٤) من الرجال والنساء والأطفال ... وبقر اليهود بطون الحوامل ... إلى حد التمثيل البشع بجثث الضحايا من الأطفال والنساء وبعثرتها إربا في دروب القرية وشوارعها. أما بقية السكان الذين نجوا من المجزرة فقد ساقهم المهاجمون إلى شوارع القدس وملابسهم ملطخة بالدماء فيما يشبه موكبا بدائيا للنصر.

وعرف فيما بعد أن المجزرة كانت من تدبير عصابتين صهيونيتين هما:

أولا: عصابة «أرجون زفاي ليومي» (المنظمة العسكرية الوطنية) وهي منظمة إرهابية صهيونية كان على رأسها مناحيم بيجن الوزير حاليا بالوزارة الإسرائيلية.

ثانيا: عصابة «لوحمي حيروت يسرائيل» (المحاربون لحرية إسرائيل) وهي العصابة التي تحولت بعد قيام إسرائيل إلى حزب حيروت أحد الأحزاب الحاكمة الآن في إسرائيل.

كان الهدف الرئيسي من تدبير هذه المذبحة الوحشية، إثارة الذعر بين السكان العرب.

إن سلطة الكنائس المسيحية على الضمير والسلوك في أوروبا وأمريكا ضعيفة للأسف

وقد تمكن بنو إسرائيل بوسائلهم الخفية والخبيثة من نشر نص الحسية والعصرية والسمات المادية والإلحادية في حياة القارتين الكبيرتين

فهل هذه رسالة السماء التي حملها أنبياء بني إسرائيل قديما وتريد أن يكونوا شعب الله المختار ؟؟

في محاضرة للدكتور أحمد حسنه وزير الأوقاف الأسبق سمعت منه أن اليهود سيطروا على الولايات المتحدة سيطرة كاملة، وعلى أوروبا الغربية سيطرة شبه كاملة، وأن المدنيين الذين أحكموا قبضتهم عليها هي المصارف المالية، والجامعات الكبرى، ووسائل الإعلام !

ومن يضع قبضته على هذه الثلاث يمكن أن يصوغ الفكر كما شاء، وأن ينشر ما يريده ويحجب ما يرفضه، وأن يسقط بسببه حيث شاء من أهدافه، ويمسك متى أراد

فإن من يتتبع تاريخ الفكر البشري ويعرف دور اليهود فيه يتبين أنهم يصنعون الفلسفات التي تحطم كل المقدسات، وتحطم حرم الإنسان نفسه، وتحرمه من الإيمان وسكينة النفس

إن الصهيونية العالمية تعلم أن الشباب هو مستقبل الأمم وعددها وذخرها

إذن لابد أن يفسد الشباب، وتحل أمامه الموازين، وتضطرب القيم

وإن من يسيطر على أسواق الخمر والميسر والمخدرات - كما أن لهم طويل في عالم الخلاعة والتهتك والنوادي والملاهي والمسارح - ... في الولايات المتحدة يجد وراءها المؤسسين المسيحيين، ولا يجد بها يهوديا . !

إنهم يقودون حملة التحرر والإفساد مع الاحتفاظ بتماسكهم

قال المحاضر إن في أمريكا تقريرا يريد اليهود أن تقرأه، وتصبح ... نسمع ما يريد اليهود أن تسمع، وتصبح ... ما يريد اليهود أن ترى، ... كل أسبوع ... من حوادث السيد ... هذا هو الأخطبوط ... يسيطر على ... فهذه هي العملات التي تمتص دماء العالم

قولوا وهذه هي صفة شعب الله المختار ... التي يبلغ ... رسالة السماء إلى

الأرض، ويعلم البشر الصلاة والزكاة والتقوى والأدب، ويذكرهم بيوم الحساب وما وراءه من خلود طويل !!

إن اليهودي ذكي كالشيطان، ولكن لن يزعم ما يشاء إلا أنه صاحب دين يهدي إلى الخير والرشد، ويستحق من أجله ميراث الأقطار والأجناس.

ومن هنا فإن مصير اليهودية العالمية إلى البوار لكن متى ؟

عندما يثوب المسلمون إلى رشدهم ويعودون إلى رسالتهم، ويتركون الترهات التي بعثرت زمامهم وأضلت سعيهم

وذلك يحتاج منا إلى همسات وصرخات

ومن المؤسف أن وسائل الإعلام في الأمة العربية حريصة أشد الحرص على أن تفرق بين اليهودية والصهيونية، وعلى أن تجعل القارئ أو المستمع العربي يقصي الدين إقصاء عن الصراع الدائر اليوم على اغتصاب فلسطين وما حولها

وقد رأيت - من النصوص التي سقناها خلال هذا البحث، وبعده عن التاريخ والواقع، وتحديه ومسائل الدفاع التي يسعى توفيرها في وجه هجوم ديني حاقد !

إن الصهيونية ليست مجرد بحث اليهود عن وطن لهم بعد ما أحسوا وحشة الغربة في أرض الله الواسعة

كلا، فقد وسعتهم بلاد شتى، وعاشوا فيها حرية من أوثق الأصلاء، ووصلوا إلى درجة فاحشة من الثراء، ومناصب كبيرة في الحكم

ولكنهم احتفظوا بدينهم على علاقتهم بأوطانهم، وآثروا التجاوب مع دينهم وتقديمه على الذوبان في الوطنية الأمريكية أو الألمانية أو الروسية أو المصرية أو العراقية

سيرتهم في مختلف القارات واحدة، ونزوعهم إلى خدمة عنصرهم، وحسب دينهم في كل مكان وزمان

لقد عاش اليهود ملوكا بيننا نحن المصريين في أوائل هذا القرن، فلم تركوا مصر إلى إسرائيل ؟

فرارا من اضطهاد ؟ إنه نداء الدين وحده

إنهم لا يحسون بانتماء في مركب ... ولكنهم عنصر مصانع للأوطان التي وسعتهم بالنور

في سبيل ماذا ؟ في سبيل إسرائيل ، في سبيل دولة دينية تجمعهم ، في سبيل الملك الذي يتغنى به شعراؤهم ، وتشير آياته في صحف العهد القديم على أنه وعد الله الذي لا يتخلف لهم ولذراريهم من بعدهم !!

إن الصهيونية نزعة سياسية تولدت عن الاضطهاد النازي في ألمانيا

فر اليهود من هذا الاضطهاد بسبيل أو فروا كما رأيت - كانوا يحلمون بامتلاك فلسطين وطرد أهلها منها أو إبادتهم فيها

ونحن لا نعرف في العالم أجمع من يعرفه حسبه ، ولكن مست اليهود في ألمانيا كان هو السبب الأول في هذه الأحداث التي تبعها وبدع منها نشأتهم

لقد ظهر أن ولاء اليهود لأوطانهم ترسمه مريب ، وإن ولاءهم الأول هو لجنسهم وتاريخهم وأمانيهم الحرام في حقوق الآخرين

وربما تعرض اليهود في أمريكا بعد سنين معدودة لمثل ما تعرض له أسلافهم في ألمانيا النازية ، عندما يصحو الأمريكيون فيجدون أن مصالحهم في العالمين العربي والإسلامي قد تلاشت لأن يهود أمريكا قد ضحوا بهذه المصالح في سبيل قضيتهم الخاصة

وعليهم ونحن نواجه معركة الحاضر والمستقبل أن نحذر من الدعوات التي يرددها أولئك الذين لا يفهمون ، ويريدون تجنيب الشعب إبعاد اليهودية والإسلام عن معركة مع أن المعركة لا تعني إلا القضاء على الإسلام لحساب القوى المعادية له !!

* لا تبعدوا اليهودية والإسلام عن المعركة

* التحدي بالإسلام هو صيحة النجاة

إنما تقف العرب من أولئك الذين تحمل جبهاتهم ، سواء أكانوا في الصحف أو الإذاعات ، أو المسارح

وظهر بهم ثم الاستعمار الثقافي في البلاد ، ذلك الاستعمار الناقم على الإسلام وحده ، محرضهم على النيل من تكاليفه وتعاليمه ، وتنقص مناسكه وشعائره وتنسى ماضيه وحاضره

تلك هي الأحداث التي وقفت في ميدان السياسة تصف الغزو اليهودي لفلسطين ، بأنه حركة عنصرية ، أو عدوان محلي ، أو تغرير من الإمبريالية والصهيونية ، أو تآمر رأسمالي على حركات التحرر الحديث ، أو غير ذلك من الرغبات التي تلقيها الحرب المستكبر الفاشي هنا وهناك

ولو أن واحداً من هؤلاء ذهب إلى أقرب مكتبة، ودفع قروشاً قليلة أو كثيرة واشترى العهد القديم وحده، أو الكتاب المقدس كله، ثم كلف خاطره القراءة فيه لوجد التخطيط الذهبي لإسرائيل الكبرى واضحاً في صحائفه، ولوجد الكفن الذي سيلف رفات العرب منسوجاً من كلماته، ولوجد حرب الإبادة التي تعرض لها قومه واضحة بين سطوره

إن مؤامرة الاستعمار في القرون الأخيرة أخرجت جميع العرب من دينهم في الوقت الذي يتحمس فيه كل ذي دين لدينه !!

إن صحف العهد القديم تم كتابتها بعد أن سبى إسرائيل كي يحثوا من كل مكان إلى فلسطين، إن صورت لهم المطامع التي يرنون لها، والحدود التي تفصل كل شبر عن أخيه !! وزرعت عيونهم دمشق وحماة وبيروت وعشرات من البلاد الواقعة قرب البحر المتوسط

اقرأ هذه السطور من سفر حزقيال «لذلك هكذا قال السيد الرب: الآن أرد سبي يعقوب وأرحم كل بيت إسرائيل، وأغار على اسمي القدوس. فيحملون خزيهم وكل خيانتهم التي خانوني إياها عند سكنهم في أرضهم مطمئنين ولا مخيف

عند إرجاعي إياهم من الشعوب وجمعي إياهم من أراضي أعدائهم، وتقديسي فيهم أمام عيون أمم كثيرين، يعلمون أني أنا الرب إلههم بإجلائي إياهم إلى الأمم ثم جمعهم إلى أرضهم، ولا أترك بعد هناك أحداً منهم، ولا أحجب وجهي عنهم بعد، لأني سكبت روحي على بيت إسرائيل، يقول السيد الرب»[1] (الإصحاح التاسع والثلاثون: ٢٥ - ٢٩)

«في السنة الخامسة والعشرين من سبينا، في رأس السنة، في العاشر من الشهر، في السنة الرابعة عشرة بعد ما ضربت المدينة

في نفس ذلك اليوم كانت عليّ يد الرب وأتى بي إلى هناك

في رؤى الله أتى بي إلى أرض إسرائيل، ووضعني على جبل عال جداً عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب

عاش «حزقيال» مؤلف هذه الإصحاحات أيام المحنة التي نزلت ببني إسرائيل، بعد أن فسدوا فسلط الله عليهم «نبوخذنصر» وجنوده فجاسوا خلال الديار، ودمروا الهيكل، وساقوا منهم عشرات الألوف من اليهود أسرى، وقد عزى الرجل قومه بهذه الكتابات، وملأ روعهم أنهم متخلصون من الأسر البابلي وعائدون إلى بلادهم. وقد عادوا فعلاً ... من ... وطردوا من فلسطين ... ثانية، يحملون ... ومشاعرهم القديمة ... ثانية ... بعد حين

ولما أتى بي إلى هناك إذا برجل منظره كمنظر النحاس وبيده خيط كتان وقصبة القياس وهو واقف بالباب

فقال لي الرجل: يا ابن آدم انظر بعينيك واسمع بأذنيك واجعل قلبك إلى كل ما أريكه لأنه لأجل إراءتك أتي بك إلى هنا

أخبر بيت إسرائيل بكل ما ترى

وإذا بسور خارج البيت محيط به وبيد الرجل قصبة القياس ست أذرع طولاً بالذراع وشبر !

فقاس عرض البناء قصبة واحدة وسمكه قصبة واحدة. ثم جاء إلى الباب الذي وجهه نحو الشرق وصعد في درجه وقاس عتبة الباب قصبة واحدة عرضاً والعتبة «

... إلخ إلخ (الإصحاح الأربعون والحادي والأربعون والثاني والأربعون حيث ينتهي وصف قياس بيت الهياكل)

« ثم ذهب بي إلى الباب الباب المتجه إلى الشرق وإذا بمجد إله إسرائيل جاء من طريق الشرق وصوته كصوت مياه كثيرة، والأرض أضاءت من مجده

« وقال لي يا ابن آدم هذا مكان كرسيي، ومكان باطن قدمي، حيث أسكن في وسط بني إسرائيل إلى الأبد، ولا ينجس بعد بيت إسرائيل اسمي القدوس، لا هم ولا ملوكهم » (الإصحاح الثالث والأربعون)

« وإذا قسمتم الأرض ملكاً تقدمون تقدمة للرب قدساً من الأرض طوله خمسة وعشرون ألفاً طولاً والعرض عشرة آلاف » (الإصحاح الخامس والأربعون)

« هكذا قال السيد الرب: هذا هو التخم الذي به تمتلكون الأرض حسب أسباط إسرائيل الاثني عشر

يوسف قسمان، وتمتلكونها أحدكم كصاحبه، التي رفعت يدي لأعطي آباءكم إياها، وهذه الأرض تقع لكم نصيباً

وهذا تخم الأرض

« نحو الشمال من البحر الكبير طريق حتلون إلى مدخل صدد، حماة، بيروثة، سبرايم التي بين تخم دمشق وتخم حماة وحصر الوسطى التي على تخم حوران.

ويكون التخم من البحر حصر عينان تخم دمشق والشمال شمالاً وتخم حماة وهذا جانب الشمال

* وجانب الشرق بين حوران ودمشق وجلعاد وأرض إسرائيل الأردن من التخم إلى البحر الشرقي تقيسون، وهذا جانب المشرق.

* وجانب الجنوب تيمنا من ثامار إلى مياه مريبوث قادش النهر إلى البحر الكبير وهذا جانب اليمين جنوبا.

* وجانب الغرب البحر الكبير من التخم إلى مقابل مدخل حماة، وهذا جانب الغرب، فتقسمون هذه الأرض لكم لأسباط إسرائيل» (الإصحاح السابع والأربعون).

* * *

هكذا وضع أنبياء بني إسرائيل الأقدمون خطة تمزيق العرب، وتقسيم تراثهم على أسباط إسرائيل.

وقد نقلت هذه السطور من العهد القديم دون أن أكتب لهم فهم أغلب الأسماء[1] التي تحدد تخوم الأرض أو توضح اتجاهات الزحف اليهودي كما أوصى به كاتب ذلك العهد.

ويظهر أن اليهود لخصوا المراد في الحكمة المشهورة «أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل».

وهم أدرى بما في كتبهم المقدسة، والذي يعنيه الخرفاء! متلقي هذه الخريطة عن الوحي الإلهي!! كما يدعون!!

وأريد أن أقول للمسلم الإسلام المستوحش المكتئب كلمة حاسمة.

كلمة سوف تبدو غريبة على الآذان التي طمسها اللهو والإدلال أمدا طويلا، والتي مرنت على سماع الزور والباطل وحده.

إن المرء قد يتقبل بثقافته الواسعة عن مفهوم الدين الذي ألصقوا الذي أبعد الدارسون، مفهوم الهيكل، ومملكة الرب، والشعب المختار، وحكم العالم باسم رب الجنود عن طريق حكماء صهيون أو بيت إسرائيل.

إن هذه الكلمات المقصود بها معنى الدين في العهد القديم لدى كتبة بني إسرائيل، فهي تغدو وتروح بعيدة عن المحبين بالذوب وحبهم حبس، ويقسمون فيه هذا الأداء المفروض.

[1] حبذا لو عني أحد خبراء العرب بوضع فهرس مقارن مقابل لهذه الأعلام القديمة، حتى يلقي ضوءا على هذه المسميات.

لقد أصبح الدين مفهوم رحب، ليس فيه هيكل مقدس، ولا شعب مختار، ولا أدب محتكر!

حقيقة هذا الدين أن الله رب العالمين أجمعين على السواء

وأن التقدم عنده ليس بالنسب ولا بالادعاء بل بالخلق الزكي والتقوى المهيمنة

لا كهانة هناك ولا تهويل ولا هياكل

شيئان فقط هما أساس العلاقة بين الله والأحد، ومن كل إنسان يمشي على قدميه في القارات الخمس: الإيمان والعمل الصالح!

إن محاولة بني إسرائيل مسخ مفهوم الدين على النحو الذي جمدوا عليه من عشرات القرون جريمة فاحشة لا يمكن قبولها

لقد جاء عيسى بن مريم ليكسر القيود الصعبة التي أراد بنو إسرائيل حبس الدين داخلها

وكان مجيئه تمهيدا للرسالة الخاتمة التي فتحت الدين لكل شعوب الإنسانية الرفيعة من الإيمان المهتدي والأخوة العامة، حيث لا مكان لنسب ولا لقب، إلا للقلب السليم والفكر السليم

ثم بعث الله محمدا مسويا بين أجناس البشر في الولاء للحي القيوم مسقطا كل سلطان مفتعل في ميدان الروح أو في ميدان المال

فإن أراد بنو إسرائيل أن يلحقوا بقافلة الإنسانية الحرة الصالحة فلا بد أن يؤمنوا بعيسى ومحمد!!

وإذا كانوا حراصا على سعادة أمجادهم القديمة فطريق الخلاص مفتوحة أمامهم، ولكم عرفوه حين قال الله لهم ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون* وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾ (١)

إن بني إسرائيل يحلمون أن يحكموا العالم من هيكلهم وهم مصرون على تصديق ما لديهم وحده، وتكذيب كل ما جاء به عيسى ومحمد

وما لديهم مزيج من وحي الله وهوى الأنفس

---

(١) البقرة ٤٠ ، ٤١

وأنه الرضا حقا لا أنه حق لا ريب فيه، وأن الوقوف عنده وحده وعدم ما أوحي إليه بعده، مسلك لا تصلح به الدنيا ولا ينعم به عباد الله

ومن هنا اشترط الإسلام أن يكون الإيمان بكتب الله كلها، ورفض ما سوى ذلك من إيمان مبتور فقال جل شأنه ﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾[1]

وعلى لسان موسى - كبير أنبياء بني إسرائيل - ذكر ربنا جل جلاله أن أبواب رحمته مفتوحة لعباده، وأن الصالحين الأتقياء يستطيعون دخولها متى شاءوا، فعندما دعا موسى ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾[2] كان الجواب الإلهي له ﴿عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾[3]

وفائدة العالم أن يسلم لله سنة سهلة يستطيعها اليهود تنهي أنانيتهم وأطماعهم الشيطانية، وتحررهم من الشعوب المفرطة، وتنهي بهم عن العرض المتاحة

وقد بدأ القرآن الكريم تاريخ اليهودي فتقلبوا بين مد وجزر، ومعصية وطاعة وهزيمة ونصر

وقال لهم بعد هدم هيكلهم الأول ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾[4]. وقال لهم أيضا ﴿وإن عدتم عدنا﴾[5]

أي إن عدتم للفساد عدنا للانتقام!!

وقد عاد اليهود إلى فلسطين لأسباب شتى - فكيف عادوا؟ وما هي مثلهم العليا، وما موقفهم من وصايا الله للنبي الخاتم وللنبي الذي سبقه وبشر به؟

لقد عادوا متشبثين بما لديهم وحده، مكتفين بكل ما جد بعده، وكسبوا نصرا بعد نصر على من؟

على نوع من العرب جهلوا رسالتهم، ونسوا نبيهم، وعاشوا في ذيل ناس أدنياء، وعن كتاب الله وهدى نبيه غرباء..!!

---

(1) المائدة ٦٨
(2) الأعراف ١٥٦.
(3) الأعراف ١٥٦، ١٥٧
(4) الإسراء ٧
(5) الإسراء ٨

ب مجموعة الشعوب الإسلامية تشعر بحرج مر لا للحروب التي حرت بين العرب واليهود، ولكن للطريقة التي حرت بها هذه الحروب، ولمظاهر الانحلال والفسق عن أمر الله التي ملأت جوها

كان العرب أزهد الناس في كتبهم، وكان اليهود أصدق الناس بتوراتهم

كان الملص متحمساً في الهجوم وكان رب البيت باردا في الدفاع

ويبلغ من نجاح الغزو الثقافي لبلادنا أن الحرب تعلن لغرض ديني، وتجتاح أمة

ومع ذلك تتبارى وسائل الإعلام في تصبين الفكر العربي وتصف هذه الحرب بأي شيء إلا أنها تتصل بالدين

ولم ذلك؟ حتى لا يستيقظ الوعي الإسلامي العارم وتتحاوب الأصداء بضرورة العودة العامة الجادة إلى الإسلام لوقف هذا الفناء القادم!!

لكن أملنا أن عثرات الأمم تصحو بملاقاة الخطر أمامهم، وأن التدين بالإسلام سوف يكون اليوم صيحة النجدة

وسوف يكون غدا صيحة النصر

﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[1]

* * *

---

[1] النمل ٩٣

من أين تهب رياح التغيير؟

عندما هزم الله المشركين في موقعة بدر، وذل كبرياءهم نزلت آيات كريمة تكشف أسرار الانكسار الذي أصاب القوم، وتصف المعاطب التي نزلت بهالكهم من كل جهة فقلب حال شأنه ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾[1]

ولكن لم هذه النهاية الفاجعة؟ ولم جرى المحيط؟ يقول الله ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾[2]

إن هذا الختام الكالح جزاء عادل لأناس كرهوا ما أنزل الله، واتبعوا هوى الأنفس، وملكهم غرور القوة، واستحلوا حرمات الضعاف، ولم يقفهم عند حقوق الخلق أدب ولا خلق!

والمهزومون في بدر ليسوا بدعا من الأمم الأخرى، فقد نص القرآن الكريم أن ذلك دأب الله في جماهير الكفار، وسنته على اختلاف الزمان والمكان.

وسنة الله في العصاة لا تتخلف، فإن شؤم معاصيهم لاحق بهم وإن طال المدى ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله شديد العقاب * ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[3]

وعند هذا التعليل الأخير نقف وقفة للتدبر والاعتبار!

فإن الله لا يبدل أمن الأمم قلقا، ولا رخاءها شدة، ولا عافيتها سقاما لأنه راغب في أن يذيق الناس المتاعب ويرميهم بالآلام.

كلا، إنه بر بعباده، يغدق عليهم نعمه وستره ويصبحهم ويمسيهم برزقه ومعرفته،

---

(1) الأنفال ٥٠
(2) الأنفال ٥١
(3) الأنفال ٥٢، ٥٣

ولكن البشر يحسدون لأحد ولا يحسنون الشكر ويمرحون من النعم ولا يقدرون وليها تبارك اسمه !

وعندما يسع هذا الجحود مداه، وعندما يعتقد الإنسان أن عمله فلا يحفل بدوام ولا موتة، عندئذ يدق ناقوس الخطر بعصف أبواب الأمم ! ويسود الوجوه بهرائم الدنيا قبل نكبة الآخرة

إن الله لا يتغير ولكن الناس هم الذين يتغيرون، وذلك معنى الآية ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1]

ومما كان الخطاب الإلهي في الآيات التي ذكرت يعني أهل مكة المشهرين، فلنعد بالذاكرة مع ماضي القوم، ومن ضم في أصواته من آفاقه ونعمه

لقد امتن الله على قريش بأمرين حسبهما الغاية القصوى للحياة على ظهر الأرض

الشبع وهو ملاك الحريات الاقتصادية

والأمن وهو ملاك الحريات السياسية

ومن ثم قال لهم ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾[2]

وما أحلى أن يجد المجتمع ضروراته ومرفهاته ميسورة لا تنغصها أزمة، ولا تعكرها ضيق !

وما أحلى أن يجد المجتمع كرامته مصونة لا يهددها باغ، ولا يستبيحها حاكم ظلوم !

الشبع والأمان هما العدل الاجتماعي والعدل السياسي اللذان تهفو إليهما الأمم، وتسعى في طلبهما الشعوب، فإذا ظفر بذلك بلد، فمن حق الله عليه أن يؤمن به، ويسارع إلى طاعته، ويحل حلاله، ويحرم حرامه .

غير أن الأمم للأسف كثيرا ما تنسى هذا الخير كله، وتتمرد على بارئها الأعلى، وقد حرم الله قريشا ما تيسر لها من متع، ثم قال يصف ما حل بها . ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[3]

---

(1) الرعد ١١

(2) قريش ٣، ٤

(3) النحل ١١٢

الجوع والخوف بعد الشبع والأمان لمدين طالما استراحت في ظلهما

تلك عقبى لا محيص عنها لكل جحود!

وننظر إلى زعماء مكة وهم يقودون أسرى في طرقات المدينة بعد الهزيمة التي كسرت غرورهم، وأذلت شراستهم، وهنا نجد القرآن الكريم يصافح المنكسرين فيدلهم على طريق الكرامة الضائعة والطمأنينة المفقودة ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم ﴾[1]

إنه – مرة أخرى – هو طريق النجاة، أن تنطوي القلوب على الخير، ونحسن علاقتها بالناس ورب الناس.

إن هؤلاء الأسرى المنكسرين خرجوا من ديارهم – كما وصف القرآن – ﴿ بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ﴾[2].

وليس أخوف على المجتمع، ولا أدل على الآفة، من ناس يستحقون أنفسهم ويتحصنون وراء أسوار من الصلف والغطرسة، ويبيحون لأنفسهم العلو في الأرض والتطاول على الناس

والأنكى من هذا كله أنهم يمقتون الوحي وحملته، ويطاردون الإسلام ورسالته واتخذوا هذا القرآن مهجورا، وجعلوا السبيل إلى الله موحشة عبوسا، يرادف على سالكيها من أنواء وأعباء

وها هم أولاء مطروحون في أغلالهم لا عاصم ولا مجير، وقد تلقوا درسا موجعا يردهم إلى الله لو عقلوا، ترى هل يستفيدون منه؟

إن التوبة معروضة عليهم، واسترجاع ما يحبون ميسر لهم

بيد أن الله لا يخدع، فالعودة إليه مستقيمة فلا تشفعه لسان، وإذا حاول الطمع المشرك أن يحصر قلبا لله لا يحصر عنادا، ومدبّت بقوله الله لنبيه ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم ﴾[3]

إن مسيرة الفكر وصفاء النفس، والسمو بالطموح، وتهذيب السلوك قد تحسب كلمات تائهة في ميدان التربية وحسب، ولكن الحق أنها كلمات اجتماعية وسياسية إلى جانب معناها الشائع

---

(1) الأنفال: ٧٠   (3) الأنفال: ٧١

(2) الأنفال: ٤٧

وقد يوقع أن ستقدمه المجتمع كله، وتحصل الأمة في سلسلة العامة، وسوف يعود مكانه منسية مرموقة يجيء قبل أي شيء آخر من الفرد بمكتسبه، من المصلحة الخاصة، من غرائز مهذبة من قلب تحفل بالخير والرحمة، ومؤثر بالصدق والعدالة

ولدى أمتنا العربية كنوز مشحونة بهذه المعاني، تسع أهل الأرض جميعاً وزيادة عليهم، ولكن العرب ذاهلون عنها مفرطون فيها

وقد أنظر إلى الرجال والنساء، إلى الأساتذة والتلامذة، إلى الرؤساء والمرؤوسين، بين العلماء والعمال، فأجدنا حيارى أثنا الطريق، وتعمق نفسي بأشعة الواقع، وأن أكثر ما نضربه عن دينه يصحح بعضهم إلى دست تزلزلت فيه قدمه، وسوء فيه حظه

فلا غرو إذا صح للمسلمين أنفسهم على حاضر كربه ومستقبل مغمور

وفي سلسلة المصائب المتصلة المحيطة بكل شيء عندنا سوف تلمح العدو والصديق معاً، لا تعثر لهم بين أهل الأرض من كل جنس، هي عمق سحيق بين الحاكم والمحكوم في شعوب عربية كثيرة

فإن أغلب الحكام[1] العرب مغضوب لدى الجماهير، ليس لهم رصيد من حب ولا ولاء، ولا تقدير!!

وفي الوقت الذي يحمل فيه الفلاحون «الفيتناميون» أسلحتهم وهم في حقولهم ليقاوموا بها الأمريكيين الغزاة، وفي الوقت الذي يتعاون فيه الحاكم والمحكوم هناك تعاون الواثق والأسد على حماية البيت ومقاومة اللص، في هذا الوقت نجد الحكام العرب يخشون من وضع السلاح بين أيدي الجماهير العربية!!

لماذا؟ لأنهم يخشون على أنفسهم منه؟

ولذلك فإن الشعوب العربية لم تتح لها إلى الآن فرصة قتال حقيقي لليهود

ولا أرتاب في أن أعداءنا عندما ينظرون إلى ضعف الساسة العربية، ومسلك الرؤساء العرب - في بعض الأقطار - سيشعرون بالرضا والأمل

وقد يوقنون ببقائهم فوق أرضنا، بل فوق صدورنا إلى آخر الدهر

إن بني إسرائيل يرمقون الجمود الإسلامي من بضعة عشر قرناً حدثتهم نفوسهم

---

(1) في رأينا أن ذلك أول أسباب ضعف الجبهة الشرقية في معركتنا ضد اليهود

أبدا باقتحامها، حتى جاء هذا القرن الأشأم فطمع فينا من لا يدفع عن نفسه، وشرع اليهود من خمسين سنة يوطدون أقدامهم في فلسطين ليثبوا إلى ما وراءها، والظروف تواتيهم، والأيام تنتقل بهم من نصر إلى نصر

والسبب؟

نقولها نحن العرب والمسلمين: إنهم لم ينتصروا بقواهم الخاصة قدر ما انتصروا بفراغ قلوبنا من الإيمان، وافتقار صفوفنا إلى الوحدة.

لقد تسللوا إلى بلادنا عن طريق شهواتنا الدنيا، وإخلادنا إلى الأرض وحب الدنيا، وسعارنا إلى اللذات والرفاهية..!

إن فنون التمتع التي استوردناها من الغرب خلال الخمسين سنة الأخيرة تكفي لتدمير أمة ناهضة، فكيف بأمة عليلة!

وإنه ليحسن التنبيه إلى أن اليهود لو كشفوا عن خباياهم لمنحوا بعض الرؤساء العرب جوائز سخية، لأنهم هم الذين مهدوا الطريق لهم، وأطفأوا نار المقاومة، ودمروا روح الإيمان، ومزقوا صف الوحدة، وخلقوا أجيالا متنكرة لدينها ولغتها وتقاليدها ومثلها، في الوقت الذي بنى فيه اليهود كيانهم على الدين واللغة والتقاليد والمثل العبرانية

هل أمام العرب منفذ للنجاة؟

نعم، بل منافذ رحبة

يوم يعالجون أنفسهم من عللها، ويوم يصححون أنفسهم وأحوالهم الداخلية على المنوال الذي نسج عليه الأسلاف العظام

يومئذ فقط تهب ريح التغيير ولكن كيف يصنعون؟

ذلك ما نجيب عليه في الأحاديث التالية إن شاء الله.

* * *

هل عن الإسلام غنى ؟

حاجة الأمم إلى العقائد لتتحرك وتسير كحاجة القطارات إلى الوقود لتنطلق وتمضي، أو حاجة الآلات إلى الشيء الأقوى لتدور وتنتج

وقد ظل العرب دهراً طويلاً والإسلام هو العقيدة الدافعة، والشريعة الضابطة، والشمع الهادي، والديدبان الحارس.

وفضل الإسلام على العرب كفضل الماء والهواء والضياء على الزروع والثمار

ألست أول جمعهم من شتات، أو نظمهم من فوضى !!

وإنه خلقهم من عدم، وجعلهم أصحاب دولة ورسالة وحضارة وما كانوا قبل ذلك شيئاً مذكوراً

وقد مرت على العرب أيام نحس وسعد، وشدة ورخاء، وما في ذلك عجب فإن الخط البياني لسير الأمم في التاريخ لا يلزم مستوى واحداً

والمسلمون على الأحيان كانوا إذا اضطربت أمورهم ثم نبهوا عن أسباب الشقاء

سرعان ما يعودون إلى دينهم يعتصمون بحبله ويستمسكون بهديه، فتنزاح عنهم العلل، وتسري في أوصالهم العافية..

إلا أن العصر الحديث وفد على العرب والمسلمين بحدث مستغرب بلبل فكرهم، وأزاغ خطوهم، فبدل أن يلتمسوا دواءهم كما اعتادوا من كتاب ربهم وسنة نبيهم، جاء من يقول لهم: لا

هناك عقيدة أخرى نريد أن تحل محل الإيمان المألوف المتوارث ؟

هناك مبدأ آخر يجب أن تسير تحت لوائه الجماهير، وأن ترتبط به الحركات والسكنات، وأن نتحمل في سبيله المغارم والتضحيات وأن ننسى ما عداه أو يذكر على تحرج وإخفات..

ذلك هو شأن القومية بمعناها الإقليمي الضيق أو بمعناها العروبي الواسع !

والشعور الحقيقي لم يتحرز أول أمره على الوقوف بنا خصوم الإسلام أو غوص مطلق عنه !! وإن هذا التصريح يعسر عليه حقيقته

ومن هنا كان ثمة من يتحرج بنفسه حتى اللحية والتوجيه يدعون أنه ممثل حزب الله الذي، أو صديق له، أو نائب عنه، أو ما شئت من تعلات وعناوين !

حتى إذا استعيد عوده، وغلبت الثقافة الأوربية على ترسيخ مفهومه، وتوسيع دائرته، أخذ يكشف عن حقيقة نفسه، ويقول للإسلام: لا شأن لك بالحياة، عش معزولا عن الواقع أو اذهب إلى القبور !

ولم يكن من هذا الافتراق بد في نهاية المرحلة

فالقوميات الضيقة أو الواسعة عندما طرقت أبواب البلاد العربية عقدت مصالحة مبكرة بينها وبين الإسلام، فاعترفت بأن الإسلام دين الدولة، وأن اللغة العربية لسانها الرسمي

وهي مصالحة مفتوحة شعر المؤمنون معها بأن الولاء لله ورسوله قد خرج عن مكانته، بعد أن كان قائلهم يقول

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

جاءت القوميات الحديثة تقطعه عن جذوره في العقيدة، وترشحه فيما تروجه من إيحاء

بل إن منطلقات هذه القوميات لم تلبث أن طغت على أوامر الإسلام ونواهيه، فأصبح الالتزام بها طوعا لا تكليفا !

وشب في صدور المسلمين عراك صامت أو صارخ في مقابلة هذا الوضع الطارئ على تاريخهم وأحوالهم، وكان هذا العراك يهدأ أو يهيج حسب الظروف المحلية والعالمية التي تعرض لحاضرهم ومستقبلهم

إلى أن أعلنت القومية العربية على لسان زعمائها في بعض الأقطار الإسلامية رفضها للإسلام، أساسا للتوحيد والتشريع، ودعامة للتربية والتنمية، وصبغة للكيانات الخاصة والعامة، وسقط بكثرة العظمى المؤمنة به وراء التهديد الرهيب لمستقبله ومستقبلهم

فكان هذا الإعلان إنذارا للجماهير المسلمة أن لا محيص من عودة صريحة شاملة

لديهم، عودة لا سبي معها هذا الاشتطر في سولاء، أو هذ الازدواج في التوجيه، أو هذ الإعضاء عن حدود لله وحقوقه بملابسات أصبح لاكثر ث بها لا موضع له

ب أعداء موسى للمسلمين في مختلف بلدانهم بلد قواه في لهدم أكثر مما بذلها في سناء، ولكن تلك هذه لحقيقة تصوران رغيم سياسي لا يحسن أن يجمعها بلد عد لا صناعي، أو أن يجعل منها العسكرية صحراويه لا بحرية

ماذا عساه يفعل هذ الزعيم؟ انه سيسير خلف على اسئلة ستلده، والمهارات المبرزة، والمصالح القائمة، والتعاليم الموروثة، محاولا دفعها كلها الى الطريق الذي يريد

وهذه جميعا لن تستسلم له، وسوف تستعصي على مراده

قد نقول ربما يكون عبقريا مكرهها على التحول الذي يبغي

ونحن نقول ... دث .. ممكن عقلا وعملا أن تستجيب له طبيعة سنة لكن بلاد ... حصيلة بشرية كيف تحول منها الزرع، وبلاد تحيط بها الأمواج كيف تحمد حرب الصحراء؟؟

كذلك هو في جميع النهضات التي نريد لسكر للإسلام من أهله، وصدقته الأقربين، وحماته الأوائل، أعني العرب

هذه النهضات ليست جهود غير مشكورة بل تحمل الإسلام وتخصص لأحيان جديده ... صرف الأعمده ولكنه بعيد عنه ... والأمم معنى على أمورها تحس هذه المحاولات وتجاهد للتغلب عليها وإبطال آثارها

فكان من نتائج هذه الانفصال المعنوي بين الشعوب وحكامها أن ضاعت جهود عظيمة في الأخذ والرد، والجذب والشد

وحسبنا المسلمون في بلادهم على حين تقدمت أمم أخرى برئت من هذه التفاوت والتناقض

ولقد ضحكت ضحكا مريرا وأنا أقرأ في بعض الصحف أن هناك فكرة لا ... صور المسلمين ... إلى المماتيين في تحية!!

هذا هو أسلوب التحرير على الاستبداد والاستشهاد كما يفهمه رجال من حملة الأقلام!!

أتعرف أحقر من هذا التفكير في مواجهة اليهود؟

ولكن البعد عن الدين يلد المخاوف .. !

بما قد سبق لأن المرحلة التي يردنا إلى ديننا على عجل .. ولأشرح هنا أمرين مهمين

أولهما : أن العرب لا يلم شعثهم إلا دين ، ولا يسحق خصومتهم إلا دين ، ولا يوحد كلمتهم إلا دين

كذلك كانوا قديما وكذلك نجدهم في هذا العصر

إن النفسية العربية لا يحلها مفتاح فذ ، ويتمكن من الدوران في أعماقها ، والتحرك لأقصى مشاعرها وأفكارها ، إلا أن يكون هذا المفتاح دين ..!!

إن العرب في جاهليتهم قاتلوا أربعين سنة من أجل ناقة قتلها طائش ، وهم في عصرنا هذا من الذين يحملون خصائص أسلافهم في الجاهلية ما يعصمهم عنها إلا أن يؤمنوا بالله ويتذاكروا الإسلام .. !

وقد قسمتهم الدنيا في جاهلية نفث حرب سهامها .. ثلاث ... لا تنطفئ أبدا ، حتى جاء محمد نبيه العظيم فصنع المعجزة ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾

إن الخلافات بين العرب الآن حقيقة ما يستطيع إخفاؤها ، ومع أن حكامهم قد استبيح والأزمات المادية والأدبية قد سودت وجوههم ، إلا أنهم ما زالوا متفرقين مغلوبين ممزقي الصفوف

ولن يزالوا كذلك حتى يعملوا الإيمان قلوبهم ، ويجمع صفوفهم ، ويعيد بناءهم ، ويرصهم في ميدان القتال مجاهدين أشرافا .. لا شباب مائع يمرس في ملاهي الفتيات والمسابين !!

والأمر الآخر : أن العرب الآن يواجهون تجمعا دينيا تحت علم اليهودية ، وهذا التجمع الخصمي جمع بين اليهود النازحين من اليمن واليهود القادمين من أمريكا ، ومحا الفروق القومية واللغوية ، وجمعهم مساعدين على أسس التوراة والتلمود واللغة العبرية وشحن القلوب بحماس الحقد ، وذكريات التاريخ ، وقداسة القضية التي يستحب الفناء تحت علمها .. !!

فإذا كان النسر سلاحا روحيا وماديا في الجبهة التي يواجهها العرب فكيف يطلب من العرب أن يتجردوا من الدين في مثل هذا اللقاء ؟

---

(١) - الأنفال ٦٣

وهل ينتظر أن تصمد أناس قلوبهم خربة من القدس أمام أناس يهمهم دينهم الذي يلهب حماسهم، ويذكي بأسهم، ويغريهم بصنع العجائب ؟

هذا عن اليهود، أما العدو الآخر الذي يختبئ وراءهم فما الذي حمله على إيذائنا ودفعه إلى عداوتنا ؟

أسباب اقتصادية ؟ كلا، إنه يخسر [illegible] في معاونته بني إسرائيل ومحاربته العرب، إنها الأحقاد الدينية التاريخية التي تجعل أمريكا وحلفاءها يجورون علينا ويهشون لمصائبنا ويشمتون من هزائمنا

بل يشتركون في صنعها، فسلاحهم يقتل، وسياستهم تخذل !

فهل يتعلق كل ذي دين بدينه ويتصرف بمنطقه، أو هكذا نرى على حين نطلب من المسلمين وحدهم أن يدعوا دينهم ؟؟

لقد استقدم الإنجليز اليهود إلى فلسطين، وأعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق، فلما دخل الإنجليز دمشق، إن قائدهم العسكري الكبير صرح بما حمله نفسه عندما دخل القدس فزعم أنه الآن أنهى الحروب الصليبية التي بدأها لحساب قومه الدين الذي لم يملكه «ريتشارد» من قبل ثم تصرفوا في أملاكهم على هذا النحو، مزيدا من التنكيل بالإسلام والمسلمين !!

ثم ورثت «الولايات المتحدة» إنجلترا، وراعت بني إسرائيل رعاية أطلقت ألسنتهم بالشكر والمدحة، وها هي ذي أمدت أسلحتهم تنهمر على بني إسرائيل إعدادا لهجوم آخر يكون أنكى وأقسى !؟

فهل هذه السخائم الدينية تواجه من جانب المسلمين بالزهد في الإسلام ؟

أم هي بواعث الدفاع عن النفس تفرض عليهم أن يفزعوا إلى كنف دينهم يحتمون به، ويجمعون صفوفهم في كل مكان لملاقاة هذا البلاء [illegible] ؟؟

إن القومية العربية فشلت في الدفاع عن بيت المقدس، وهو الحرم الثالث لنا نحن المسلمين، فهل ننتظر حتى تفشل في الدفاع عن المدينة المنورة نفسها واليهود يعدونها من أملاكهم الأولى وتراثهم القديم ؟

إن للعرب أن يعودوا ظهيرا وناصرا لدين الله، وأن يجعلوا الإسلام شارة وصبغة لكفاحهم المرتقب

وليس يغني عنهم شيئا أن يتعلقوا بشعارات مخدوعة وقوميات هجرها مبدعوها

ويسير أن يخفى عليهم شيئاً أن يصحبوا الإسلام على غش أو ينفروا من الإسلام لبعض المظاهر الجوفاء

فقد يقال لكن العودة بالعالم كله إلى الحروب الدينية أولى شيء لا يتفق وربما كانت عواقبه شؤما على مستقبل البشرية أجمع

وسنشرح هذا الاعتراض في الحديث التالي، ونبسط الإجابة عليه

* * *

متى تنتهي هذه الأحقاد؟

نحن المسلمين لا نعرف التعصب الديني، وإذا عرفناه من نفوس حاقدة مستورة، أو وسواس عابر، فما بنينا عليه سياسة، ولا أقمنا عليه تقليداً، ولا عرفنا له في الحياة وجهة!!

وقد أقام اليهود بين ظهراني العرب والمسلمين أعصاراً طويلة، وأعداداً كثيفة، وتوزعتهم جهات متباعدة، لا جهة واحدة.

فكانت مجاميع الإسلام ترعاهم في غرب إفريقيا على شاطئ الأطلسي، وفي شرق القارة على حوض النيل، كما كانت ترعاهم جنوبي الجزيرة العربية في اليمن، وشماليها في العراق.

وعلى امتداد التاريخ واتساع الرقعة لم يلق اليهود ذرة من المعاملة الشرسة العنيفة التي عرفها إخوانهم في أوروبا.

لقد كان العالم المسيحي يصب عليهم جام غضبه، ويفجعهم بعصابة أشد جنوناً!

لم يكن يهود روسيا أحسن حالاً من يهود فرنسا، وهؤلاء في شرق أوروبا، وأولئك في غربها.

ولم يكن يهود إنجلترا أحسن حالاً من يهود أسبانيا، وهؤلاء في الشمال وأولئك في الجنوب.

ثم ظهر هتلر في ألمانيا أخيراً، ففعل بهؤلاء المنكودين ما فعل.

إن التعصب المسيحي داء عياء، وقد كانت المذاهب الدينية الكنسية يصلي بعضها بعضاً ويستبيحه، فكيف بها في معاملة الآخرين؟

ولن تبرح ذاكرة العالم مآسي الحروب الصليبية القديمة، ومجازرها المروعة، وقد أصاب المسلمين منها بلاء عظيم.

فلا غرو إذا تطلعت الدنيا إلى خلاص من هذا الشر المستطير.

ولا عجب إذا حنت نفسي للصفحة القديمة، واستشرفت صفحة أملأ بالصفاء، وأندى بالسماحة

من يكره هذا التحول النبيل؟ إننا نتشوف من أعماق نفوسنا إلى عالم تغمر الخيرات أكنافه وتظفر فيه الشعوب بالأمان

ألا لعنة الله على تجار الحروب، وموقدي نارها..!

كم نود أن يتوطد السلام في عالم تسمو فيه حقوق الإنسان وكرامات الأمم

لكن هل مستقبل الإنسانية يأخذ هذا الاتجاه؟ كلا

ونحن المسلمين في هذه الآونة الحاسمة نشعر بأن الآخرين يضمون كتائبهم على أنقاضنا، ويبنون سعادتهم على شقوتنا

وعندئذ يصبح نفر من ساستهم حظهم في الثراء على ثروة مسروقة، أو حظهم في البناء على أرض منهوبة فهيهات أن يتمخض هذا البناء عن نهاية صالحة

إنه كمسلك أخوة يوسف عندما رسموا الطريق إلى راحتهم المنشودة فقالوا ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ (1)

هكذا تتعاون الصهيونية والصليبية على إقامة السلام العالمي، ومنع الحروب الدينية أو المدنية

سيسحقون العرب والإسلام، ويقيمون لبني إسرائيل دولة كبرى على أطلال هذا الماضي الكريه، وعندئذ سيحظى العالم بالاستقرار والرفاهية

هذه هي سياسة الآخرين تجاهنا. وهي سياسة حولت الحقد الدارس إلى كلمات فيها لين الأفعى، وسمها الزعاف

فهل للمسلمين إذن أن يقاوموا هذا الموت الزاحف المحدق بكل ما يملكون من عتاد وطاقات.

والآن سنكشف القوى التي تحرك إسرائيل والتي تغري الدول الاستعمارية بإمدادها بالمال والسلاح

لقد اجتمع مؤتمر أسكوتلندي للكنائس كلها في روما تحت رعاية البابا الأكبر

ماذا كان الهدف من عقد هذا المؤتمر؟

كان الهدف إبداء العطف على اليهود في المرحلة التي يمرون بها من تاريخهم المعاصر.

---

(1) - يوسف 9

كان الهدف عقد صلح حقيقي بين المسيحية واليهودية، لستطيع اليهود بعدها أن يتوجهوا بنشاطهم كله ضدنا

ولو كان الهدف من هذا المؤتمر منع اضطهاد اليهود، لانعقد أيام هتلر، أو في أعقاب حركته العنصرية

أما أن ينعقد بعد انتهاء الحرب بعشر سنين، وبعد انتصار الدول المشايعة لليهود، ثم يقال: إنه مؤتمر لمنع اضطهاد اليهود! فهذا عبث صغير بالأذهان!

إن اليهود في وضع سمح لهم باضطهاد غيرهم، فكيف يزعم زاعم أن مؤتمر الكنائس العالمية اجتمع لمنع الأذى الذي يلحق باليهود؟

إن المؤتمر للأسف أخذ عنوانا خادعا

وحقيقته هي دعم العدوان اليهودي ضد العرب، والكيد للإسلام وأهله بطريقة جديدة

وبابا روما والسادة الذين عاونوه تجاهلوا حقوق أهل فلسطين، وأصموا آذانهم عن صراخ اللاجئين، وكل ما عندهم بعد هو تدوين القدس، أو بتعبير صريح، طرد المسلمين منها وحسب!

ولنظر إلى عبارات الوثيقة التي أصدرها المؤتمر سرى العطف في نفس اليهود، والتلطف معهم، والدفاع عنهم

أي في معاونتهم على حربنا، وشد أزرهم وهم يهجمون علينا

تدبر هذه العبارة في صدر الوثيقة المذكورة «إن الكنيسة ... ذلك المخلوق الجديد في المسيح وشعب العهد الجديد ... لا يمكن أن ينسى أنه استمرار لذلك الشعب الذي تفضل الله عليه برحمته الواسعة في يوم من الأيام لتحقيق عهده القديم مع كلا إلهه الوحي المذكور في كتب العهد القديم»

وهذا الكلام واضح الدلالة في أن المؤتمر يعد الكنيسة المسيحية استمرارا للوجود اليهودي الأول

ما هذا الذوبان كله ولم ذلك الملق؟

وتتابع عبارات الوثيقة التي صدرت دعما لبني إسرائيل في هذا العصر المشئوم

«... ولا تنسى الكنيسة أن المسيح ولد ... من ناحية الجسد ... في الشعب اليهودي، وأن أم المسيح، مريم العذراء، والحواريين، وهم أساس ودعامة الكنيسة قد ولدوا أيضا في الشعب اليهودي، وتضع الكنيسة نصب عينيها ما قاله بولس الرسول في شأن

اليهود الذين هم إسرائيليون ولهم التبني والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد» (الرسالة إلى أهل رومية ٩/٤)

ولما كان المسيحيون قد تسلموا من اليهود ذلك التراث العظيم فإن هذا المجمع المسكوني يهدف إلى التشجيع والتوصية بمراعاة التعارف والاحترام المتبادل تماما بين المسيحيين واليهود والذي سيصبح عميقا عن طريق البحث اللاهوتي والحوار الأخوي»

أرأيت هذا الذوبان كله ؟ وهذا الاسترضاء والتقارب الحميم ؟

ثم تمضي الوثيقة فتقول «من الواجب أن نذكر أن اتحاد الشعب اليهودي مع الكنيسة هو جزء من الأمل المسيحي، ونتوقع أن الكنيسة حسب تعاليم بولس الرسول (رسالة رومية ١١: ٥) تنتظر بعقيدة ثابتة ورغبة كبيرة في وحدة ذلك الشعب الآتي للدخول في سلطان شعب الله كما وطده المسيح»

وأخيرا ترشد الوثيقة إلى أنه «عند تلقين الدين المسيحي يجب عدم إظهار الشعب اليهودي كأنه ملعون ... إلخ»

وهكذا أمكن بعد عشرين قرنا من حياة المسيح عليه السلام أن يصطلح اليهود والنصارى

ولكن علينا وعلى بلادنا وحاضرنا ومستقبلنا

وجاءت المصادفة العجيبة المضحكة في هذه الوثيقة الشاذة ووصف المؤتمر المسكوني بمحبة المسلمين أيضا

والعلامات لهذا الحب قد ظهرت طوال السنين في حربنا المكشوفة ضد تحدي أمريكا وإنجلترا وألمانيا الغربية وأوربا وكندا وشتى الدول المسيحية بلا شك

وبعد تلك الوثيقة وتمشيا معها وجهت الكنيسة مؤامرة الإعتداء من العدو الإسرائيلي وفشلت كل المحاولات لاستصدار قرار بانسحاب الإسرائيليين من الأراضي التي احتلوها، ولم ينطق أحد بكلمة عطف على العرب !!

ومع الظروف التي حجبت فرنسا خلف حقائق التعقل، فإن الفرنسيين في موقفهم الجديد يصرون على بقاء إسرائيل - أي على بقاء فلسطين ... وعلى حقها في المرور في خليج العقبة وقناة السويس دون عائق !!

فهل يوما غافل إذا صرحت بكشف هذا الغل الدفين ؟

هل يوما غافل إذا قلت إننا نواجه حربا دينية على يد اليهود من جانبهم، وعلت بها الكنيسة في المجمع المسكوني الأخير ؟

إننا لسنا هواة حروب دينية أو مذهبية، ولا نحب الانجراف مع نزعات التعصب الأعمى

ولو أن اليهود في العالم أجمعين عاشوا في قلب العالم الإسلامي مواطنين شرفاء ما أساء إليهم أحد، بل لأخذوا مكانتهم العلمية ومكانتهم السياسية جنباً إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين الذين يحيون بيننا آمنين وادعين

بيد أن الهجوم المسلح الذي شنه اليهود علينا أخيراً، وأعانهم عليه المنظمات الدينية والسياسية الغربية يعطي القضية وجهاً آخر، ويميط اللثام عن لون خسيس من الأحقاد التي لابد أن تواجه باستماتة وبأس، وأن تحشد في صدها جميع القدرات الروحية والعسكرية

ومن ثم - والحالة هذه - من حقنا استدعاء الإسلام للدفاع، والاستعانة بالروح الإسلامية في طرد الغزاة المحدثين، كما طرد أسلافهم أو أشباههم من الصليبيين الأقدمين

ولا حرج علينا أن نستعين بكل سلاح أو نرحب بكل عون

لحساب من يقال للعرب: إن الحرب الدائرة فوق أرضهم لا علاقة لها بالدين، وأنها مطامع بشرية محددة؟

ولحساب من توصف الحروب الصليبية القديمة بأن الدين لم يكن مشعل نارها، ولا محرك أحقادها، بل كانت غزواً استعمارياً فقط؟

لحساب من يشاع هذا الإفك وتوضع الحجب على وجه الحقيقة حتى لا يراها أحد؟

إن المستفيد من إقصاء الإسلام عن المعركة، وإيهام أتباعه أن العقيدة لا دور لها في هذه المناوشات هم اليهود ومن خلفهم من ورثة الصليبيين في أوروبا وأمريكا

والخاسر هو الإسلام والمسلمون والعرب والمستعربون

وعندما يدفن الإسلام في زوايا الإهمال فستدفن معه فلسطين وما حولها من بلاد

والغريب أن ذلك ما ترتفع به عقائر، وتخطه أقلام يجب أن يعرفها الناس وأن يحذروا حملتها

* * *

جذور المعركة القائمة

أهو وفاء للعروبة أن يصر نفر غير قليل من رجال السياسة وأصحاب الأقلام على هجر الإسلام وسحب ذيول الصمت على اسمه ووجه رحمته حتى لا يعتصم به أحد ؟؟

ما هذه العروبة الغريبة ؟

إن من مقتضيات التحديد أن نكتشف أن هناك ناسا يتحمسون للقومية ومع ذلك فهم يكرهون اللغة العربية !!

ودعك من أنهم يعجزون عن الكلام بها ، ولكن نشير إلى أنهم في مجال الإذاعة يؤثرون الحديث بالعامية ويفضلونها على الفصحى ، ويضيقون بقواعد النحو والصرف بله ألوان البلاغة وفنون التعبير

وهم ساخطون على الشعر القديم وبحوره المعروفة وموسيقاه الجزلة ويفضلون عليه هراء يسمونه الشعر المنثور أو النثر المشعور .

وهم يرفضون بعنف أن تكون اللغة العربية لغة العلم والدرس في كليات الطب والصيدلة والهندسة وغيرها ، ويتحمسون للغة الإنجليزية أو أية لغة أخرى دون العربية !!

وهم يطلون على المجامع الأدبية والعلمية واللغوية ويستطيعون بهذه العلة محو الطابع العربي والنمط العربي من آفاق نشاطنا الحديث كله أو جله ، حتى ليخشى بعض المخلصين لتاريخنا وثقافتنا ، أن تذوي صفحة القومية على مر الأيام

ولقد تساءلت : أهذا هو المشتغل بالقومية العربية أو المتربي بها ، صادق فيما يزعم ؟

إنه لو كان عربيا حقا ، وكان يدين بعبير الإسلام ما أكن لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتراثه هذه البغضاء الرهيبة .

وإذا لم تكن الأمجاد العلمية والقانونية والحضارية التي اقترنت بالرسالة المحمدية فخرا للعرب فبماذا يفخر العرب ؟

الحقيقة التي يسعى أن تقرر أو نسعى أن نكشف - أن هذا النفر من الناس ظل علاصباحهم في الأيام الأخيرة سواء في قليل ولا كثير؟

إنهم نبت استعماري مغشوش الضمير والتفكير.

يهمه نشر الشيوعية وحسب إن كان من أذناب الجبهة الشرقية.

أو يهمه نصر الأسلوب الغربي في الحياة إن كان من أذناب الجبهة الغربية.

وقد اتفق هؤلاء وأولئك على مخاصمة الإسلام ومطاردته في ميدان التربية، والتشريع، والتوجيهين الخاص والعام، وساء تقاليد اجتماعية لا تعرف الحلال والحرام، والصلاة والصيام، وغير ذلك من آداب الدين ومعالم التقوى.

ثم وقعت هزيمة الناشئة في يونيه سنة ١٩٦٧، كانت اللطمة من العنف والعمق بحيث يفيق منها المخمور ويثوب الشارد.

بيد أن الذين مردوا على النفاق لم يعرفوا إلى التوبة طريقا. فأخذوا يهرفون بعضها بكلام كذب لا يزيد الأمة إلا خبالا ولا يخرجها من كبوتها الحاضرة، بل إلى كبوة أوسع وأشنع.

كان السبب الأول والأخير لهزائمنا المتلاحقة أمام اليهود فقدان العقيدة الحارة والأخلاق الحارسة، وبصوت معين الإيمان من قلوب تعلقت بالشهوات ونسيت المثل الرفيعة.

كان السبب الأول والأخير لهزائمنا أننا كنا أحفادا أخساء لأجداد كبراء، فما قلدناهم في طلب الآخرة وحب الشهادة، ولا قسناهم في أداء الفرائض، والتزام الفضائل، واحتقار الدنيا، واطراح الأهواء.

والمرض أن جماهيرنا لجنود طيبة المعدن، فما جدوى ذلك إذا كانت قيادها في أيدي قوم يذكرون أنفسهم ولا يذكرون الله؟ أو في أيدي قوم يحتقرون دينهم على حين يحترم خصمهم دينه؟

وحدثت الكارثة... وشرع الثرثارون يذكرون السبب!!

وعاف أن نتواصى الجميع بقول كل شيء إلا الحق، كأن التذكير بالإسلام جريمة الجرائم، أو كأن العودة إليه هي المحظور المخيف..!

ومن المضحكات في تعليل انتصار اليهود أن جيشهم كان عصريًا! كأنما تكونت الجيوش العربية في القرن الماضي، ولم تتكون في السنوات السبع الأخيرة!

ومن طرائف التعليل كذلك عزو انتصار اليهود إلى تفوقهم في «التكنولوجيا» كأن هزائم الأمريكيين أمام ثوار «فيتنام» سببها أن الفيتناميين أبرع من عدوهم في هذه «التكنولوجيا»!

والمراد من هذا كله، الصمت عن أثر العقيدة في كسب المعركة.

ولا نعرف عملًا يكر أثر القوى المعنوية في انتصار مصر، ولكن لما كانت العقيدة عندنا هي الإسلام، ولما كان ذكر الإسلام يغيظ عند هؤلاء الخانسين فقد فضلوا طول اللغو على ذكر الحق.

ومؤامرة الصمت هنا تواطؤ متعمد على إماتة حديث الدين، واستغفال الجمهور بمعزل عنه.

﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾[1]

* * *

وتنشر الصحف في التعقيب على المعركة ونتائجها كلامًا تتجاهل فيه الصفعة الشديدة لقيام إسرائيل، وتتجاهل فيه مقررات المؤتمر المسكوني العالمي المنعقد في روما، وتوصياته الحانية على اليهود.

ومضى في إبعاد الإسلام عن المعركة كلها يقول الأستاذ «محمد حسنين هيكل»: كان بين الأسئلة المطروحة في هذه المناقشة مثلًا: هل القضية فلسطينية بالدرجة الأولى، عربية بالدرجة الثانية؟ أم هي عربية بالدرجة الأولى، فلسطينية بالدرجة الثانية؟

وبالتالي: هل يحتمل شعب فلسطين أساس مسئولية المواجهة ضد الاغتصاب الإسرائيلي لوطنه؟ ثم تساعده الأمة العربية في هذه المسئولية؟

أم إن المسئولية على الأمة العربية وفي طليعتها بحكم انتمائه الوطني شعب فلسطين؟؟

وهذا الكلام يجعلنا أمام فرضين لا ثالث لهما!! هل النزاع فلسطيني أم عربي؟ وأين الإسلام والمسلمون؟

---

(١) محمد: ٢٦ - ٢٨.

يعد تناسيهما كالكاتب عن عمد ! واليهود لا يطلبون أفضل من هذا لتكبير لإنجاح سعيهم

ومع أن قضية فلسطين دينية عند أتباع التوراة والإنجيل والقرآن

ومع أن أمر المسجد الأقصى يهم المسلمين في كل قارة، كما يهمهم أمر المسجد النبوي مثلا، ولا يزعم أحمق أنه يهم السعوديين وحدهم

ومع هذا كله، فإن المشكلة ليست في جر المسلمين قحمة إلى المعركة

المشكلة أن يستعيد الدين مكانته العتيدة بين العرب أنفسهم، وأن يقاتلوا عدوهم عن عقيدة مهيمنة واستماتة مؤمنة

ويوم يعود العرب – في قطر واحد من الأقطار المحيطة باليهود – إلى الإسلام، فإن دولة واحدة من دولهم ستؤدب دولة العصابات !

ويوم يتحرك ٣٠ مليون مسلم في مصر عن طرد هؤلاء المعتدين تطهر الأرض الحرام من ظهرهم

ويمضي الكاتب في ... وبين المفكر العربي، وتتيه العرب عن طريق الرشد فيزعم أن انحياز الأمريكان، وحمايتهم لليهود مسألة غامضة تحتاج إلى دراسة علمية !!

أما الصبغة المفضوحة لهذه العلاقة، أما الأحقاد الصليبية المستحرة ضدنا، أما الصلة الروحية للولايات المتحدة والطبعة الكاثوليكية بدون شريك التحول، فهذا كله يمر عليه الكاتب كأنه لا يدريه ولا يسمع به !!

والغرض ؟ إبعاد الصبغة الدينية عن الطرف الآخر، لكي لا يفكر أحد في إضفاء الصبغة الدينية على الكفاح عندنا

ونسمع إليه يتساءل « ما هي أصول تاريخ اليهود ؟ ما علاقة اليهودية بالصهيونية ؟ ما علاقة الدولة في إسرائيل بالأغلبية لليهودية في العالم كله » ؟

ويجيب « ليست هناك مراكز ومعاهد بحث كاملة تعمل وتنتج باللغة العربية » !

أرأيت هذا الهزل

وإلى أن تنشأ هذه المعاهد في بلادنا ثم تنشر بحوث جامعية في حقيقة العدو اليهودي فعلينا نحن المسلمين إبعاد الإسلام عن المعركة !

وربما نشرت هذه البحوث في ظل السلطات اليهودية المنتصرة على العرب التائهين أو الباحثين عن الحقيقة !

إن اليهود كما قلت لا ينتظرون من وسائل الإعلام لدينا أن تخدمهم بأفضل من هذا التفكير.

ويمضي الكاتب فيتساءل: «ما هي حقيقة الصلة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، وإلى أي مدى ارتباطهما»؟

وبعد أن يعرض عدة احتمالات ليس فيها أي ذكر للدين مطلقا، يقول: «الحقيقة في ظني تكمن في نقطة ما وسط كل هذه الأمور، ولابد من بحث علمي عنها»!

ولا نريد إطالة التعليق على هذه الأفكار، فإن الأمر لا يحتمل الميوعة ولا التسويف.

إن على المسلمين أن يستيقظوا ويدافعوا عن دينهم وأرضهم وتاريخهم في وجه حرب قذرة تأخذ طابعا دينيا مكشوفا لا ريب فيه.

إننا نواجه حربا دينية تستهدف اجتثاث جذورنا، والتطويح برسالتنا ومكتسباتنا.

أما جعل الحرب دفاعا عن القومية العربية بعد تجريدها من الدين فهو منهج يفضي إلى إضاعة الكيان القومي واللغة العربية على السواء.

لن يحمي العرب إلا الإسلام، يوم يعتصمون به خلقا وشرعا وسيرة، ونظاما.

أما مع أوضاعهم الشائعة اليوم فالأمل بعيد بعيد.

* * *

هذا هو الطريق

الفقر الحقيقي في الأمة الإسلامية الكبيرة يرجع إلى هذا الشلل العريض في الهمم والمواهب، وهذا التخلف السحيق في مجالي الإنتاج والإجادة.

ثم إلى ذلكم العبث بمعنى الإيمان والنكوص عن مقتضاه.

إلى جانب تعلق وضيع بالشهوات، ونهمة بادية إلى الدنيا!

ولن نصف خصومنا بأنهم يكرهون الحياة وملذاتها، بيد أن الأمم القوية تبلغ ما تهوى بوسائلها الخاصة، أما الأمم الضعيفة فهي تلهث وراء غيرها، أو تتعلق بركابهم تعلق المستجدين بمركبات النقل، أو تعلق المتسولين بأذيال السادة.

والنهوض الحقيقي هو إزالة هذه العلل، وبناء خرائبها، وقدرة الأمة على الاستغناء بعلمها وبثرواتها، والاستهداء بإيمانها وفضائلها، والاستعلاء على متاع الدنيا بحيث تأخذ منه بقدر، وتنصرف عنه متى تشاء!

ويؤسفني التصريح بأن الشعوب الإسلامية، حتى يوم الناس هذا، لم تبدأ نهضة صحيحة، وأن مظاهر التقدم التي نراها أو نسمع عنها هي امتداد نشاط القوى الكبرى أكثر مما هي تطلع المتأخرين للتقدم.

فالغرب الصليبي يصطنع شعوبا شتى لخدمة مآربه ويمدها بكثير من عونه المادي وقليل من تقدمه الحضاري.

والشرق الشيوعي ينافسه في ذلك الميدان، ويحاول الاستفادة من أخطائه، أو يحاول ميراثه إذا انتهى في مكان ما.

وجمهرة المتعلمين أوزاع، وبعضهم يؤثر النمط الغربي في الفكر والسلوك وآخرون قد أعجبتهم الماركسية فاصطنعوا ظاهرا وباطنا شرعتها.

أما الذين يتشبثون بالعقائد والفضائل الإسلامية ويريدون بناء المجتمع الكبير على دعائم الوحي المحمدي فهم فئة غمصة من الناس، ولا أقول مكروهة الوجهة منكودة الحظ

هب أن ثورة قامت في حوض النيل تحمل الحماسة الصينية والروسية مثلها لا غير، أتكون هذه الثورة نهضة إسلامية؟ أم تكون نجاحاً للفكر الشيوعي العالمي؟؟

من أجل ذلك قلت: إن الشعوب الإسلامية لم تبدأ بعد نهضة صحيحة، تكون امتداداً لماضيها، وإبرازاً لشخصيتها أو نماء لأصلها وتثبيتاً لملامحها.

ومن الغلط تصور أن آخر الاستعداد من تجارب الآخرين ومعارفهم!! كيف وهؤلاء الآخرون ما يقدمون لا يمت بقرابة عن أسلافنا من فكر وخلق وروح وتجربة؟؟

إن دولة الخلافة الراشدة قد تمشت على بناء النظام الإسلامي من موروثات الروم والفرس دون غضاضة.

وعندما آكل طعاماً أحسبه أن تحتاج إليه هذا الجسم الذي هو جسمي، والقوى التي انسابت في أوصاله هي قواي!!

المهم عندي أن أبقى أنا بمشخصاتي ومقوماتي!!

المهم أن أبقى وأبقى في كياني جميع المبادئ التي أعتنقها والتي أرتبط بي وأرتبط بها، لأنها رسالتي في الحياة، ووظيفتي في الأرض.

فما هو مقياس النهضة، أية نهضة أو زيفها، فهل في العالم الإسلامي نهضات جادة تحمل الإسلام عقيدة ومنهجاً والرسول الكريم أسوتها؟

إن هذا شيء يدعو للحرص على حمل بناء الحضارة لينهض على هاتيك الدعائم.

وإذا كنا نستورد من الخارج ثمرات التقدم الصناعي، ونستمتع من خيره غيرنا من حق الحياة الناعمة، فليكن ذلك في حدود ضيقة من شرائعنا وشعائرنا.

إنه لا قيمة لأحدث الآلات إذا تولى إدارتها قلب خرب، ولا قيمة لأفتك الأسلحة إذا حاول الضرب بها فؤاد مسلوخ مقطوع من الله مولع بالشهوات.

إن بناء النفوس والضمائر يسبق بناء المصانع والجيوش، وهذا البناء لا يتم إلا وفق تعاليم الإسلام.

وبينه مصرع الأحزاب الجديدة، وبالتالي تحكم العلاقات السياسية، ورعاية ظاهرة ومطلقة للحدود المفروضة، ومعاملة حازمة بما في الدين من أهداف، ومقاطعة حاسمة لما يعترضه من مسالك.

وكل بناء معنوي للأمة ينكر الإسلام، أو يحذف ذكره، أو يغض من شأنه، فهو مرفوض جملة وتفصيلا!

ولقد جربت جعل مظاهر المدنية فوق باطن فارغ مظلم فماذا صنعت؟

[illegible] ﴿ إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ﴾[1].

وهذا النوع من الناس فاشل في سلمه، مخذول في حربه، ما [illegible] أرض ولا سماء.

البناء الحقيقي للنفوس يستهدف أمرين جليلين:

أولهما: إسلامي بحت يحرك المسلم من يقظة الفجر إلى هدأة الليل بحماس العقيدة، وطهر الصلاة، وشرف الإخلاص وحب الله ورسوله.

وكلتا الجبهتين الشرقية والغربية تكره ذلك الأمر، وتأبى أن يأخذ الإسلام طريقه في الحياة بهذا الوضوح.

والأمر الآخر حضاري بحت، أساسه التفوق العلمي والتفوق العسكري في كل أفق امتدت إليه الحضارة الحديثة من استصلاح التربة إلى غزو الفضاء!

ولكن صرحاء! إن هذا التفوق لا يولد من تلقاء نفسه، إن السير في هذا المجال يتطلب رغبة في المعرفة، وشوقا إلى المجهول، وعزما على اقتحام كل عقبة، وهذه المشاعر لا تمدها إلا عقيدة مكينة!

وإذا كانت الحاجة أم الاختراع كما يقولون فإن العقيدة المسيطرة أقوى من الحاجة في الاندفاع والتحمل واستشفاف الغيوب!

إن الجندي المؤمن يرمق الظلام في جنح الليل بطرف يكاد يخترق سدوله، ويبحث عن ألف حيلة لمقاومة العدو ودحره.

والعالم المؤمن يجفف العرق، وينسى عن نفسه نفسه، لأنه مبعوث بحب لا القهر، يريد خدمة أمته وإعلاء رسالته.

والمجرب في شئون المسلمين أنهم من عشرات السنين لا يمكنون من الحياة وفق إيمانهم الأثير، وأنهم - أيضا - يلفظون كل ما يعرض عليهم من إيمان بديل..!

ونتج عن ذلك أن أعمالهم الخاصة ونشاطاتهم العامة مولودة ميتة، وأنهم إن تحركوا ففي مكانهم!!

وقد تحركت اليابان مثلا في موكب نهضة صناعية عارمة، ونجحت حركتها من هذا الدافع الملتبس بين ما يفرض على الشعب من خارج، وما يهفو إليه من داخل [illegible] ؟

(1) - المنافقون: 4

أصبحت أمة من أنجح أمم الدنيا، ولا تزال برغم هزيمتها في الحرب الأخيرة أمة مرهوبة الجانب، إن لم تكن في صناعات الحرب ففي صناعات السلام.

أما العالم الإسلامي خلال هذا القرن فقد رزق بحكام يريدون محو دينهم أو تشويه صلته بهذا الدين، فكانوا شؤما على يومه وغده.

إن النهضة الحقيقية هي التي تنجح في استثارة قوى النفس، وفي جعل الأمة على اختلاف طوائفها كخلية نحل نشاط ونظام.

ولنعد لموضوع خلاه.

لقد شاع الانفكاك بين العقيدة والعمل، وعجز رهيب في أداء الأعمال العادية حتى ينتهي إلى أن عموم المسلمين أصبحوا دون غيرهم من الخلق في نواحي الإنتاج المادي والأدبي.

وكثيرا ما كنت أذكر قول أبي الطيب المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

فأحس مقدار هبوطنا عن المستوى الإنساني الرفيع في الإتقان والإجادة!!

إن النجاة من السقوط قد تكون شيئا مقبولا، ولكن ليس كل نجاح يحسب تفوقا. قد ينجو الإنسان من العرج ويستطيع السير، ولكنه لا يمنح جائزة تقدير في العدو لمجرد القدرة على المشي.

والمتنبي يحتقر أهل زمانه لأنهم فقدوا ملكة الإجادة ولا يحسنون فعل العظائم!!

فكيف لو رأى المعاصرين لنا من موظفين وعمال في كل شأن دق أو جل.

إن هؤلاء لا تعدم بواعث الإهمال والفوضى تعوج في أيديهم الأعمال المستقيمة فلا يصلون بها إلى المستوى المقبول بله مستوى النبوغ والعبقرية!!

راقبت يوما بعض العمال الذين يكثر دعاؤهم ولا تؤمن خلائقهم، ثم عدت من نظرتي إليهم وأنا أضع يدي على سبب مبين من أسباب تأخرنا.

نظرت إليهم فوجدت العمل يخرج من بين أيديهم ناقصا غير تام، شأنهم غير جميل، ووجدتهم لا يأسون على ذلك، ولا تحركهم أشواق إلى إدراك ما فاتهم، وبلوغ مرتبة أفضل.

فعلمت أنهم أناس تنقصهم موهبة الإتقان، وأن أمامهم أشواطا واسعة من التدريب والعلاج حتى تكتسب أيديهم المهارة المطلوبة، وتستحث نفوسهم الإجادة والتفوق.

وأعدت النظر مرة أخرى في سلوكهم فرأيتهم يطلبون على عملهم الناقص ثمنا كبيرا ويرتقبون من غيرهم التقدير المضاعف.

أو هم يفرضون على الآخرين مطالبهم مهما فدحت دون تقديم مقابل معقول !!

وأحسست أن بهم طمعًا جشعًا كثير التطلع إلى طيبات الحياة، ولكنهم يتوسلون إلى مطامعهم بجهد مبذول مقدور

كلا، إنهم من الناحية النظرية صحيحو العقيدة، ومن الناحية النفسية صحيحو الأمانة، فأي بلاء هذا ؟

إن مثل هذا العمل هبوط حضاري بالمستوى الإنساني، ونزول مؤكد من مرتبة الإحسان التي يفرضها الدين، ويبني ترتيبه على تحصيله

إن المحصلة النهائية للجهد البشري بعد طول الكدح في هذه الحياة، أن يخرج الإنسان من هذه الدنيا بثمرة واحدة هي «العمل الحسن»

وذلك ما أكده القرآن الكريم عندما قال: ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ (1)

وقال: ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾ (2)

وإن العمل الحسن للمرء يخرج الأعمال من بين أصابعه وكأنما أخلص عليها فهي كالسقط الذي لم تكتمل ملامحه !

إن العمل الحسن للمرء منصوص الرغاب لكل عقل معتدل منصف فقط وعلى الناس أن تعي !!

إن النجاح الكبير في هذه الحياة الدنيا وعند الله أن يسمو عقولنا وقلوبنا بنعمة التوفيق عليه، والله جل شأنه يقول: ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ (3)

فالإيمان والإصلاح قرينان لا ينفكان.

وليس من الإصلاح المنشود المفروض أن يكون الإنسان غير مأمون على الحاجة، واجب أو غير مأمور إذا حاجة — على المسؤولية، وعنده مكانة لا يستحقها عليه !!

ومرة أخرى نقول: إن إعادة الحياة إلى العقيدة الإسلامية لتحتل مكانها في الضمير ثم في الشريعة لترسم خط السير في المجتمع بكامله، هو وحده طريق النهوض الصحيح

* * *

(1) – الملك 2 (3) – الأنعام 48

(2) الكهف 7

القيم الروحية .. كلمة غامضة مبهمة

شاعت كلمة « القيم الروحية » على ألسنة الكتاب والخطباء في الأيام الأخيرة وهي كلمة جدت في الأدب العربي الحديث ولم نقرأها في أساليب الأولين

ولم نشعر عندما سمعناها لأول مرة بنكر لمدلولها المبادر إلى الأذهان

إذ كانت - فيما فهمنا - تعني السمو بالنفس ، والعناية بالخلق ، والإعراض عن التفكير المادي ، ورفض وجهه في السلوك الخاص والعام

وهي جميعاً معان مأنوسة مستحسنة تقبلها نحن المسلمين ، ونراها بعض تراثنا الديني بلا ريب .

لكن الكلمة تكررت في مواطن شتى ، وحفت بها ملابسات مغمورة !

من يمكن القول بأنها أصبحت مصطلحاً مستقلاً له مفهومه وغايته عندما تطلق هنا وهناك . .

وظاهر أن هذه الكلمة ، كلمة القيم الروحية ، تعني مجموعة الأديان الأرضية والسماوية التي تعتنقها جماهير مكثفة من البشر ، وتصبغ وجهتها في الحياة بطابع غيبي بارز ، وضروب من العبادات المقررة ، وأنماط من السلوك يستمسك بها الأتباع ولا يحيدون عنها أبدا .

أي أن هذه القيم تشمل الوثنية والهندوكية واليهودية والمسيحية والإسلام وكل ما ينضوي في هذا الميدان العقيدي المأثور ، من الماديين والمتدينين ومن بينهم !!

وتضم هذه النزعات كلها تحت عنوان القيم الروحية حتى صار حسن ، كما أن كلمة « المشروبات الروحية » تعني جميع السوائل المسكرة مهما اختلفت الأسماء في شتى الأقطار !!

والتعبير « القيم الروحية » بهذا المفهوم الجامع تستحق دراسة متمهلة كي نحدد منه موقف

وإن طي الحق والباطل تحت عنوان واحد أمر نرفضه ابتداء !

ومن هنا فنحن نستبعد الأديان الأرضية من نطاق هذه القيم ولا نعترف بدين إلا ما كان له أصل سماوي محترم

أي أن الأديان في نظرنا لا تعني إلا الإسلام، فالنصرانية، فاليهودية

أما الفلسفات الأخرى التي تحولت من أيدي أتباعها إلى دين فهي في نظرنا ضروب من الوثنيات مبتوتة الصلة بالله الواحد، مصروفة بطبيعتها عن الاستمداد منه والاستعداد للقائه

وقد تتعصب لهذه النحل ألوف مؤلفة من البشر، لكن فيها ما تشاء

لكن الغريب أن تسلك هذه المذاهب مع الأديان السماوية في نظام واحد

ثم إن الشرق الأوسط لا يعرف هذه المذاهب ولا أتباعها، وبذلك لن يضار أحد من إطلاق هذا العنوان المستحدث على الأديان السماوية وحدها — أعني به تغيير القيم الروحية

بقي أن نتساءل: ما السر في ابتداع هذا العنوان ليشمل الأديان الثلاثة ؟

والجواب لعله محمول على ما شاع في أوروبا من أن التدين والتعصب صنوان، وأن الخلاف الديني يضر بالقضايا العامة للأوطان

ونحن نكره ضيق الأفق، والانحراف العاطفي، اللذين يسيطران على بعض المصريين ويسيئان الإساءة كلها إلى حقيقة الدين

بيد أن ذلك الوهم لا مكان له في حياتنا ولا في تاريخنا

ويمكننا أن نقول بقوة: إن التعصب الوطني والعنصري والديني رذيلة تنتقل في المجتمعات الأوروبية من قديم ولا تعرفها مجتمعاتنا العربية

إنها هناك وباء معمم، أما في بلادنا فقد تبدو أعراض المرض على أفراد محصورين ثم يتلاشى هذا العارض كما يتلاشى عمود دخان أمام ريح متجددة

ومن ثم فإن هذا العنوان لا يحتمل لهذا السبب، ونحن نرفض إنشاء مصطلحات سياسية جديدة للرد على تهم أنشأها لفيف من الكذبة

هل هناك قصد آخر من وراء تغيير القيم الروحية ؟

نعم، منع استغلال طوائف الإقطاعيين والرأسماليين والكهان لفطرة التدين

والجواب أن نرفض كل استغلال للدين وانحراف به عن هدفه.

ومن الحق الذي لا يمكن جحده أن ثورات التحرر الكبرى في بلادنا كانت دينية، وآخر هذه الثورات سنة ١٩١٩ فإن ساحة الأزهر كانت مصدرها ووقودها، وكان رجال الدين المسيحي مع علماء المسلمين في القيام عليها.

أما التحرر الاجتماعي، فإن رواده الأوائل من المفكرين الإسلاميين.

ومعروف أن علماء الأزهر ناشئة من أبناء الفلاحين والعمال، وأنهم ما كانوا قط طبقة إقطاع في هذه البلاد.

ومن ثم فإن هذه الشبهة مردودة كسابقتها، ولا تقبلها أسبابا لفرض هذا المصطلح السياسي الجديد.

على شيء آخر هو أننا نحن المسلمين نرى في وصف الإسلام بأنه قيمة روحية وحسب بخسا لحقيقته، وانتقاصا لتعاليمه، وتساوقا مع الفكر الاستعماري في هجر شرائعه، ونبذ شعائره، وإبعاده عن الحياة العامة.

أهو تريث على الاسم بعد الإبقاء على الجوهر.

ومن الإنصاف أن نذكر هنا تفسيرا للدكتور عبد العزيز كامل شرح فيه كلمة القيم الروحية شرحا حسنا.

فقد رد المعنى المراد إلى قوله تعالى: ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده** ﴾ (١).

وقوله: ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا** ﴾ (٢).

وبهذا التفسير تغدو كلمة القيم الروحية شاملة تعاليم الإسلام كله وأن المناداة بها تعني رجوع المسلمين أصول دينهم وفروعه !!

ولا شك أن هذا التفسير ذكي، يوائم بين العنوان المحبوب والرغبة المنشودة، ولا اعتراض لنا عليه من هذه الجهة.

وإنما نعترض على كلمة القيم الروحية من ناحيتين أخريين:

أولاهما أن هذا التفسير الصحيح لا يدركه إلا الأقلون، ولا تؤيده الظروف الملابسة للنطق به.

---

(١) النحل ٢ (٢) الشورى ٥٢

والثانية أن عنوان ديننا معروف من عشرات القرون، هو الإسلام ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾[1]

فلماذا سرت عدوى ذلك الأمر المنفور، ونتوارى تحت عناوين غامضة وشارات مبهمة ؟؟

إن نظرة إلى أتباع الأديان الأرضية والسماوية في كل قارة ترى كل واحد منهم يملأ فمه بالانتساب إلى دينه والانضواء تحت لوائه.

واليهود الذين شاركوا في صحف الفترة لم يشعروا بغضاضة من إطلاق اسم إسرائيل والمكابرة الوقحة باسم دولة له.

فلم يتوارى اسم الإسلام وحده ؟ ولماذا يطالب المسلمون وحدهم بالتخفي والاستخذاء ؟؟

لقد قيل من زمان بعيد: إن الدين لا صلة له بالدولة.

ثم قيل لا صلة له بالاقتصاد.

ثم قيل لا صلة له بالقانون.

ثم قيل إن الأخلاق المدنية أهدى من الأخلاق الدينية.

ثم قيل إن العبادات وسيلة تزكية وليست مقصودة لذاتها.

وطبق هذا اللون المنكر على الإسلام.

فماذا أصبح الإسلام بعد هذا البتر والتطويح ؟

وعندما تتوارى الأسماء التي اختارها الله لنا من خمسين قرنا فقال ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ ويكره الناس أن نسمى بما ارتضاه لنا، فعلام يدل هذا ؟ ألا يدل على تهرب وكراهية ؟

كراهية للاسم بعد إضاعة المسمى !

من أجل هذا المحذور أرى إحياء الإسلام موضوعا وشكلا، وحقيقة واسما. فذلك أحق وأولى.

* * *

(1) الحج ٧٨.

لم احتفلوا وماذا استفادوا؟

الحديث عن رسول الله حبيب إلى كل قلب، ومن صنائع معروفه طوقت أعناقنا، وثمرات جهوده الشاق هي التي تحيي ضمائرنا وتمسك كياننا.

وإذا كان المثل السائر «من علمني حرفاً صرت له عبداً» فكيف بمن هدانا إلى الرشد في الدنيا، والنجاة في الأخرى؟

إن دينه في رقابنا ضخم وجميله في أفئدتنا مغروس.

ومع ذلك فقد كنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى عندما كنت أدعى إلى احتفال المولد الشريف لأتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم!!

كنت أشعر بأن هذه الاحتفالات صلة مصطنعة بين المسلمين ونبيهم، وأن الخطب التي تلقى فيها دعاوى حب لا يساندها دليل، ولا يؤيدها واقع.

كانت هناك مدائح للنبي منظومة ومنثورة، وشارات فرح بذكراه مطوية ومنشورة ولكن لم يكن هناك ما يدل على صدق الاتباع وحسن التأسي، بل لقد هرع إلى سرادقات الموالد بين المغرب والعشاء ناس لم يصلوا المغرب ولا العشاء!!

إن الأمر لا يعدو المشاركة في تقليد مكرر مألوف.

وذكرت أبيات البوصيري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخيل إلي أن الرجل كان يعني جماهيرنا عندما قال في بردته:

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم!
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم؟

نعم، كيف يدرك هذه الأفواج النائمة الهائمة حقيقة الأسوة التي أيقظت العقل من سباته، ونقلت البشر من ظلماته إلى النور، وفكت أغلال الناس عن أعناق طالما عاشت في الذل، وقضت أعمارها في الهوان..؟؟

لقد كنت أرقى وأنا أنقل الخطوات هنا وهناك أن المسلمين لا يعرفون حقيقة سوة، ولا يفقهون معنى الرسالة، ولا يدركون ما يجب عليهم بإزائها، إنهم - كما عبر البوصيري - قوم نيام يتسمون عن الحقائق بالأحلام

والنيام الذين يبدون في صور الأيقاظ كثيرون.

وأسمع إلى أبي الطيب يصف فريقا منهم، وكأنه معنا في هذا العصر، يصف المجتمع الإسلامي المعتل.

أرانب غير أنهم ملوك — مفتحة عيونهم نيام
بأجسام يحر القتل فيها — وما أقرانها إلا الطعام

تأمل هذا الوصف لعبيد الشهوات، وصرعى الملذات، إنهم يعدون مكبين على دنياهم حتى يحصدوا ذاتهم كما يحصي دود القز الإفرازات التي تنسجه

والأمم التي تستسلم لدنياها على هذا النحو لا تصلح للحياة، ولا تنتصر على عدو، ولا يتوقع منه أن تتصدر القافلة الإنسانية وتحمل رسالة عالمية!!

وهذا الفريق من المخمورين في مشاعرهم، المتبلدين في أفكارهم، عالة على العقائد التي يعتنقها، إنه يشينها ولا يزينها، ويلقي عليها أوزاره بدل أن يدعها تغسل عنه الأوضار.

ومن حق كل ذي لب أن يسأل: هل المسلمون الذين يحتشدون في أفواج تحية المولد النبوي منطلقون مع أنفسهم ومبادئهم؟

ما أظن الواقع ولا الخيال يجيبان بالإيجاب

إن احتفالات المسلمين بالميلاد النبوي مع تركهم لأركان دينه، وصدهم عن سبيله، مرض نفسي واجتماعي يحتاج إلى الدرس والشرح!!

وقد لاحظت في تجاربي مع الناس، أن البعض يكتفي في إثبات ولائه لأهل الصدارة وأولي الأمر، بكلمات منمقة يرددها، ومظاهر رسمية يجيدها!

فإذا تقاضاه الولاء المزعوم موقفا صارما، أو مغرما ثقيلا، كان أول الفارين.

وكم في الدنيا من أناس يخدعون الآخرين بهذا الأسلوب الميسور، يقتربون منهم ما دام الاقتراب رخيصا، فإذا بهظ الثمن وعز الدفع لم تجد لهم أثرا!!

وقديما تطوع المنافقون بالاقتراب المادي من رسول الله، وذكروا أنهم يؤمنون به!

ونزل الوحي الأعلى يقول: ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ (١)

وشهادة الله على المنافقين بالكذب إنما جاءت بعد أن افتضحت مواقفهم وسرائرهم، فما صمدوا في جهاد فرض عليهم، ولا اطمأنوا لحكم صدر في قضاياهم، ولا بادروا إلى صلاة جامعة، ولا سارعوا إلى نفقة مطلوبة.

إنهم مؤمنون عندما يكون الإيمان كلاماً، أما عندما يكون جهداً وإقداماً فالأمر آخر (٢) ﴿ بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ﴾ (٢)

وقد كثرت الأحفال الرسمية والشعبية بميلاد الرسول الكريم، أحفاد مسلمي هذا العصر الذين هزمتهم شراذم اليهود، ونزلت بهم حرب ليس سوادها نظير في تاريخ المسلمين أجمع.

فأي علاقة مفترضة بين أولئك المسلمين وبين نبيهم المجاهد الشجاع الصبور؟

إن العلاقة الوحيدة المقبولة بين المسلمين ونبيهم هي التأسي به، والسير تحت لوائه، والتزام سنته القويم، وصراطه المستقيم.

فمن فعل ذلك فهو أولى الناس به في الدنيا والآخرة وإن لم يحتفِ لمولده بذكرى!

ومن شرد عن هذا الهدى، فقد انقطع بالرسول نسبه، وإن أقام لمولده عشرات السرادقات.

في الأيام هذه التي يتنمس فيها أهل الفقه والتجديد، ليذودوا عن العقائد والحرمات، أزمت بالإحلال العميق الصحفي الذي يقول: إنه لا يبالي على أية صورة يموت!

سواء كسر رأسه، أم مزق صدره، أم شق بطنه، أم قصم ظهره، إن صور الهلاك كلها لا تقلقه.

إنه معني بشيء واحد فقط، أن يموت وهو مسلم.

فإن اطمأن إلى هذا المصير مات مستريحاً على أي جنب وبأي جرح.

---

(١) - المنافقون ١ (٢) المؤمنون ٦٣

ونرجوه في الله أن يتقبل ذلك الفداء، وأن ينزل بركته على أشلاء قطعت في سبيله

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

هل تفرست في ملامح هذا الشهيد النبيل؟ هل سمعت بمثل هذا الصنف من الرجال؟ أولئك هم الرجال الذين رباهم محمد وتعلموا منه كيف يحيون لله وكيف يموتون لله، وأولئك هم الرجال الذين دمروا معقل الظلم، وتركوا اليهود وغير اليهود يولون الأدبار في أقطار الأرض!

والاتصال الصحيح بمحمد إنما يكون بمعرفة ربه، وإدمان وحيه، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، وتوقير أحكامه، وتكوين الأجيال الجديدة على خلقه وعبادته وجهاده

إن محمدا هو الكتاب الذي تلقاه وعاش له وبه

فما نكون خصومه إذا قال الرسول عنا: ﴿ **يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾[1]

لقد أحسست كربا شديدا وأنا أسمع قادة جيوش اليهود يقولون: نحن نقاتل من أجل التوراة واليهودية وأرض الميعاد!! يقولونها دون غموض ولا استحياء، ولا تحس على حين تتفوق شهوة الزعماء العرب والمسلمين فلا يجرءون على إرسال مثل هذا التصريح في الدفاع عن القرآن والإسلام والأمة الكبرى المحروبة تحت وطأة ألف هاجم من الشرق والغرب

هل ذكر التوراة شرف وذكر القرآن جرم؟

هل يصيح الناس بباطلهم ونتوارى نحن بحقنا؟

إن محمدا النبي الأمي هو أجدر إنسان في العالم بأن يقتفى أثره ويشاد بتراثه، وإن كتاب محمد هو الوحي الصادق الذي تلمس الإعجاز في آياته، ويرتقب الخير من سماعه، ويشرف الناس بتلاوته وتدبره، والتنويه به، وجمع القلوب عليه

إن ميلاد محمد ليس سوقا اقتصادية تحز المنافع بالبيع والشراء، وليس استجلاء تاريخيا لبعض ما في المتاحف من آثار وأخبار

---

(١) الفرقان ٣٠

إن أمر محمد ودينه وأمته أعظم عند الله وعند الناس من هذه الأعمال الرخيصة دينية أو دنيوية

وإذ لم نعرف بناء مجتمعنا على عقيدة محمد وشريعته فلا داعي للاحتفال بمولده، وإظهار ولاء مكذوب له

وبقيت كلمة حاسمة تتصل بمستقبلنا مع اليهود، ولا بأس من تكرارها

إن الاعتقاد الديني يشد زناد النشاط الإنساني شدًا هائلا، ومن ثم يخرج العمل وكأنه قذيفة لا يقفها دون مداها شيء

وقد قرر اليهود أن يخوضوا حربا دينية، وأبينا نحن إلا أن نجعل الدين مظاهر لا تعمر قلبا، ولا تصوغ خلقا، ولا تسوي صفا، ولا تحكم معاملة، ولا تصنع مثلا أعلى، والويل لنا في القريب والبعيد

إن سياستنا الموجهة إذا لم تنجح في إعادة الرشد إلى الراشدين فستتبعها فواجع مفجعة، وهزائم فاضحة

فهل يؤمن قومنا ويعودون إلى الله، أم تمضي فيهم سنة الأولين أولئك الذين لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم..؟؟

* * *

أجيال النصر وأجيال الهزيمة

ليس النصر والانكسار حظوظاً عمياء تصيب الأمم وهي غير مستحقة لها، أو تتحول عنها على غير توقع منها، أو تستوي لمستبرقات فتقهرها على وجهة لا تؤثر سواها..

كلا فإن الأمور تندفع إلى نهايتها وفق سنن كونية دقيقة

وخواتيم الصراع بين الأمم لا تتم خبط عشواء، ولا تكتبها الأقدار جزافاً، بل تجيء وفق مقدمات منتظمة، كما تجيء النتائج بعد استكمال الأسباب . !!

ولربما كان ما يصيب الأفراد أحياناً من نوازل مبهمة سبباً في عد المصائب جملة أقداراً قاهرة.

وربما كان ذلك ما جعل المتنبي يقول

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذماً ... فما بطشها جهلاً ولا كفها حلما

وهذا الكلام من نزوات الشعراء، ومما قد يتسلى به القاعدون عمن تؤدبهم السماء

والحق أني عندما أتأمل في القرائن المتلاحقة منذ اليهود خلال العشرين السنة الأخيرة أشعر بأن الغزو الثقافي قد حقق مراده وفق ما يشتهي

وأن ما غرسه في بلادنا قد آتى ثماره المرة كلها

وأن جهوده الماكرة في ميادين التعليم والإعلام منذ استعمر الأرض والعقول لم تضع سدى !!

من عشرات السنين والأجيال الجديدة تذاد عن القرآن الكريم ذوداً، وتجهل في ذاته تجهيلاً .

من عشرات السنين والتاريخ الإسلامي تقلل مساحته، وتقلل حصصه، ويبحر مرة باسم التاريخ القومي، ومرة باسم التاريخ الأجنبي، حتى لا يحسب محمد وأصحابه إلا من الروحيين والفكريين !!

من عشرات السنين وعلوم العقيدة والفقه والتربية والأدب تطارد من التعليم العام لتكون بضاعة بعض الأزهريين المغموصين

وأخيرا انزوى البضاعة وحملتها في ركن بعيد عن الأضواء متلاشي على مر الأيام

من عشرات السنين والأوضاع المقلوبة التي تشيع عوامل التعرية تحت مقوماتنا من الإيمان والصلاة والتقوى، وتطلق الشهوات للدنان تتشهم كل ما يمت للشرف والوفاء والحياء

فلما التقى الجمعان في سنة وعشر سنين وقع ما كان الاستعمار يمهد له من قديم، ويسوق الأمور إليه بتؤدة وصبر !!

إن كل القوى الدافعة على الإسلام خبأت وراء الاستعمار الحديث لتنال منه ما تشتهي الأسالب، فإذا حاح الأمر إلى المكر لانت، وإذا احتاج الأمر إلى القسوة بطشت

وهي في لينها تدس السموم، وفي شدتها تحترف الهمجية والحروب وفي كلتا الحالتين لا تنام عن غايتها أبدا

إنها تريد بناء مجتمعات مسلحة عن الإسلام، مرتدة عن هديه في البيت والشارع والمدرسة والمحكمة وسائر مناحي الحياة العامة

وقد وصل الغزو الثقافي إلى غايته المنشودة، وانعكس ذلك كله على معاركنا مع بني إسرائيل

ذلك أن المعارك لا يربحها طلاب النصيحة من أصحاب العقائد، ولا يربحها عباد الشهوات من أبناء الدنيا

وينبغي أن أجيب هنا عن شبهة روجها القاصرون

إن العلم سلاح عظيم في إحراز النصر، هذه حقيقة لا يحتاج كشفها إلى عبقرية، ولا يماري فيها إلا مجنون

وبناء الدولة على العلم هو وظيفة كل حكم راشد، وخصوصا العلم التجريبي والتطبيقي .

لكن العلم أداة تستخدم لنصرة من يمتلكها

والجبهات المتصارعة في العالم اليوم تتنافس في تحصيل العلم ونعرف أسراره وتكثير رجاله

الشرق الشيوعي والغرب الصليبي كلاهما يتوسلان بالتفوق العلمي لدعم موقفه ومد سلطانه.

فالعلم هنا أو هناك وسيلة لإنجاح المعتقد أو تغليب المذهب.

فكيف يجيء في هذه الأيام العجاف من يريد ترهيبنا في العقيدة باسم الحاجة إلى العلم؟

وفي أي بلاد يقال هذا الكلام؟ في بلاد الإسلام الذي احتفى بالعلم من أول آية نزلت فيه!

لقد لاحظت أن ضعف الثقافة خلق في بلادنا صنفين من المتعلمين كلاهما لا خير فيه.

الأول صنف يكتفي من العلم بقشوره، أو عنوانه ورسمه فهو لا يضيف إلى ثقافته، ولا يستفيد أو يفيد من حقائقه.

والآخر صنف غر بالقدر الذي أحرزه، ويريد أن يحيا به ملكا غير متوج، وكأنه تعلم ليستكبر ويطغى..!!

والصنفان يكثران حيث يضعف الإيمان، وتهي الأخلاق، وتفحش الأثرة.

وأصحاب العقائد حين يقبلون على العلم يجودون فيه، لأن طلب الكمال غايتهم، ولأن العلم وسيلة رائعة - كما شرحنا - لإعزاز مبادئهم وقومهم.

وفي فراغ الجو من الإيمان استعصت على الحركة، ووجدنا ناسا ثرثرتهم أكثر من إنتاجهم! ودعاواهم أكثر من حقائقهم! وشهواتهم أملك لأزمتهم! مع أنهم تخرجوا من شتى الجامعات المدنية أو العسكرية.

ماذا أرى الآن بعد الهزائم المخزية التي نكست رءوسنا؟

أقواما يضحكون ولا يبكون! ينطلقون إلى المقهوات والأندية ليسمروا ويغنوا، أو إلى الشواطئ ليلهوا ويعبثوا!!

كان ينبغي أن تكون هذه الجباه مقطبة لكنها مبسوطة!

كان ينبغي أن تكون هذه الشفاه مزمومة لكنها منفرجة!

وماذا أقرأ الآن؟ خليطا هائلا من الأخبار والبحوث كأنما حشدها امرؤ يريد أن يسرق عقلي حتى لا أفكر! وأن يسرق ضميري حتى لا يستيقظ! وأن يملأ أذني بطنين مزعج من الأحداث المفتعلة حتى يختفي صوت المعركة القاسمة.

فهذا هو المرض الواقع للأسف نفسه، سمعت من يرجع الهزيمة إلى ألف سبب غير السبب الحقيقي! ومن يلتمس لها ألف دواء إلا الدواء الصحيح

ويستحيل أن يتكون جيل النصر في هذا الجو الأغبر

لقد حشد الاستعمار خلال قرن من الزمان ما يغري بترك الصلوات وحب الشهوات

فلماذا لا يتصدر الرؤساء والوزراء المحافظون صفوف المصلين ويحرصون على مرضاة الله ؟

ولماذا لا تحل المشكلات « الجنسية » بالاستعفاف وتيسير الزواج بدل إشاعة التبرج وتوطيد أركان الفحشاء ؟

ولقد سمعت أن خصومنا يعلون من صلة الدين، ويتمسكون بتعاليم كتبهم، ويصرح وزير حربية إسرائيل موشي ديان ويعلن بأنه يحارب من أجل التوراة واليهودية وأرض الميعاد كما روت تلك الصحف

على حين يتحلل زعماء العرب ويتحدثون عن الانتساب إلى العروبة ويشتمون ديانة الأمة، لأن العروبة ... في أحسن علاقاتهم ... والصحابة والتابعين !!

وكانت العرب مجموعات من الدراويش لقسوة عزمهم لضعف علمي شائن نقلا عن تشويه المعلم ونقصه، وهذه التربية لا تتطلب عبقرية في أدائها

إن محمد علي الألباني وابنه إبراهيم استكملا هذا النقص واستطاعا بالجيش المصري أن يكسبا معارك عظيمة في القارات الثلاث .

إن جيشنا من خيرة جيوش الأرض عددا وعدة لو القيادة الصالحة

لكن العرب هزمتهم أزمة الإيمان في قلوبهم والقحط الرهيب في المثل والأخلاق

لقد فتكت بهم نقائصهم الداخلية قبل أن تفتك بهم سيوف الأعداء

وهذا التقصير الخطير هو ما خطط له الاستعمار الفكري لصلتنا بالقرآن والرسول ومنهج الإسلام كله منذ ظهر الإسلام

إنه صنع أجيال . فيجب علينا نحن أن نصنع أجيال النصر !

إن جيل النصر لا يصنعه قوم يخجلون من دينهم ! ويتنكرون لمن يحبهم !

إن الأيدي المتوضئة لا الأيدي الملوثة هي التي تصنع هذه الأجيال

* * *

اذكروا.. واحذروا

في مطلع القرن الثالث عشر للهجرة، والتاسع عشر للميلاد، كان العالم الإسلامي يخضع للخلافة العثمانية في وحدة سياسية جمعت أطرافه تقريبا ما عدا أندونيسيا التي احتلها الهولنديون، والهند الإسلامية التي احتلها الإنجليز.

وكان هذا الكيان الضخم مسرحاً لعلل فاتكة أكلت عقله وضميره وبدنه.

كان العملاق - الذي آلت إليه مواريث الراشدين والأمويين والعباسيين - يتربع في الميدان الدولي، ويسير بخطاه الصعبة فوق أرض يوشك أن تكون مضطربة!

وكان لقب الرجل المريض هو الاسم الذي شهر به في عرف الدول، وأعراضه... كأن مرضه آفة قاتلة تستحق الدموع والتحسر!!

لكن المريض الكبير لم يسلم الروح بسهولة، لقد صارع الأمراض الداخلية والخارجية صراعا دل على تشبثه بالحياة، وقدرته على المقاومة، ولم يستسلم للموت إلا بعد مائة وخمسين سنة بدأت بعد حملة فرنسا على مصر، ثم الجزائر، وانتهت في أعقاب الحرب العالمية الأولى بعد ما قسم الحلفاء التركة الهائلة، وبعد ما أوعزوا للكماليين أن يرموا بالخلافة في البحر...!!

ومع الألم الذي يستشعره المسلم لتمزق أمته، وذهاب خلافته، وضياع وحدته، فلابد من الاعتراف بالحقيقة المهينة... وهي أن الخلافة التركية لم تكن جديرة بالبقاء لا من ناحية الدين ولا من ناحية الدنيا.

ففي عهدها تعطلت الشريعة بين المسلمين، والإسلام بعدها همد، لقد حال الإسلام أثراً بعد عين.

وإذا كانت خطيئتها الأولى قد ضيعت على الحقائق والفضائل، فإن العالم الإسلامي أجمع في ظل سياسته التركية كانت تدفعه العثرات والتفاهات حينه وذهوله بين المحيطين الهادرين.

ووسعت الضغائن الفجوة بين العرب والترك، وتكفل حلم هؤلاء وكبرياء أولئك، بسير الاستعمار الذي طوى ليله الحالك على أمة ضريرة مهيضة، حائرة...!!

وفي الوقت الذي كانت دولة الإسلام تتحضر فيه في الغروب، كانت هناك حضارة أخرى تولد في أفق عريض، وتأخذ طريقها إلى امتلاك أزمة الأمور في أرجاء الأرض كلها

والحضارة الأوروبية الوارثة لمدنية ول الأمر نهضة عقلية مادية نشطة حرثة، وقد نشب بينها وبين النصرانية خصام دام مر !!

إلا أن رجال الكنيسة سرعان ما ... بين ... وبين هذه النهضة الحديدة فصمروا منها بحق الحياة، ثم بحق المشركة والتوجيه

وهنا لا ... اصطحبت معه الأحقاد الدينية القديمة، فإذا السياسة الأوروبية الحديثة برغم نحو العلمي الذي ... سياسات ناقمة حاقدة، تؤثر الباطل على الحق، والجور على الإنصاف، والتعصب على السماحة، وتحاول بكل أسلوب أن تهين الإسلام وأمته في كل مكان !!

وقبل أن نشرح عناصر هذا السلوك يجب أن نلفت النظر إلى أن النحو العلمي الذي ... فيه الحضارة الحديثة لم يكن من صنع أوروبا ولا أمريكا

ومن كانت تربية القارئين حلال الأزمة الماضية بهذا الجو

« لقد ازدهرت الحضارة الإسلامية في القرون الهجرية الأولى، وحمل العرب والمسلمون المشعل الحضاري في عدد من أدوار التاريخ الإنساني، فأضاء نورهم ظلمات العصور الوسطى! هذه حقيقة تاريخية عرف بها الغربيون أنفسهم، وأقر مؤرخوهم من أمثال ... وتوينبي - بأن النهضة الحديثة في أوروبا تدين بوجودها لما نقلت من الشرق العربي الإسلامي، الذي كان يقود البشرية على درب الحضارة في العصر الوسيط »

بيد أن ... الكلمة على الإسلام اهتدت لترتب على الدولة التي أسداها

ولم يلبث الإسلام حتى جمعت الدول ... تتحرك وراء هدف واحد، هو الحيلولة دون قيام دولة إسلامية كبرى، وتعميق الجراحات التي أصابت الأمة الإسلامية لعلها تنتهي بها إلى التلاشي والفناء.

وهي ترى أنها نجحت خلال القرنين ... في تقطيع أوصال ... وتمريغ كرامتها في الوحل

... في الطريق نفسها !

وتعمل ظاهراً وباطناً على تشديد الخناق حول رقبة الإسلام وأمته في الحياة !
وتستخدم الحيلة والسلاح جميعاً في خذلان كل قضية إسلامية وتأليب أي خصم ضدها

وفي سبيل القضاء على الإسلام، ومنع الاتجاه إليه، أو التجمع عليه، وضعت أوروبا هذه النقط الثلاث، وجعلتها محور سياستها مع مختلف الحكومات والشعوب الإسلامية

١ - تمثل الخلافة الإسلامية أبوة روحية وثقافية، وقوة اقتصادية وعسكرية وسياسية، وقد حرصت أوروبا على تجريد المسلمين من هذا اللواء الجامع وذلك الرمز المهيب، وأوجبت بريطانيا الحظر على كل كلام في موضوعه، حتى لا يظفر الإسلام في حاضره أو مستقبله بنظام يلم شمل المسلمين في مختلف الأقطار ويجدد فاعليتهم وهي تسير مع الزمن !

حدث في الوقت الذي يدعم فيه السلطان الروحي والثقافي والسياسي معاً، وتستقبل كلماته وكأنها وحي منزل

ومما لا يمكن تجاهل دلالته أبداً أن بابا روما أصدر قرار حرمان ضد رئيس حكومة الأرجنتين فسقط بيرون سقوطاً مدوياً لم يقم منه إلى الآن، وها قد مضت عشرة أعوام وهو شريد طريد

أما رجالات الإسلام الذين هم مظنة التجميع العام للأمة أو التجميع المحدود، فدون بروزهم وثباتهم مصاعب وأهوال !!

٢ - واتجهت السياسات الاستعمارية في قتل الأخوة الإسلامية، ووضعت خططها لكي تجعل من «الوطنية» ومن «القوميات الضيقة» بديلاً وحيداً للجامعة الإسلامية

وبدأت تحشر المسلمين على نحو سبعين جنسية كل جنسية معزولة عن الأخرى، أو محبوسة وراء فواصل مادية وأدبية لا حصر لها

وعندما قامت الجامعة العربية رحب بها على أساس أنها جزء من كل، أو خطوة على الطريق

ولكن الإنجليز الذين أوعزوا بتكوينها كانوا يريدونها عروبة مقطوعة عن الدين، متنكرة للإسلام !

والعرب أن دعاة القومية العربية تأثروا بهذا الاتجاه الأجنبي، فكذلك السر الأهم وراء تجمعهم طلب الحياة وحسب، في عالم يلتهم الكيانات الصغيرة !

وأن هذا الخطر الذي تتعرض له الضعاف هو أساس المنادي بالقومية

وفي ذلك يقول العربي : « إن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهما لا سند له من حقائق الحياة ولا يصح لو جب أن نحققه حتما ! فما للأمم الصغيرة أمل في حياة مستقلة ؟ وما خير مليون من الناس مثلا ؟ ماذا يستطيعون في ذلك الموج دولها المحلق ؟ وكيف يدخل في طوقهم أن يحموا حقيقتهم ؟ ويذودوا عن حوضهم ؟ إن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم، وتأكلهم بلحمهم وعظمهم، ولكن مليون مسيحي إذا أضيف إليهم مليون الشام وملايين مصر والعراق مثلا يصبحون شيئا له بأس يتقى »

والعماري – غفر الله له – يقول ذلك سنة ١٩٣٥

فكيف لو عاش ورأى العرب وخلفهم أعجز من أن يوفروا الأمن لأنفسهم أمام أعداد ضخمة من اللصوص تكيد لهم وتعمل على استئصال شأفتهم ؟

إن العرب ما يريدون أن عن ٨ المسلمين، وإن الجامعة الإسلامية، الإسلام الواحد، وحدها هي التي تستطيع وحدها أن تدفع عنهم الضر !!

ولكن الاستعمار شديد الحرص على إخفات صوت الإسلام في معركة البقاء العربي ذاته !!

٣ – وعندما أفلح الاستعمار في تقسيم الأمة الكبرى إلى عشرات الأمم فرض على كل أمة وحدها ما يأتي :

(أ) – أن تقصي الثقافة الإسلامية عن برامجها وهي تكون الأجيال الناشئة

(ب) – أن تمحو التقاليد الإسلامية في ميدان العلاقات العامة

(ج) – أن تقطع الصلة بين قانونها وبين الشريعة الإسلامية

وبهذه الضمانات المدخرة ظن الاستعمار العربي أن الإسلام سوف يتلاشى بعيدا، وأن بقاياه في الأنفس والبيئات كما قيل :

تتخلف الآثار عن أصحابها ... حينا ويدركها الفناء فتتبع !!

وما مستقبل دين يحيا وجوده دون ثقافة واضحة، ولا تقاليد عريقة، أو حكم عادلة ؟ إن الفئة المدحورة والجماعة التي تقف حولها أساس في هذا الانحلال الهائل لا حصر لها ولا حد لضررها

وذلك ما نرى أثره في كثير من البلاد الإسلامية التي تحسب نفسها متحررة لأن جيوش الاستعمار رحلت عن أرضها، وهي في الحقيقة مجرورة وراء هذا الاستعمار بحبل أكثره خفي وأقله مكشوف !!

٤ - والاستعمار العالمي ضائق باللغة العربية ودائب على حربها، وقد نجح في جعلها لغة ثانوية في الميادين الدولية، لا، بل بين أهليها أنفسهم.

وفي الوقت الذي تحاربها فيه الشعوب الإسلامية تنشط الصهيونية في بعث العبرية، وتنشط همة المبشرين للكشف عن عتق لغاتهم، في هذا الوقت تطرد اللغة العربية عن ساحات العلم، وتصر الجامعات الحديثة عندنا على رفض التعليم بها، وكذلك تتعمد الصحافة في أكثر الإذاعات عن الأسلوب العربي مؤثرة اللهجات العامية.

إنهم يحيون الموتى ونحن نميت الحي !!

وقديمًا عرف ذلك الأزهريون يترنمون بقواعد النحو ومخارج الحروف.

فما زالت بهم السخرية، وما زال الاستهزاء بكلماتهم وعمائمهم في الشارع والمسرح، حتى تركوا اللغة العربية، وقرت عين الاستعمار.

٥ - والتاريخ الإسلامي ! إن التجهيل فيه والاستهانة به، والإزراء عليه، خطة رسمت بعناية ومكر، وذلك كي تنشأ الأجيال المحدثة وهي مفصولة الروح وذاهبة عن آبائها الأصلاء، وقد لاحظ شوقي ذلك، فقال:

مثل القوم نسوا تاريخهم	كلقيط عيّ في الناس انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة	يشتكي من صلة الماضي انقضابا

إن الشعب الأمريكي يتعصب له تعصبًا، حتى يحس أن له جذورًا في ذلك الماضي، وهو الآن يبسط جناحيه في حماية الصهيونية والصليبية، ليتصل بتاريخ العالم.

أما نحن فإن الاستعمار حسبنا عن تاريخنا العريق ليفقدنا الثقة بأنفسنا، ورسالتنا، وما نستطيع إسداءه للحياة من حق وخير.

فهل نلين معه ؟

أيها المسلمون ... ذلك بعض ما نستطيع اليوم بيانه، فاذكروا واحذروا.

اذكروا ما يريده بكم عدوكم

واحذروا أن تعينوه على أنفسكم

* * *

هذه البقايا النجسة

عرفنا على وجه اليقين أنه عندما احتل الفرنجة أقطار الشرق الإسلامي في القرون المتأخرة كانوا يحملون معهم أحقادهم القديمة على الإسلام وأمته لم تنقص سوادها ذرة

إلا أنهم جاءوا هذه المرة أوسع حيلة وأعظم مكرا ، واستطاعوا بطرقهم الجديدة الخبيثة أن يتحيفوا الإسلام ، متظاهرين بالنصيحة والصداقة ، نهبة ما كانوا ليقدروا عليه لو جاءوا سافرين

وقد تفاوتت مدة مكثهم في أراضي الأمة المغلوبة على أمرها ، إذ مكثوا في بعضها عشرات السنين ، وفي بعضها الآخر مئات السنين

والمهم أنهم لما اضطروا تحت ضغوط كثيرة للجلاء عن بعض هذه البلاد لم يخرجوا عنها إلا بعد أن خلفوا أجيالا تربوا بأيديهم ، وتعلقت بهم ، وتعمل معهم ضد دينها ، وتاريخها ، وأمتها ، ورسالتها .

وقد ذكرت في الموضوع السابق كيف حرص الاستعمار في فترة حكمه أن يجرد الأمة من التربية المحافظة والعادات الموروثة ، والأحكام الرادعة ، وأن يغيب الإسلام في هذه الأرجاء كلها حتى نشأ من نشأ من البنين والبنات وهي إلى الجحود أقرب منه إلى الإنسان

وحتى تفقد المجتمعات الإسلامية حمية الشعور والهدف ، وتتحلل من روابط العقيدة وأدب السلوك

ولكي يدرك القارئ مبلغ نجاح الاستعمار الأوروبي في ذلك ننقل إليه صورة من النشاط الصحفي في القاهرة عاصمة العروبة والإسلام !!

والصورة من مجلة آخر ساعة ، العدد الصادر في ٣١ / ٧ / ١٩٦٨

تحت عنوان « خداع » دعوة إلى الفساد ؟ نشرت المجلة رسالة لمكاتبها في لندن يقدم فيها المراسل للمجلة كل ما صدر هناك (عن الجنس والمجتمع)

وقد قرأت خلاصة وافية لهذا الكتاب القذر، تقدمها مجلة آخر ساعة لقرائها في معرض من البرود أو القبول، وفي إطار من الإغراء أو الدفاع

وتم هذا كله واليهود في بلادنا يطئونها دون محاذرة، ويصرفونها دون رد

تحت العنوان الماكر يقول الكاتب العربي المسلم «العالم على حافة فساد جنسي رهيب، ومع ذلك فصمام الأمان مازال في أيدينا

يمكننا أن نضغط عليه قليلا فينقذ العالم، وتتصدى هذه الثورة الجنسية التي تهدده

وفي سبيل هذا الهدف يجب علينا أن نتنازل عن بعض القيم والمبادئ الأخلاقية والمثل العليا !!

وبعد ذلك سترتاح نفوسنا ونعيش حياتنا في هدوء، ولن تهددنا أي ثورات جنسية في المستقبل

فأولا لكي نحقق كل ذلك يجب أن نترك لبناتنا شيئا من الحرية الجنسية، ونضع أعصابنا في ثلاجة فلا نثور ولا نغضب، أو نتحدث عن الشرف إذا اكتشفنا أنها ليست عذراء قبل الزواج !

شيء آخر يجب أن نفعله، إذا أردنا إنقاذ العالم من الثورة الجنسية التي تهدده، وهو أن نترك للزوجات أيضا الحرية الكاملة بعد الزواج، فلا نمانع، أو نعترض، أو حتى نعلق بأي كلمة إذا اكتشف أحدنا أن لزوجته عشيقا أو صديقا !

ومقابل ذلك يكون من حقنا نحن الرجال أن نفعل ما نشاء علنا بعد الزواج بعد أن كنا نفعله سرا

فكما تفعل الزوجة يمكننا نحن أيضا أن نفعل نفس الشيء

يقول الكاتب الغيور على دينه وشرفه وأمته (!!)

هذه الآراء الخطيرة قرأتها في كتاب صدر أخيرا في لندن بعنوان «الجنس والمجتمع، نظام جديد للعلاقات الجنسية» ومؤلفة الكتاب دكتورة «هيلين رايت» وهي من أشهر طبيبات النساء، وعمرها ثمانون عاما، ومازالت تمارس مهنتها حتى الآن !

وفي خضم ذلك فقد يهمك أن تعرف أنها مسيحية متدينة، وعملت مبشرة لمدة خمس سنوات في الصين لحساب الكنيسة الإنجليزية

وتؤكد « شيلي هايت » أنها ليست نادمة ولم تفعل في حياتها شيئاً يخالف تعاليم الدين، وأنها وضعت في كتابها هذا خلاصة تجربتها في عشرين سنة، وبعض حلول هذه السنوات التي عاشتها والتي ما تزال تعيشها

تقول: ويعلم من يقرأ كتابها وينظر فيه بتمعن أن كتابة هذه القصة التي تحكيها، فهي تروي قصة سيدة متزوجة جميلة وشابة لتزيد طربها للحظة يسمح بالعلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج

تقول هيت:

ذات يوم رأيت سيدة صغيرة وكانت مضطربة اضطراباً شديداً، لأنها أصبحت غير قادرة على الاستجابة لرغبات زوجها الجنسية بسبب الملل والمسئولية

وحدث أن هذه السيدة الصغيرة صادقت، ثم أصبحت عشيقته، وبعد فترة شعرت براحة نفسية، وبدأت تتجاوب مع زوجها تجاوباً كاملاً..!!

في أول الأمر شعرت بالذنب، ولكن زوجها لم يعرف بهذه العلاقة، وسعد سعادة كاملة بتجاوبها معه

وظل الحال على هذا المنوال حتى الآن، ولمدة ست سنوات! وعلاقتها بزوجها وحبيبها في منتهى القوة والجميع يعيشون في سعادة..!!

هكذا عرضت المجلة العربية ما يسمى بكون عمق العلاقة بين الرجل والنساء في منطق امرأة وضيعة، وإن زعمتها طبيبة ورائدة!!

وفي هذا المقال غرائب شتى نقف عند كل غريبة منها لحظات

أولى هذه الغرائب: عنوانه الأول منه: « العالم على حافة فساد جنسي رهيب »!! فما الوقاية من هذا الفساد المحذور، وكيف ندفع شره عن العالم؟؟

العلاج هو إباحة الزنا لكل امرأة تزوجت أم لم تتزوج، وإباحته للرجل تزوج أم لم يتزوج..!!

إذا لم نفعل هذا وقع العالم في فساد جنسي رهيب!!

ويتساءل أولو الألباب: أي فساد سيقع العالم بعد هذا الانطلاق الفاجر الداعر؟!

ويتحولون عند رجال الفضلاء المشرفين على تحرير مجلة « آخر ساعة »؟!

وغريبة ثانية في هذا الكلام هو وصف الكاتبة بأنها سيدة واضحة شغلت مشرفة في عضوين حسب تكييفه لتجربته، وأنها لا تعمل ما يخالف الدين

والمدهش في سلوك هذه المرأة أنها ترحب بالجريمة بل وترحب بها ، وأنها ترضى بها في بيتها كما ترضى بها في بيوت الآخرين !

ومعنى وصف هذه المرأة بالمدهش ، شر ائع السماء لا ترى في ذلك عملا فاحشا ، وأن الرماة من الحسين هم صالحون !!

أو كما يقول الأستاذ يوسف السباعي رئيس التحرير في سويته مع الجسد الإنساني والارتزاق من متعته الحرام « صاحب ماكينة الطحن وصاحب عربة التاكسي يتعاملان بما يملكان ، وأنا كذلك مثل ماكينة طحين أو عربة تاكسي لتعامل بهما مع الناس ، ولكنك ما مسكينة لا تملكين غير هذا الجسد وسيلة للتعامل » !!

هكذا يجري منطق السباعي على لسان إحدى المومسات في رواية « نحن لا نزرع الشوك » .

وهي رواية قدره سبع قصولها نشرت في الصحافة العربية الشهيرة

ونحن نعلم أن بعض الناس تعشر أعلب أوقاته في شكه « المحترق »

ويبدو أن بعض الأدباء أمل الحياة في محترق المجتمع ومسار به السفلى

والمدهش أنه يريد جر الآخرين إلى مستواه الحقير

أو أنه يريد نقل روائحه النتنة إلى ظاهر الحياة محاولا طمس ما استبقاه من حدائق ، وما فاح منها من عطور

كذلك يصنع كتاب الجنس في بلادنا وفي أكثر أقطار الدنيا

والغريبة ثالثة في المقال المنشور به « رسالة لندن إلى الصحافة »

في هذه الأيام العجاف ، والعرب حائرون على أقدامهم منهم ما وهم الآلاف وسيرد الهزيمة بكسو وجوه الأفراس والمغاوير ! والعالم أجمع ينظر شزرا إلى الكثرة الممسوخة أمام سلالة القردة والخنازير !

في هذه الأيام العجاف قد نرسل أحد صحافتنا إلى لندن ، ليدافع عن قضايانا المحدودة ، أو ليحطم محاولات بني سرائيل ، وليحتوي بالتحديد في ميادين العلم والصناعة أو ليرشدوا أبناء جنسهم إلى تجربة نافعة أو كشف مفيد

لكن الرسالة التي تجيء من لندن لتقرأ الناس في القاهرة المهزومة ، وللعرب العرب الكاسفي البال في كل مكان هي هذا اللغو الحقير

والغريبة أن هذا الذي نشره ذات صباح يوم ، هو نفسه الذي نشره دار الهلال

يسمون ذي النفوذ، وهو الذي تدور من حوله روز اليوسف، وهو الذي تبنته جريدة الأهرام عندما استقدمت جان بول سارتر وعشيقته وفرضتهما فرضا على الحياة العامة في بلادنا . .

فما سر هذا التلاقي؟ ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾[1]

الواقع أن المنبع الذي يستقي منه هؤلاء كلهم واحد، والوجهة التي يتجهون إليها، ويشدون العرب معهم نحوها معروفة . . !

إنها الانسلاخ التام من الإسلام كتابا وسنة، ومن الماضي العربي للأمة، والتقبل الصغير لماديات الغرب المنحل، وليكن ما يكون !!

وعربة خامسة لقد قيل إن صوت المعركة يجب أن يعلو كل شيء، وألا يزاحمه في ضمائر الناس وأفكارهم شيء

فأين صوت المعركة في هذا السفه الفاشي وهذا الذهول العابث ؟

كأن هناك مؤامرة على خنق هذا الصوت، وجعله أنين امرئ محتضر، أو همس الضمير المهزوم في صدر مجرم أثيم . . !

أين صوت المعركة في هذا الهرب المغري بالعصيان، والجرأة على الله، ونسيان الفضائل والولوع بالملذات

عندما هزم المشركون في بدر، قالت امرأة أبي سفيان: لا أمس طيبا حتى أدرك ثأري من محمد.

وتملك المرأة جنون الثأر فعافت المتع الحلال وصدت عن اللهو والتسلية

وما أرضاها إلا أن تجيء في غزوة أحد تلوك كبد حمزة بعد مقتله، تنفيسا عن حقدها بما أصاب قومها

أريد من رجال صحافتنا أن يكونوا كهذه المرأة في الشعور بمرارة الهزيمة وضرورة الثأر

إنهم مستلبون غفاة لا يرون مصابنا، ولا يحسون الحسرة لما نزل بنا

وهم الآن يقومون بعمل خبيث هو تدويخ الأمة، وتسليتها، وبعثرة أفكارها، وإضعاف أعصابها

---

(١) الذاريات ٥٢

ومن المستفيد من هذا كله ؟ الصهيونية والاستعمار !!

وغريبة سادسة ، أو حقيقة سادسة وأخيرة هي

هل هؤلاء الكتاب مسلمون عرب ؟ لا ، فلا هم عرب ولا هم مسلمون !

لقد سحب الاحتلال الأجنبي جيوشه بعد أن صنع ورثة الأمساخ وفق مواصفات ترضى صنعه على الإسلام وتملأ بالضباب حاضره ومستقبله

انسحب تاركا أزمة الأمور بين هذه الأيدي الشريرة ، فنال من ديننا وأمتنا ، أكثر مما نال هو ، ونلحق بنا أشنع مما ألحق هو !!

فهل نتحرر ونحن من الأثقال التي أدت ظهورنا ، وأعجزت خطونا ؟ اللهم ، لا

حتى ينقرض هذا الصنف الملوث من عبيد الغزو الثقافي المنتشرين في كل مكان والذي تمتلئ بهم شتى وسائل الإعلام

* * *

بواعث الحقد على لغتنا

اهتمامي باللغة العربية ناشئ عن اهتمامي بالإسلام نفسه، والوان الهجوم عليه، وضروب التقصير في خدمته، وهذا الاهتمام قد يجعلني أعمل النظر في أشياء قد تبدو مستغربة لأول وهلة. أجل، ربما عجب القارئ عندما يعلم أني أقرأ ما يسمونه الشعر المرسل، وأتعرف نبضات الفكر الحديث في كلماته المنثورة من هنا وهناك

ومن بين القصائد التي استوقفتني هذه القصيدة التي نشرتها الأهرام للشاعر محمد الفيتوري، أنقلها هنا على استحياء، لأن نسبة هذه الأنماط شعراً كنسبة الخصي رجالاً، أو المطعم جوهراً، أو المموه بلوراً على نحو ما تصنع الباعة الجائلون في أزقة القاهرة!

نار خطايانا

تسيل في جبيننا

فلنتكئ على عظام موتانا

ولنصمت الآنا

برج كنيسة قديمة وراهب قس

ونغمة بين قدميه وتعثر الأنثى

ورجل بلا عنق

وفتاة على الرصيف تصلي

وقطة في منعطف مسمم مسحوق

وصوت ناقوس يدق

يرسم دورة على الفضاء، ويدق . إلخ

وبعض من صنعت الأحلام التي يبعث إلى جوف هذا الكلام المفكك

وبعض من يقطع الروابط الحقيقية بين هذه الأنماط التصعيدية، فهي كما قيل سمك، لبن، تمر هندي

ولكن الشيء الذي لا يدعه، والذي يشير إلى هلاك حتمي، هو جرائم الاستعمار الثقافي، أو الغزو الصليبي الذي سيطر على هذا الشاعر الهائم

فهو في القاهرة المدينة المعروفة بشمسها الصاحية، ومآذنها السامقة، وصبغتها الإسلامية الأولى

ولكن التبعية الفكرية والنفسية الغالبة على هذا الشخص بالذات، جعلته لا يرى إلا الغيوم وأبراج الكنائس والرهبان القلقين، ورنين النواقيس، وكأنه في لندن أو روما لا في مصر !!

إن هذا لا يستغرب من مثل الألوف من خلق مسختهم التبعية للتحرر الجديد من ماضيهم وحاضرهم فهم يعرفون كل شيء إلا دينهم ولغتهم وقومهم.

ولست أكتب هذا الكلام نقدا للشعر المرسل، فالأمر أتفه من ذلك !!

ولكني أشرح الأحوال النفسية والفكرية للمحصلة المتكاملة ضد اللغة العربية وقضاياها في شتى الميادين

إنني قلق على مستقبل لغتنا ومنتبه للمؤامرات الخفية والمشروعات الخبيثة التي تستهدف إماتة هذه اللغة حتى بعد جعلها لغة ثانوية في مجالات العلوم والصناعات، وفي مجالات الحديث العام والخطابة الرسمية

والقضاء على العربية مخطط تبشيري مدروس بعناية وينفذ بتؤدة وإصرار، وقد بدأ هجوم على الحروف العربية التي تكتب بها بعض اللغات الإسلامية، وأمكن خلال الخمسين السنة الأخيرة إماتة هذه الحروف في إندونيسيا وماليزيا وتركيا ونيجيريا وغيرها

وذلك حتى تنقطع العلاقة بالمؤلفات الدينية التي كتبها الأسلاف خلال ألف سنة

ونجحت هذه الحركة، ونشأت الناشئة المسلمة في عشرات السنين الأخيرة، وهي لا تحسن قراءة كتب الآباء، أي نشأت جاهلة بدينها، متجهمة لثقافته

وإذا علمت أن اللغة السواحلية، ولغة الهوسا وهما لغتا الشعوب في نيجيريا وما يليها، هما لهجات عربية وأن أكثر الكلمات منقولة عن لغتنا عرفت أي خسار لحق بالإسلام من شاطئ المحيط الهادي إلى الهندي إلى الأطلسي

وقد طمع الاستعمار في هذا النجاح الذي أصابه غنيمة باردة، فحاول أن يلغي الحروف العربية في مصر نفسها، وحمل لواء هذا الارتداد عبد العزيز فهمي باشا رئيس محكمة النقض والإبرام، وهو عضو هيئة قضائية في البلاد، ولكن الله سلم فسحقت الفتنة في مهدها

بيد أن الاستعمار لم ييأس من بلوغ مآربه فشرع يقص أطراف العربية بصور شتى، ويجعل النطق بها عورة!

وسخر بعض الحكام في الدواوين وبعض الممثلين في المسرح، ليوصلوه إلى ما يبغي

فإن المواطن الآن يذهب إلى طبيبه في حي السيدة زينب مثلا، فيخرج من عنده بورقة قد كتب عليها بالإنجليزية دو ؤه، رد ؤه، وكأنه يعيش في روديسيا، أو في جنوب إفريقيا، ولا أقول في لندن أو واشنطن!!

وربة لست في سنها وصاحب العمل في مصنعه لا يعرفون إلا مئات وألوف الأسماء والمصطلحات العربية، لأن العربية معزولة عزلا عن هذه الآفاق..!

وبدهي أن قتل اللغة العربية قضاء على الإسلام نفسه، وإهدار للمنابع التي ينبجس منها، ويسيل في المشارق والمغارب..!

وقد نشطت المقاومة الإسلامية لهذا المصير الهائل، وبين يدي الآن نداء لأخ كريم من رجالات التعليم يصرح فيه بضرورة تعريب التعليم كله ويقول:

«إنه لا توجد أمة حرة في العالم كله تمارس العلم بلغة أجنبية

ولو استعرضنا أمم أوروبا وأمريكا جميعها، وكذلك الأمم الحرة المستقلة في آسيا كاليابان والصين وتركيا والشعبين العربيين سوريا والعراق، لما وجدنا أمة تتداول العلم بلغة غير لغتها

فقد نقلت الأمم المختلفة العلم إلى لغاتها لتيسره لأبنائها، ولتصير العلوم من أهم دعائم ثقافتها، ومقومات حضارتها وتاريخها، ولكي يحيا العلم في الأمة وتحيا الأمة بالعلم

ولذلك سمي عصر نقل العلوم إلى اللغات القومية بأوروبا «عصر إحياء العلوم» كما سمي أيضا «عصر النهضة، والثورة العلمية»

ثم إن لغة الأمة هي لواؤها الذي ترفعه في محافل الحضارة والمعرفة، فإن حرمنا

هذا النوع من بعض العلوم كان لواء مدعيه ضعف يدل على التأخر أكثر مما يدل على الرفعة.

ولقد كان تدريس العلوم كلها يتم بالعربية منذ عهد محمد علي حتى جاء الاحتلال المشئوم، فأصدر الإنجليز قرارا سنة ١٨٨٩ يرغمون فيه المصريين على أن يتعلموا باللغة الإنجليزية، بدلا من اللغة العربية.

وذلك لتحقيق أهداف استعمارية قاسية.

منها قصر التعليم على طائفة خاصة وطبقة معينة، تدين لهم بالولاء وتتولى الوظائف الحكومية.

ومنها إضعاف الروح القومية بين المتعلمين، لأن اللغة الأجنبية التي يتعلم بها المرء، تؤثر في عقليته، وتفكيره، وتوجه ولاءه توجيها بعيدا عن أهداف أمته، مما يمكن للاستعمار في النفوس والقلوب.

لذلك قاوم المصريون المخلصون هذا القرار الاستعماري الغاشم واستطاع رجال القانون أن يمنعوا تنفيذه في مدرسة الحقوق فظل القانون بلغتنا لم يمسه سوء[1].

ولما تولى سعد زغلول نظارة المعارف سنة ١٩٠٦ أصدر قرارا قوميا، يلغي القرار الاستعماري السابق، ويقضي بتعريب التعليم في جميع المراحل التعليمية.

ولكن الإنجليز حاربوا تعريب التعليم بكل قواهم حتى إنهم أخرجوا سعدا من نظارة المعارف، إذ رأوه مصرا على التعريب.

ثم استطاع الزعيم الوطني طلعت حرب أن يعرب علوم المال حين أنشأ بنك مصر.

ولما جاءت حكومة الثورة ودرست هذه المسألة، واطلعت على نظم التعليم في العالم كله، لم تتمهل أن أصدرت قرارا يقضي بتعريب ما بقي من التعليم الجامعي، وبدأ تنفيذ القرار، وسار التعريب بطيئا حتى تم تعريب مقرر عامين دراسيين، ولو ظل التعريب على هذا المنوال لتم الآن تعريب كل شيء.

ولكن التحزب[2] المتعلق باللغة الإنجليزية المناوئ لحركة التعريب، انتصر أخيرا فأرجع إلى لغة الإنجليز السيادة في الجامعة، وتم إبعاد لغتنا عن هذه الكليات، كما أبعدها الإنجليز عن التعليم بقرار سنة ١٨٨٩، وذلك رغم قرار التعريب الذي صدر،

---

(١) نعم، ظل عربي اللغة ولكنه أجنبي الموضوع.

(٢) إن هذا الحزب الذي يتمسك باللغة الإنجليزية وحدها، إنه كاره للإسلام وما يتصل به من قرب أو بعد.

ونعلم أن نقل العلوم إلى لغة الأمة هو الأمر الطبيعي الفطري، الدال على تمام الاستقلال، وكمال الحرية وسيادة الأمة سيادة حقيقية في كل شئونها، ونعلم أن بقاء العلم باللغة الأجنبية في أية أمة من الأمم دليل تبعيتها لغيرها وهو بصمة الاستعمار الباقية على جبينها.

وقد ألفت كتب ومراجع عربية في المقادير التي تم تعريبها حديثا، فألفت كتب في الطب والهندسة والكيمياء والزراعة وغيرها، واستطاع ثلاثة أعضاء من المجمع اللغوي ترجمة الموسوعة الطبية الأمريكية وهي موسوعة قيمة تقع في اثني عشر جزءا.

ولكن هذه الحركة العلمية التأليفية وقفت الآن بوقوف التعريب في الجامعة، وهذا دون شك خسارة كبرى تصيب الأمة في حضارتها وثقافتها وفي كيانها العلمي والفكري.

من أجل ذلك وغيره مما لا يتسع المجال لذكره، يمكن أن تتدارك الدولة هذا الأمر الخطير قبل فوات الأوان، فتكلف لجانا متخصصة في كل علم بتتميم تعريبه، والتأليف فيه وترجمة كل ما يستجد من نظريات ومبتكرات أولا فأولا فذلك من أهم عوامل تقدم الأمة ورقيها.

والذين يستطيعون التعريب كثيرون، منهم:

١ - أساتذة الجامعات.

٢ - أساتذة جامعة الأزهر.

٣ - علماء المجمع اللغوي.

٤ - العاملون في الوزارات والمصالح كأطباء الصحة والمهندسين ورجال التربية والتعليم.

ولا شك في أن تعريب العلوم من مقومات المعركة الحالية، ومن عوامل الإعداد لها، لما تحققه، فإن ذلك هو الطريق السوي إلى توحيد المشاعر، وتمكين الولاء للقومية في النفوس، كما أنه السبيل إلى جعل العلم مفتوحا للمجتمع، ميسرا للجميع، فيستطيع أن ينتفع به العامل في المصانع والفلاح، ويستفيد منه أبناء الأمة جميعهم تقدما في عملهم وفهما لإمكاناتهم.

ثم إن هذا هو الطريق الاشتراكي في العلم الذي سارت عليه كل الأمم الحرة المتقدمة.

وإلا فكيف تتحقق الاشتراكية نعلم مع بقائه في تلك الأطر المولدة التي فرضها علينا الاستعمار تحقيقا لأهدافه الهدامة

وليس تعريب العلوم ضعفا ولا عسيرا، إنه ميسور للغاية، حيث الأكثر للدفع للأمة

بل هو الوسيلة الفريدة لاستقلالها السياسي وقدرتها على أداء رسالتها العظيمة هنا وهناك

فهل يصدر قرار حاسم كهذا الذي أصدره سعد زغلول من ستين سنة ؟

* * *

قرأت هذا المنشور الذي كتبه رجل عنوانه على المرونة والإسلام، رتبيت فكرته لأني أبصر ما فيها من سداد، وما ينتج عنها من خير

ولأني أعرف أنها صحيحة ستدهش الذين ما لم يدركها بعض المختصون

لكن هل سيحتفي بها سدنة القومية عندنا ؟

لا .. لأنهم دعاة عامية، وحراس سفينة الفكرية ولغة الأوربا وبانقسام الشرقي والغربي .. !!

* * *

تفتيت الحقيقة بداية التحول عنها

أصاب جهاز «الكمبيوتر» عندي عطل مبهم فلم تظهر الصورة مرتبة. ونظرت إلى الجهاز الجاثم في مكانه لا يوحي عمقه بطرف من تغيرات! وتحسسته بدقة فخيل إلي أنه لا ينقص شيئا من آلاته الجلية والخفية

وحضر خبير من المتخصصين في إصلاحه، واستبدل بجزء تالف منه جزءا صحيحا، واستأنف الجهاز عمله، وشرع يحقق الفائدة المرجوة منه!!

وقلت في نفسي: إن الجهاز كله توقف عن أداء رسالته حتى تعاونت أجزاؤه الصغار والكبار على تحقيق وظائفها المنوطة بها!!

ولا عجب فقد توقفت سيارة عن السير لعطب لحقها في مقدمتها أو مؤخرتها

وقد يتعطل مصنع عن الإنتاج يكلف إنشاؤه الألوف أو مئات الألوف من الجنيهات لأنه يفتقر إلى تكملة لا تساوي مائة جنيه

وهكذا شئون الحياة المادية والأدبية قد يصيبها عطل فادح لأن شطرها أو بعضها موجود، وبقيتها الأخرى مفقودة عن خطأ أو تعمد

ومن ثم قد نرى أمامنا أشياء صحيحة، ولكنها قليلة الجدوى لأنها متفرقة، ولن تتم قيمتها وتبرز ثمرتها إلا إذا ذهبت إليها جيئة منها وما يكملها، وعندئذ ينطلق التيار في دائرته المغلقة فيسطع النور.

إن تعاليم الإسلام كذلك، لا تصلح لحياة ولا تقوم مجتمعات إلا على النحو الذي شرحنا

وعناصره وحي تشبه عقاقير الأدوية لا يتم الشفاء بها إلا إذا أخذت كما جاءت

أما إذا طرحنا عقارا، وتناولنا آخر فلن يذهب لنا سقام

وقد وجدت أن كثيرا من غير المسلمين الفكرية لنفسه، بل عليهم لا تتصادمة والسياسية ترجع إلى أنهم يحذفون مع بعض النصوص ويهزلون مع بعضها الآخر، فلا يحصلون من هذا التنقيص إلا ضياع النصوص كلها !.

ولا يجدون من النصوص التي عملوا بها - فيما يزعمون - شيئا مثلا !

لأن وجودها المنقوص في المجتمع كوجود جهاز التفريق؟ لدى سقف لك خير عنده أول هذا المقال

تأمل معي هذا الحكم الشرعي في فرع من فروع الفقه الإسلامي

يقول الله تعالى: **﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾** (١)

إلى هنا يمكن تقدير الحكم التشريعي في شأن بعض مشكلات الأسرة، وربما لا يشغل العلماء أنفسهم عند تقرير الحكم بأبعد من ذلك عند تقرير النص

أفهذا ما فعل القرآن الكريم؟ لا، بل أعقب ذلك بخمس جمل تتضمن قوة من النصح والتأديب والتربية يصنع المجتمع بأصابعه

فقال جل شأنه

(١) - **﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾**

(٢) - **﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾**

(٣) **﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾**

(٤) **﴿ واتقوا الله ﴾**

(٥) - **﴿ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾** (٢)

وعندما يوجد في بلاد أحكام الطلاق ولا توجد معها بقية المعاني التي صاحبتها في هذه الآية فسوف يلعب بكتاب الله، ولن تزيد الأمة إلا خبالا !!

خذ مثلا آخر، لقد نهى الإسلام عن السرقة وأمر بقطع يد السارق، ولكن هذا الحد من حدود الإسلام يكون حمى ومركزه مع إخوته أو من أمثاله كلها وإقامة شعب الإيمان الكثيرة التي تسد كل ثغرة وتمنع أي عمل، وبعد ذلك تأتي العقوبة والحدود عند المعصي، وقد تأتي النهب والخطف والسرقة عند البعض الآخر

---

(١) البقرة ٢٣١ (٢) البقرة ٢٣١

أما مع وضع كل رقابة على طرق الاكتساب وإتاحة الثراء من شتى الوجوه الحرام، ويقع الضعاف في عمايات النساء والضراء، فالأمر يحتاج إلى نظر في التطبيق.

ومعاذ الله أن نتريث في إقامة حد من حدود الله، ولكن نقول مقالة الحسن، وقد رأى الشرطة تقبض على صغار السُّراق: سارق السر يسعى به إلى سارق العلانية!!

وما كذلك دين الله.

وسمعت متحدثا في الدين يذكر أنه لا حدود للمهور، ويستشهد بقصة المرأة التي اعترضت عمر بن الخطاب لما أراد تقييد المهور.

والقصة صحيحة، ولكن المتحدث سيئ الفقه في الإسلام ضعيف الشعور بمآسي المسلمين اليوم..!

إن الجمهرة من الشباب أُمِرت أن تقضي صدر عمرها، ولا أقول شطره، في التلوث الجنسي والانحراف الشائن، وكل تعسير للحلال ستتبعه حتما تيسير الحرام.

فكيف يبقى فقيه رأيه تهوين هذه المحن، أو إقرار ما يؤدي إليها بسفه؟؟

إن قصة عمر مع المرأة المعترضة تفهم في جو كان الرجل يستطيع فيه الزواج مثنى وثلاث ورباع، وكان الحرام فيه نادرة أو استثناء من قاعدة عامة.

أما اليوم فإن العرف السائد بين جماهير المسلمين في الزواج والمهور والهدايا، لا صلة له بتقوى الله، ولا بإشاعة الاستعفاف، ولا إقرار الطهر النفسي والطهر الاجتماعي.

إنه عرف يقوم في جملته على رذائل الرياء والكبرياء، ويرجع سر كثيره إلى الانتفاخ والتعاظم.

إن الإسلام كل لا يتجزأ، والشبكة التي تنسج تعاليمه تفقد جدواها عندما تخرق من جانب واحد، فكيف إذا تعددت فيها الخروق، ونفذ منها الإيمان وتلف؟؟

والواقع أن هجر بعض الأحكام الإسلامية، وإتلاف بعضها الآخر هدم لمبدأ السمع والطاعة المأخوذ على جماعة المؤمنين.

فإن تقسيم الوحي الإلهي على هذا النحو لا يعدو أن يكون تحكيما للهوى الشخصي فيما ورد. فما أعجبنا قبلناه وما لم يعجبنا رفضناه.

وهذا قريب من مسلك المشركين أنفسهم مع رسول الله، فإنهم لم يردوا كل ما

جاء به، بل وقفوه على البعض، وجاوزوه على البعض الآخر، وتمسك أمره الله بالثبات على الكل وقال: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ (١)

واتباع الهوى في استبقاء حكم واطراح آخر معناه أن المستبقي ليس لأن الله أمر به!

فقد أمر بغيره كذلك، فلماذا ترك؟

معناه أن المستبقي ظفر بالحياة لأنه أرضى رغباته فقط

ولو صدمها لطوح به هو الآخر.

وقد نبه القرآن الكريم إلى أن فساد بني إسرائيل نشأ مع هذا العوج فقد أخذت عليهم المواثيق بأمور شتى، ففعلوا بعضها ونسوا بعضها، لأنهم يتصرفون وفق شهواتهم، ولا يرتبطون بأمر الله ونهيه!!

فكان التعقيب الإلهي على هذا السلوك: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾ (٢)

والأمة الإسلامية اليوم موزعة على عشرات الدول، وأمر الإسلام في كل دولة منها يستحق الدراسة، ويؤسفني أن أقول إنني لم أره مكتمل الشكل والموضوع في قطر من الأقطار الفسيحة.

هناك مجتمعات لا تعرف بالحدود والقصاص، ومجتمعات لا تعترف بسائر الحريات والحقوق، ومجتمعات لا تعترف بالحلال والحرام، وأخرى تترك الصلاة والصيام وأخرى... إلخ

وأعداء الإسلام كلما رأوا جرحًا منه أصابه شيء، سارعوا بالمخلب الماكر ليزيدوا الطين بلة، أو ليزيدوا المريض علة.

ونحن ننصح بأن يتأمل المسلمون المعرضون أن يرجعوا إلى دينهم كله، لا يدعون منه شيئًا، ولا مرغوبًا في جانب، ولا يأذنون لعدو مسرف، ولا لصديق جاهل أن يصرفهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، فذلك وحده طريق العصمة والأمن.

---

(١) هود ١٢ (٢) البقرة ٨٥

إن شعب الإيمان التي تبلغ السبعين موزعة توزيعاً دقيقاً على الدائرة الرحبة التي تمتد إليها وظيفة الإيمان وتنتشر فيها أشعته.

ولما كان للإسلام علاقة تشمل النفس والمجتمع والدولة وشؤون المعاش والمعاد في إطار من معرفة الله ورقابته فإن تعاليمه تشبه شبكة الأعصاب المبسوطة في الكيان الإنساني كله لا تخلو منها حتة بين الرأس والقدم.

قال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾(1).

ومن الخطأ تصنيف تعاليم الإسلام على أسس فنية، وتصور أن بعضها يقوى وينمو، في حين بعضها الآخر يذبل ويذوي.

إن ذلك قد يجوز في عالم الدراسات النظرية حيث ينجح الطالب في مادة ويرسب في أخرى لأنه استوعب الأولى وأهمل الثانية.

أما في المجتمع الكبير فإن اختلال عنصر الإسلام ينقل العلة إلى البعض الآخر على عجل أو على مهل، من ثم يمتنع الاستشفاء والتصوف وإنفاذ أوامره في كل مجال.

فضعف العقيدة مثلاً ليس يتوقف أثره الرديء في صلة المسلم بربه بل يتعدى ذلك إلى موقف الفرد من الجماعة، وموقف الدولة من العالم أجمع.

وترك الصلاة ليس معصية خاصة فقط بل هو ذريعة إلى انهيار الأخلاق وانتشار الآثام.

وإهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس فتوراً في عاطفة التدين فقط، ولكنه آية على موت الضمير الاجتماعي وتلاشي رسالة الأمة.

والاستعمار الحديث في حملته على الإسلام لا يقوم بهجوم شامل على كل شيء، إنه أذكى من ذلك وأدهى.

إنه يقتصر على إماتة بعض التعاليم أو تشويهها ثم يدع الباقي عالماً أن ما بقي سيتبع ما أخذ.

ترى هل سنخدع عن ديننا أم ندافع عن كل ذرة منه؟

* * *

(1) - النحل 89.

جهاد الغرباء

كان المد الإسلامي يتدحرج خلال العصور الأخيرة بفساد الحكام، وعجز العلماء، وذهول الأمة جمعاء عن وظيفتها ورسالتها!

ولكن تسجيل هذه الهزائم ولا أعرف سابقة لها لم يقع إلا منذ خمسين سنة تقريبا، فقد انسحبت الجامعة الإسلامية من الميدان العالمي بعد تنكيس راية الخلافة، وأخذت الثقافة الإسلامية بعدها تضمحل..!

لقد كانت هذه الثقافة راجحة في الماضي، ثم توقفت مكانها أمام خصومها، ثم تراجعت وانكمشت أمام مهاجميها، وتركت وراءها فراغا تملؤه الثقافة الأجنبية والأفكار الدخيلة.

وفي رسالة وجيزة عن الأدب والحياة قرأت هذه السطور:

«هزمت الفكرة الإسلامية في الحرب العالمية الأولى، ثم انتهت دولة الخلافة بعد ذلك بقليل، وبرز دعاة الحضارة الأوروبية يروجونها سافرة، ولقيت دعوتهم رواجا، خاصة عند الشباب الذي عاش في جو الثورة المصرية المتمرد على كل قديم، والذي وجد في بريق الحضارة الأوروبية ما ينادي شهوته إلى مواطن الهوى. فأخذ يشترك في المجتمعات المختلطة، وأقبل على تعلم الرقص الغربي، ويدفع نفسه للمشاركة في أحفال الأوروبيين أيام الآحاد، ويرقص ليلة الميلادية خصوصا في المدن الكبيرة كالإسكندرية والقاهرة حيث كانت تحتل الجاليات الأجنبية مكانا بارزا في الهيئة الاجتماعية، بما تملكه من مصانع ومتاجر وفنادق، وبما بها من معاهد وأندية، وبما كانت تكفله لها الامتيازات الأجنبية من مزايا.

وتردى الناس في حمى التقليد للأجانب في كل شيء، في مسكنهم وفي طريقة حياتهم وفي كلامهم وملبسهم.

وأصبح الرجل يفخر بأن أخذ في ذلك، ولا يخجل بأن يجهل أمور دينه ويجهل لغته أو عشت الدنيا تقاليده»

يقول الدكتور طه حسين بعد أن يسرد ما اقتبسته مصر من نظم الغرب في مختلف

مظاهر حياتها الحديثة - ودعت في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» : وإني لأتخيل داعيا يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التي ورثوها عن آبائهم في عهد الفراعنة، أو في عهد اليونان والرومان وفي عصرها الإسلامي، أتخيل هذا الداعي وأسأل نفسي، أتراه يجد من يسمع له؟ فلا أرى إلا جوابا واحدا يتمثل أمامي، من مصدر من أعماق نفسي، وهو أن هذا الداعي إن وجد لم يجد بين المصريين إلا من يسخر منه ويهزأ به!

هكذا يقول الدكتور الأوروبي الثقافة والوجهة !!

وهو في مقالته السالفة يرى الدعوة إلى الحياة الإسلامية مدعاة إلى الهزء والسخرية، ثم هو يضم العصر الإسلامي إلى عهود اليونان والرومان والفراعنة الأقدمين أي إلى العهود التي بادت وانقضى أهلها ولا سبيل إلى بعثها.

وهذا الكلام المحصور هو قرة عين الاستعمار، وهو ما يبذل من أجله الجدد جهودا مضنية لإشاعته، وإقناع الجماهير به حتى لا يكون إسلام، ولا مسلمون.

لكن الأمة الإسلامية في المشرق والمغرب قاومت هذه وأخزاهم !!

ومع أن لا نزال ضعافا في جهات شتى. ومع أن وساوس الجريمة لا تزال تعمل في أفئدة خصومنا، ومع أن المخلصين لديهم تحملوا مغارم فادحة وهم يدافعون عنه، ومع ذلك كله فإن الواقفين بجانب الإسلام صامدون ملوف.

وهذا التفطن الذي تمتعت به الأمة الإسلامية يشرف من يصف قوة وهم يستنسر بها الرهط ساسيا وثقافيا بإذن الله.

وأولى بشائر الخير أن جماهير المسلمين لم تزهد في دينها، ولا استرابت في نبل مبادئه وصدقه، ولا هي خدعت بالأديان والمبادئ الأخرى فحسبتها أزكى مما لديها، إن الأمر - في الإسلام وغيره - كما قيل:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى، مستقيم وأعوج !!

والمعركة تزداد على الأيام حدة، وبقدر ما يلقى المسلمون من صلابة ينمو نشاط خصومهم وتتسع دائرة هجومهم.

بل إن القوى المتناقضة تنسى ما بينهما - ولو إلى حين - لتستطيع إصابة الإسلام في مقاتله، وقص الأنصار المتحمسين عنه.

وذلك يكشف عما يتعرض له المجاهدون الصادقون من متاعب وحرمان، على أنا لن نخون الله ورسوله ما حيينا، حتى نورث الإسلام أبناءنا كما ورثناه عن آبائنا.

من حتى نمسح آثار الهزائم الساحقة التي لحقت به في غير ميدان.

وقد شكا لي صديق من ملقاه العاملون للإسلام من غمط وهوان، فإنهم يتجاهلون في حياتهم، وتسحب عليهم أذيال النسيان بعد مماتهم.

فمحمد فريد وجدي صاحب دائرة المعارف الإسلامية ورئيس تحرير مجلة الأزهر، والأستاذ محمد الخضر حسين الإمام الورع والأديب والمؤلف، والشيخ محمد عبد الله، والشيخ عبد الوهاب خلاف و .. و .. و ..

هؤلاء تجاهلتهم الصحافة الرسمية، وطويت ذكراهم في الوقت الذي تفرد فيه لتكريم ذكرى سيد درويش وزكريا أحمد وأضرابهما ممن برزوا في ميادين التسلية واللهو والغناء والموسيقا.

قلت لصديقي: إن المجتمع الذي يزدري أبا حنيفة ويكرم أبا نواس مجتمع تافه!

ولكن هذا المجتمع هو الذي صنعه الغزو الثقافي ليحقر أماثله الإسلامية، فشب وهي مرخصة للحق معيبة للفضل، صادة عن الإيمان، عاشقة للسهرات، مستهينة برجال المعرفة الإسلامية، معظمة للأغرار أو العاملين في أية معرفة أخرى.

وقد مات منذ فترة العلامة محمد فؤاد عبد الباقي فما شعر بمماته أحد ولا تحدثت عنه في مصر صحيفة، وهو الرجل الذي ألف المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث، وقد طبعت منه هولندا ٤ أجزاء حتى وفاته، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، وموطأ مالك، وعشرات من البحوث والمقالات.

وقد كف بصر الرجل الكبير وهو يخدم الثقافة الإسلامية، فلما مات أهيل عليه التراب في صمت، ومضى لا يلوي على شيء.

ومشيت بنفسي في جنازة المجاهد الدكتور صالح حرب «باشا» ولو شئت أن أعد المشيعين لجثمان الراحل الطيب لعددتهم.

إن عشرات السنين في خدمة الإسلام نسيتها القاهرة السكرى من غير خمر، المشغولة بغير شيء، الشاردة في الحياة لا تعرف لها وجهة!!

والأروع أن العاملين لله لا يعنيهم أي نسيان لهم، ومن نشاط هممهم أن يجحدوا الإنكار والازورار، فإن مشاعرهم موجهة لله وحده، وتطلعهم إلى ثوابه الدائم هو غرضهم الأعلى.

ولكني سقت ما قصصت من عقوق، لما في ذلك من دلالة على سقوط المجتمع، وهبوط قيمه، ورواج الباطل فيه، ووحشة الحق بين أهليه..!!

وإذا كان المجاهدون للإسلام في مجالات الثقافة يلقون هذه الجهامة، فهم في مجالات الحكم لا يستطيعون أن يضعوا قدما !!

ذلك أن العداوات العالمية الرهيبة في هذا الحين استطاعت بوسائلها الباطنة والظاهرة أن تملأ هذا الطريق بالضحايا.

ولقد تساءلت. لماذا قتل «عدنان مندريس» في تركيا ؟

فقيل لي: إن الجريمة التي استحق بها الشنق محاولته الخفية أن يعود بتركيا إلى الإسلام !

وقد بدأ ذلك في إعادته الأذان باللغة العربية في المساجد

إن اليوم الذي سمع فيه الأتراك كلمة «الله أكبر» تشق أجواء الفضاء من ذرى المآذن كان يوما مشهودا، وبلغ حينئذ بمشاعر الناس في السكك، أن الدموع غلبتهم، وصرخات الإيمان والاستبشار عمتهم.

فهل تدع الصهيونية العالمية هذا الجرم يمر من غير عقاب ؟؟

وكذلك كان مقتل الزعيمين الإفريقيين المسلمين أحمدو بللو، وأبي بكر بلاوة

إن الجريمة التي استحقا بها القتل هي سيرهما بالإسلام في وسط إفريقيا سيرا حثيثا عملا متينا

كيف يسكت خصوم الإسلام على ذلك ؟

وقتل الرجلان وعشرات الألوف في مجزرة أعقبها صمت مفتعل مقصود

ولكن الله العدل تبع الفتنة بالقصاص، وبعد عشرين شهرا والدماء تراق بغزارة في نيجيريا

وتحاول الكاثوليكية العالمية بتعصب وغضب أن تقسم نيجيريا قسمين، وأن تجعل من «بيافرا» أداة لها في تنفيذ مآربها ... تنفيذ المآرب التي بدأت بسفك الدم الإسلامي دون ما سبب

إننا نشعر بأن العمل للإسلام مثار [illegible]، وأن المجاهدين في سبيل الله لا يرون إلا البطش الخانق، والجو الخانق .. !

لكن، لن ندع الإسلام أبدا، معتصمين بالله مهما نجد ونجد: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾[1]

* * *

---

(١) إبراهيم ١٢

الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً

نظرت في الطريقة التي يؤدي بها المسلمون عاداتهم فوجدتها متوافقة مع موقف المسلمين العام من تعاليم دينهم، ذلك الموقف المنطوي على الإهمال والإضاعة

أمس القريب ودع المسلمون رمضان واستقبلوا أشهر الحج فهل استفادت الأمة من صيامها وهل تستفيد من حجها ؟؟

لقد كنت أضحك ضحكاً مراً وأنا أسمع أغاني رمضان، والاستبشار بقدومه، والحزن لفراقه !!

كنت موقناً أن المغني مفطر، وأن المغنية لم تفكر يوماً في صيام !

كنت أسمع الألحان والأنغام وأنا أستغرب كيف تحول الدين إلى طبل وزمر وصياح ومجون . .

كنت أعرف أن شهر الصيام والقيام قد غاصت منه معانيه الرفيعة، وحولته الطبائع المريضة إلى شهر طعام وشراب وتسلية وألعاب وضجيج طويل أبعد ما يكون عن الحق والصدق

وعرفت يقيناً أن المسلمين حكموا على بعض تعاليم دينهم بالموت، وحكموا على البعض الآخر بالمسخ والتشويه

إن الله لما شرع العبادات شرح الحكمة المقترنة بها، والثمرة المرجوة منها

فإذا أديت هذه العبادات بأدلة عقيمة أو صورية فإن هذه التأدية لا تزيد عن الإهمال والترك إلا قليلاً

إن كانت غاية الصوم التقوى كما قال الله تعالى ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (١) ثم جاء من صام ولم يستفد من طاعته التقوى المنشودة فما قيمة صومه ؟

---

(١) البقرة ١٨٣

وإذا كانت الصلاة طهارة للنفس ووصلة للخالق، وتنهى عن المنكر، ثم جاء من يصلي دون أن يحقق في روحه أو سلوكه شيئا من ذلك فما قيمة صلاته ؟

نعم، ربما كان هذا الأداء دليلا على خيط يربط المسلمين بدينهم على نحو ما ويستطيع المربون أن يهذبوا هذه العلاقة، وينقوها من عللها

وهذا صحيح ... وأحب أن أشير إلى أن مراصد التبشير الغربي تنشر صورا عن المجتمعات الإسلامية في رمضان، وتثبت إحصاءات عن عدد الصائمين ونسبتهم في الأمة، وتستنتج من ذلك كم بقي على المسلمين لينسلخوا من دينهم نهائيا ؟ كلما رأوا عدد المفطرين يزيد باطراد !!

فهل يدرك ذلك المشايخ المحترفون أولئك الذين يصدرون فتاوى عامة بالإفطار، لجماهير غفيرة من الناس، بعد أن يحرفوا الكلم عن مواضعه، وبعد أن يغمضوا عيونهم عن الملابسات المحيطة بالسؤال والسائلين ؟

أعجبني عندما كنت في الكويت خلال رمضان أني لم أر مجاهرا بفطر، فمن كشفت سوءته رمي به في السجون

ليت شعري لماذا لم يطبق ذلك النظام في مصر ؟ ولكن كم في مصر من مفاسد اجتماعية تتطلب مبضع الجراح ليشفي ويكفي ؟

وها قد خرج المسلمون من رمضان تتابعهم أشهر الحج .

وأغلب عشاق الحج من الفقراء الذين لا تلزمهم الفريضة، ومع ذلك يزحمون موسمه !

والجمهور القادرين الواجدين منصرف بنفسه عن هذا الركن الخامس

وتلك بعض نتائج الغزو الثقافي للبلاد العربية في المشرق والمغرب

ومع هذا الجدب للنفس والتدين فإن الموسم العظيم يعج بالألوف المؤلفة

وتعود بنا الذكرى إلى الماضي البعيد عندما كان الحج شعيرة حية من شعائر الإسلام الحي

شعيرة تتحرك فيها سياسة المسلمين نحو أعدائهم، ويتوجه هذا الفيض البشري من شتى الأجناس والألوان ليمحو ويثبت من صور الحياة ما يشاء !!

في حجة منصف إبان العهد الأول، وقف علي بن أبي طالب يصف أداء المعتدين

والمجرمين بهذا الإسلام الإلهي ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾ (١)

لقد تحمل المسلمون الكثير من غدر خصومهم، وخبث مؤامراتهم، وطول تبجحهم !!

وقد فتحت أبواب القصاص والتأديب، وانتهت عهود المطاولة والتريث ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ (٢)

فهل توجد اليوم من الحكام المسلمين من يستغل الحشود المتجمعة يوم الحج الأكبر، ويلقي الخطبة نفسها التي ألقاها علي بن أبي طالب ؟

إن الإسلام في خطر مقترب، ووجه مكتئب !

وكل يوم يمر تسقط من سنته سنة، ويضيع من أرضه قطعة، فهل يذهب الحجيج ويعودون لتقام لهم الاحتفالات، وتزجى لهم التهاني، وتسند إلى أسمائهم ألقاب! وأمر المسلمين في إدبار، وما يحيط بهم من معاصر ينبئ بخطر من العدو ؟؟

أليست هي الغاية من فريضة الحج ؟

وذلك هو الربح الذي يحصله الحجاج لدينهم ودنياهم ؟

كيف هوى المسلمون بشعائر دينهم إلى هذا الدرك ؟

والحكمة عجيبة شاء الله أن تكون المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال في هذه المنطقة في الشرق الأوسط

إنه في هذا الشرق درجت النبوات، وفيه تقع الأماكن المقدسة

وفي هذا الشرق قام الإسلام للعرب دولتهم الكبرى، وجعل منهم أمة مرموقة بعد أن لم يكونوا في التاريخ شيئا مذكورا

لكن العرب خانوا تعاليم الإسلام عدة مرات فأصابهم من ضربات القدر، وجرى الأيام ما أصابهم !!

خانوه أول مرة في أواخر القرن الرابع الهجري عندما أوهنوا أمرهم، وتقطع بهم، وتبعوا أهواءهم

---

(١) التوبة ٢ (٢) التوبة ٣

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر !!

وعندئذ جاء أول فوج للصليبيين، واكتسح المقاومة الواهنة، وأجرى الدماء في القدس المهزومة حتى خاضت في محرابها سنابك الخيل

وكما كانت هذه البقاع من أرض الله لا تعني العرب وحدهم، وإنما تعني المسلمين من كل جنس وبلد، فإن فساد العرب أصلحته الأجناس الإسلامية الأخرى !!

فتقدم الأكراد والأتراك باسم الإسلام وانتشلوا العرب من وهدتهم

وما زالوا يقاتلون الصليبيين حتى أجلوهم عن آخر موطن لهم احتلوه، وما زالوا كذلك يجالدون التتار حتى كسروا شوكتهم

وعاد العرب والمسلمون إلى فلسطين بعد أن طهرها الإيمان المجرد والإخلاص لله والعمل للدين

وخان العرب الإسلام مرة ثانية في الأندلس، يوم غرقوا في الملاهي، وملئوا قلوبهم فخرا بعصبيتهم للقبيلة، ونزعاتهم العنصرية، ونسوا أن الإسلام محا كل هذه الدعاوى، وطمس معالم الجاهلية، واستبقى قيم الإيمان والعقيدة وحدها في موازين البشر

فماذا كانت العقبى ؟

لقد دخلوا بالإسلام أرض الأندلس، فلما خذلوه وتذكروا عروبتهم ونبضت عروق الجاهلية في شرايينهم، طردوا من هذه الأرض شر طردة وأقفرت منهم مغان طالما عمرت بشيبهم وشبابهم

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر !

واليوم يعيد التاريخ نفسه، فهل نعقل قبل أن تدور علينا رحاه فتطحننا كما طحنت من قبلنا من المفرطين واللاهين ؟؟

إن القدس سقطت في يد اليهود والزحف الجديد يضمر في طواياه السود إبادة أمة وإزالة تاريخ

والعرب في أوضاع الهزيمة التي وقع فيها من قبل أسلافهم المفرطون أولئك الذين سحقوا في الأندلس، واندحروا أمام الصليبيين القدامى !!

نعم في الأوضاع نفسها !

فرقة بين الأمراء والرؤساء لا تجمع بنا على قلب

بهمة في الشهوات هبطت من الكبار إلى الصغار، وجعلت الكل طلوباً بدنيا بحسبه، ويركضون وراء نزواتهم ركض الوحش في البرية، بلا عقل ولا تقوى

و د اطلب لله بلاء حد عنى التاريخ العربي، ثم يعرف يوما في صحائفه الأولى !

هذا البلاء، قوم يجردون العروبة من الإسلام، ويقطعونها عن أسسها الروحي فكري والحضاري والعسكري، ويريدون إفهام الأجيال الناشئة أنهم أولاد أبي الدقة وتأبط شرا وأمثالهم من قادة الفكر في عالم الأساطير !!

﴿ ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ﴾[1]

إني أحذر العرب من هذه البلايا التي تجمعت عليهم !!

وما أرى الوقت يتسع للتلكؤ في العودة إلى الله

ولا يزال يرن في سمعي قول صديقي المجاهد المسلم محمد علي الطاهر « إن الشعوب التي لا تبصر بعيوبها سوف تحتاج إلى هذه العيون لتبكي طويلا »

* * *

(1) هود ١٨، ١٩

أماتة الإسلام هي الهدف الأخير

لم ينقض عهد النبوة الخاتمة والخلافة الراشدة حتى كانت ألوية الإسلام ترفرف على جنبات الشرق الأوسط كله، وحتى استطاعت شعوبه العانية أن تكسر أغلال الأسرين الروماني والفارسي وتتنفس الصعداء بعد ذل طويل!!

أجل تحررت مصر والشام بعد استعباد قرون، وتحررت عن اليمين والشمائل أقطار رحبة في إفريقيا وآسيا

واستوطن الإسلام هذه البلاد كلها بعد ما رحبت به كلها ودخلت فيه أفواجا وجماهير

والشرق الأوسط وما حوله مجمع القارات المعمورة، ومهد الديانات والحضارات الكبرى، ومهب رياح التغير في العالم كله

والأمة المهيمنة عليه تملك مفاتيح الشرق والغرب، وتقدر على فرض نفسها في كل مجال، أو على الأقل أمة لا يجوز تجاهلها وإسقاط حسابها!

فكيف إذا اعتنقت رسالة سيالة تمتد من قلب إلى قلب، وتنتقل من شبر إلى شبر؟

إن هذا الوضع يتيح لها فرصا رائعة، ويرشحها لمكانة مرموقة ويلقي بين أصابعها بإمكانات ضخمة!!

وبدأ الأولون عهدهم بطي رايتي الروم والفرس، وخلفوهما في هذه البقاع وصبغوا أقاليمها بالعدل والرحمة، وجعلوا منها منطلقا لأداء رسالتهم الكبرى فكانوا يصدرون للعالم الشرائع والمثل، والأخلاق والأفكار كما نصدر نحن الآن النفط والقطن وأشياء أخرى!!

ولا ريب أن هذه المكانة الجغرافية كما تمنح الكثير تكلف الكثير وبقدر ما تعين الأصدقاء تؤلب الأعداء.

ومن هنا فإن خصوم الإسلام يبذلون على مر العصور جهودا متتابعة لحرمانه من هذه الميزة، وشنوا الحروب صريحة وغادرة لزلزلة هذا الكيان وزحزحة أصحابه عنه

وإن يكون على حظ كبير من العدو، إذ صار أعداء سير كوت محاربين كما نشاهد في تلك الأوطان الغنية العالية

وما الحروب الصليبية في صورتها القديمة ثم في صورتها الحديثة إلا ترجمة دقيقة لرغبات خصومنا في الخلاص منا ومن ديننا

إنهم يودون أولا الاستيلاء ولو على موضع قدم !! فإذا تم لهم ذلك كان المعبر الذي تنساح منه جيوشهم في الخشاش لتجهز علينا مرة تلو أخرى !!

وليس المهم أن يكون هذا الموضع مصر والشام أو كليهما أو قطعة منهما

المهم هو الحصول على رأس الجسر الذي يمر منه العدوان !!

وليس المهم أن يكون هذا الهجوم عسكريا علنيا، فقد تكون الأساليب الأخرى أجدى وأنكى وإن طال المدى !!

ولا نستطيع هنا التأريخ للتحولات الثقافية والاقتصادية والسياسية التي سلكها الغرب للقضاء علينا، وإنما نكتفي بذكر تلك التحولات ونتائجها وأسبابها

لقد قفز الأوروبيون في الأعصار الحديثة إلى مقدمة القافلة البشرية، واستغلوا أخطاء المسلمين، فحطموهم ونحوهم بقوة عن مكان القيادة، وتولوا هم تلك الوظيفة !!

وشهدت تلك الأمم العربية والإسلامية تنحدران إلى السفح بعدما كانتا في القمة، كما شهدت الأوروبيين الذين كانوا عميانا في القرون الأولى يتألقون في مدنيتهم الجديدة، ويدلون بها على الآخرين !

ومن السفه أن ألوم خصمي على مهارته وتفوقه. لقد كان ومن سنن الله ما تم من كوارث !!

وفي غمرة الأوروبيين بنعم الحياة صعدوا الخطط في أناة ودهاء للقضاء على خصومهم الأقدمين، وضمان بقائهم إلى آخر الدهر قادة الدنيا وسادتها !

ولنر كيف وقع ما وقع؟ والحضارات والدول أعمار كما للأفراد !

هنا شرع العقل الاستعماري الذكي يفكر، ويقلب الأمر على وجوهه، ويحتاط للبلاء قبل وقوعه

من أين يمكن أن يجيء الخطر، وكيف يتم تلافيه من الآن ؟؟

لقد تألفت لجنة دولية بأمر « السير هنري كامبل بنرمان » رئيس وزراء بريطانيا،

ويمثلها فيه كبريات الدول المستعمرة، واستمع أعضاؤها إلى الرئيس البريطاني وهو يقول: «إن الإمبراطوريات تتكون وتنمو وتقوى ثم تستقر حيناً من الدهر، ثم تبدأ طريقها إلى الغروب رويداً رويداً، ثم تتلاشى وتزول

والتاريخ مليء بهذه الأطوار والأدوار التي انطبقت على شتى الأمم والنهضات، دون استثناء

فهناك إمبراطوريات روما وأثينا والهند والصين، وقبلها بابل وآشور ومصر

فهل لديكم أسباب أو وسائل تجنبنا هذا المصير، وتحول دون انهيار الاستعمار الأوروبي بعد ما بلغ ذروته اليوم؟

لقد أصبحت أوروبا قارة قديمة، استنفدت مواردها، وشاخت معالمها بينما الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية

هذه مهمتكم أيها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا»

ونحن نلاحظ أن السياسي البريطاني تعمد ألا يذكر في الدول القديمة العريقة العرب أو الترك

كما نلاحظ أنه ينوه بفرص التقدم والثروات المتكاثرة في أرجاء العالم الآخر، هذا العالم المحذور النهوض واليقظة !!

ترى ماذا يعني بالضبط ؟

على كل حال فقد باشرت اللجنة مهمتها بعد ما استمعت إلى توجيهات مؤلفها الكبير ودرست الوسائل المستطاعة لحماية الاستعمار الغربي وتوفير ضمانات البقاء الأبدي له، ثم انتهت في تقريرها الذي صدر سنة ١٩٠٧ إلى ما يأتي

أولاً: استبعاد أي خطر على السلطان الأوروبي من المستعمرات التي تحررت بعد ما غلب عليها البيض مثل أستراليا وكندا وجنوب إفريقيا وغيرها. والتقليل من خطر استقلال الهند والملايو والهند الصينية وغيرها لأن المشكلات الدينية والطائفية ستشغل هذه البلدان، إذا هي استقلت، لأجل غير محدود

والتقليل كذلك من خطر ممكن لاستقلال المستعمرات الإفريقية أو البلدان المبعثرة في المحيطين الأطلسي والهادي وذلك لتطرفها وعزلتها الجغرافية

ثانياً: وهذا الجزء المهم من التقرير ترى اللجنة أن الخطر على الاستعمار يكمن في منطقة الشرق الأوسط، فهذه المنطقة مهد الحضارات والديانات ويسكنها شعب

لو توفر له من وحدة تاريخية ولغة ودين وآمال وكل مقومات التجمع والترابط علاوة على ثرواته الطبيعية ونزعة أهله إلى التحرر.

ولمواجهة هذا الخطر ترى اللجنة على الدول ذات المصالح المشتركة ما يأتي:

أ) - السيطرة على البحر الأبيض لأنه الشريان الحيوي للاستعمار والقنطرة الموصلة بين الشرق والغرب.

(ب) - إبقاء هذه المنطقة مجزأة، وفرض التفكك المستمر على شعبها، ومنع كل محاولة لعودة هذا الشعب إلى وحدته الطبيعية، والحيلولة بأي طريقة دون أي ارتباط فكري أو روحي أو تاريخي يسودها.

(جـ) فصل الجزء الإفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي بإقامة حاجز بشري قوي وغريب يملأ الجسر البري الواصل بين القارتين، بحيث يشكل في هذه المنطقة وقرب قناة السويس قوة صديقة للاستعمار الأوروبي وعدوا لأهل البلاد!

هذه هي مقررات لجنة بانرمان [1].

وظهر لهم حينئذ أن العالم كله تحسس مصدر الخطر على الاستعمار فلم تجد أمة تخشى نهضتها وتخاف على مستقبل الاستعمار من يقظتها، إلا الأمة الإسلامية، أو بطريق التحديد العرب الذين هم دماغ الإسلام وقلبه.

فوضعت أصبع الاستعمار على مكمن الخطر، وقالت له: عليك به!!

وعندي أن اللجنة الموقرة لم تأت بجديد حين استثارت أحقاد العالم الغربي على الإسلام وأمته، بل أكدت مشاعر كانت منتشرة مستقرة في كل مكان.

إن الجديد الذي جاءت به هو ما اقترحته على قومها من تبني أماني اليهود، والعمل على ضرب العالم الإسلامي بالصهيونية الحديثة!!

وقد استجاب الساسة الأوروبيون والأمريكيون - وبين الجميع قاسم مشترك - لهذه الدعوة.

فمهدت إنجلترا بإصدار وعد بلفور لقرارة إنشاء وطن قومي لليهود.

ثم ثنت أمريكا ببسط وصايتها وحمايتها على الدولة المصطنعة قائلة: إن إسرائيل خلقت لتبقى!!

---

(١) من محاضرات ... «الحديث» للأستاذ عبد الفتاح ... بتصرف يسير.

والظاهر أن اليد التي نصرتنا يد صليبية، وأن الآلة التي استعملت في ضربنا يهودية

ومن العبث الكلام فيما يحرك اليد الآثمة من حقد وغضب وخسة وعدوان

وإنما يجب الكلام في الطريقة التي تم بها غرس هذه الشوكة في جنبنا، والطريقة التي تسقى بها هذه الشوكة لتؤدي وظيفتها المضرة .

إن المعارك العسكرية التي أدت إلى قيام إسرائيل هي أتفه مراحل الاستعمار لبلوغ هدفه

أما ما سبق هذه المعارك ولاحقها من تدابير ثقافية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية، فهو العمل الحقيقي الذي أتاح قيام إسرائيل

استطاع الاستعمار تقسيم العرب وتحويلهم إلى نحو عشرين دولة وإمارة

وجعل لكل شلو من أشلاء المنطقة المحروبة قومية خاصة وعلما ملونا !!

ألم يقل وزير مصري من زمن سنة بعد ضياع فلسطين ؟ فقال إنه مسئول عن مصر لا غير

أي لا عروبة ولا إسلام !!

فهل يريد الاستعمار تمهيدا أفضل من ذلك ؟

لما أمكن توحيد العرب وتجميع شملهم كان الاستعمار قد سرق الإيمان من قلوبهم وصفوفهم، فإذا هم يجتمعون دون عقيدة وغاية

فلا جرم أن تهزمهم أية جماعة يلمها إيمان حار !!

والتجمع الأصفر لا ينتج عددا، ولا يجلب مددا.

إن الدين من وراء اليد الصليبية والآلة المستخدمة، فكيف يبعده بعض العرب عن أنفسهم وكيانهم ؟

يقول الدكتور «وايزمان» في مذكراته : «ينسبون إلي فضل الحصول على تصريح «بلفور» ولكن الحقيقة أن السبب الرئيسي لصدور التصريح يرجع إلى ترغيبهم وموافقة على إنشاء وطن قومي في فلسطين يجمع شتاتهم هو إيمان الإنجليز بالعهد القديم وتأثرهم بتعاليمه، وأن رجالا من أمثال بلفور وتشرشل ولويد جورج كانوا متدينين من أعماق قلوبهم ومؤمنين بما ورد في هذا الكتاب

وقد فطروا يا معشر اليهود على أن نمثل فكرة يعتقدونها اعتقاداً تاماً !

هذا هو تدبير سياسة الدين عندنا وهو نموذج للساسة بروم... وجونسون وغيرهما .

فهل أمن ساسة العرب بمقدساتهم الإسلامية إيمان هؤلاء بمقدساتهم اليهودية والنصرانية ؟؟

كلا ... كلا بل أكثر هؤلاء من قرأ العرب، ولا اطلع على سنته، ولا درس تاريخ سلفه الأول.

إن الغرض من الشيء يستدل، كما أنت قد ترى، وتعرفون أتباع ... وقد لم يجمع العرب قواهم المادية والأدبية على هذا ... على ... يريدون من النصر إلا بعده

* * *

(1) [illegible] تصدروا بلا موهبة ولا معرفة، ولا حماس ديني

حديث ذو شجون

أحببت كثيراً من الأيام التي قضيتها في السودان، وشكرت لجامعة أم درمان الإسلامية فرص اللقاء التي يسرتها لي مع طلاب المعرفة في العاصمة والأقاليم.

إن السودان ينمو بقوة، وملامحه الإسلامية تتضح وتتكشف، وفي اعتقادي أنه كفء لملء الفراغ الديني وسط القارة التي استعبطت من أعدائها، وإن كان ذلك يحتاج إلى جهود ضخمة، فإن حدود السودان الجنوبية تتصل بشمالي دول، بعضها يعد من خمسين سنة مراكز للاستعمار والتبشير، ومصدر الإزعاج والعقبات لكل حركات التحرر في القارة!!

ومع ذلك فإني بقدر ما سررت لطلائع النهضة الإسلامية التي وجدتها أحسست ببوادر قلق[1] لما قد يتمخض عنه المستقبل.

إن الجهات المعادية للإسلام شديدة الخبث محذورة الشر، ولابد من التيقظ لها حتى لا نخدع ونحن غارون مسترسلون.

والسودانيون عرب أصلاء، بل هم أوغل في العروبة وأدنى إلى ملامحها وشمائلها من مجتمعات عربية أخرى في إفريقية وآسيا.

وقد تسألني: لماذا صدر هذا الحكم الغريب؟

والجواب: أسلوب المعاملة بين الحاكم والمحكوم.

إن شاباً يبدو أنه أحد الوزراء سمته المتجرد، وعلتني الدهشة أول الأمر، ولكني كتمت ما بي حتى أعرف ما سوف يتم. والتفت الوزير عندما سمع اسمه، دون أن يبدو عليه شيء وجرى حوار سريع في الموضوع الذي نودي من أجله... ثم ذهب كل إلى حال سبيله.

(1) هذا المقال بمجلة لواء الإسلام قبل وقوع الثورة العسكرية ببضعة شهور، كان الاتجاه العام الرسمي والاتجاه الشعبي إلى وضع دستور إسلامي، ونرجو أن يظل هذا الاتجاه قائماً.

ونظرت إلى صديقي نظرة تنطوي على الدهشة ، فقال لي مبتسما

هل يستطيع أي مواطن أن يقول للسيد إسماعيل الأزهري رئيس مجلس السيادة أزهري ! ماذا فعلت في موضوع كذا ؟

وسيجيبه الرئيس بما عنده دون نكر أو هجر !!

لقد زرت بلادا عربية كثيرة ، ومنذ شهرين اثنين كنت في الكويت ، وهناك يستطيع رجل الشارع أن ينادي صاحب أكبر منصب دونه بقوله ، أبو فلان

ويجيب أبو فلان هذا سواء أكان ورأيه أكبر أو أصغر يجيب داعيه بمودة وبشر

إن بقايا الإسلام لا تزال لاصقة بأفئدتهم

أما في مصر فقد ألغيت الألقاب على الورق فقط ، والويل لمن ينادي كائنا أ [illegible] باسمه أو كنيته

إن حاجته لن تقضى ، وما أحسبه ينصرف سالما

إن إلغاء الألقاب تعد النصيحة بالنسبة إلى جماعات أكلها الذل والتفاوت ، لكن العقل التي يتأذى منها الأحرار لا تزال دونها قلاع وأسوار !

وانتقلت أحد مدعوة العائلين من جنوب السودان وبادرته بالسؤال كيف الحال هنالك ؟ فقال في طريق الاستقرار وإن كان مشعلو الفتنة لم يرتدعوا

ومن صحبة الحر ، عرفت أن جماعات المبشرين وهم يعملون وفق سياسة مرسومة – وضعت بذور شر مستطير في هذه البقاع

إن الإنجليز في أثناء حكمهم عزلوا الجنوب عن الشمال عزلا تاما ، ومكنوا الكنائس الغربية أن تتولى كل شيء في الميادين الثقافي والاجتماعي

فلما استرد السودان حريته وجد نفسه أمام شعور طافح بالبغضاء من الجماعات التي صنعها أولئك المبشرون

ولكن ما جعل عدة المسلمين من احترام للحريات ، [illegible] لقوى الأمر الواقع بشيء من [illegible] ، ووضعوا خططهم على أسس تعاون شتى الأديان في مجتمع تذوب فيه الفوارق المصطنعة

غير أن المبشرين رفضوا هذه الخطة ، وأعلنوا الحرب عليها وعلى معتنقيها ،

وفجروا ثورة جارفة، وقتلوا عدة آلاف من المسلمين بينهم جمهور من النساء والأطفال.

قلت: وماذا يعبدون؟ قال: إن عدد المسيحيين هناك ربما بلغ ثلاثمائة ألف من جملة السكان وهم نحو ثلاثة ملايين يتبعون عقائد بدائية وثنية.

ويظهر أن المشرفين على التبشير يخشون أن يتحول الوثنيون إلى الإسلام عندما يتيسر الاختلاط بين المسلمين والجنوبيين، ومن هنا نصح المبشرون بالفتنة ويغذون الحادث باسم الجنوب كله.

ومع هذه الصيحة أغروا المتمردين بأن كتب التبشير تعلمهم أن الإسلام دين التفرقة العنصرية، وأنه هو الذي خطف آباءهم وباعهم في أسواق النخاسة، وأنه سيوقع بهم في الغد ما وقع لآبائهم في الماضي.

على أن العصابات المتمردة قضي عليها، وأمكن منع الإمداد لها من جيرانها من وراء الحدود وأمكن إشعار هؤلاء المخدوعين أن المسلمين لا يأكلون لحوم البشر كما كانوا يسمعون في عظات الآحاد من المرسلين الأوروبيين.

قلت، وأنا أهمس إلى نفسي: الله المسئول أن يجنب السودان مؤامرات الاستعمار الحديث.

إن هذه المؤامرات أغرقت نيجيريا في برك الدم، وقد قضت على زعامات إسلامية فارعة، ولا تزال حرب الانفصال بتدخل الأجنبي تشتعل، وهي مصممة على ضرب الإسلام في صميمه، والله وحده يعلم كيف ستستقر الأمور هناك.

والتقيت في أم درمان برجلين من زعماء المسلمين في «الفلبين» وهششت لمرآهما وبدأت أتعرف على أحوال إخواننا في الشرق الأقصى، فإن الشقة بيننا وبينهم بعيدة.

وكان الرجلان قد اطلعا على بعض ما كتبت فكان حرصهما على شرح الأمور لي بعض ما يطوفان البلاد الإسلامية من أجله.

واستمعت إليهما وكأن الأسى ينتشر صبابة في أقطار نفسي رويدا رويدا فلما أتما حديثهما خيم الصمت على مجلسنا وسرحنا مع خيالات قابضة.

كنت أعلم أن المسلمين في الفلبين كثر، فإذا هم اليوم قلة تبلغ ٤٥ من جملة السكان فكيف حدث هذا؟

يرجع ذلك إلى أمرين مهمين:

الأول أن الصينيين يهاجرون إلى البلاد في أعداد كبيرة، ويكسبون الجنسية الملاوية بسرعة

والآخر أن التناسل بين الصينيين يزداد دون عوائق، والأسرة الصينية العادية تكون في المتوسط من خمسة عشر شخصا

وليس غريبا في السنة نفسها أن يسع الأم عشرون ولدا لها (١)

والكثرة تفرض وجودها المادي والأدبي طوعا أو كرها

والمسلمون شرعوا يكمشون من الصينيين الاجتماعية والاقتصادية فإن التجارة تكاد تكون حكرا على الصينيين، وقد استطاع هؤلاء وهو تقدم زيون رهيب أن يشددوا الخناق على الفلاحين المسلمين، وأن يستولوا على نتاج الأرض بثمن بخس

وقد حدثني الملك رئيس حكومتكم المسلم، وأظن أنه دعا إلى مؤتمر إسلامي عالمي يعقد خلال هذه الأيام

فقلت له في لهجة مشوبة بالمرارة: إن حكومتنا تقف السياسة الإنجليزية نفسها، وهي شديدة الالتزام لخطها ووجهها

ويجب أن نعلم أن الحكومات الأولى وبه معنية على معاداة الإسلام

غير أن للإنجليز أسلوبا خاصا في قتل هؤلاء الذين يخافون غرضهم دون ضجة

إنهم يقطعون شريانا حيويا ثم يدعونه ينزف في صمت ويموت على مهل

أو هم يرسلون عليه غازا مميتا كالغاز الذي يصيب المعتنقين داخل الحمام، فهذا هو سحر في عملية مخدرة لسيدة إلى أن تقضي نحبها، كذلك تفعل الإنجليز مع الإسلام، إنهم يقتلونه بين أيدي أهله، وأهله مسحورون، قد يستسلمون وهم يموتون!

أما قصة المؤتمر الإسلامي الذي تتحدث عنه، فهي لا تعدو قصة تمثيلية متقنة الإخراج سائرة مع الهدف المرسوم لا تنحرف عنه قليلا ولا كثيرا

فما قيمة مؤتمر لا يناقش قضية الموت والحياة لأمة كبرى، ويشغل نفسه برؤية الهلال واختلاف المطالع، كأن هذه المسألة قضية المصير، مع أن أركان الإيمان وبقاء أمته في مهب الريح

---

(١) تأمل على ضوء هذا أثر الدعوة إلى تحديد النسل

إن في مصر من يرى هذه المؤتمرات دعاية ضخمة يحسبها الحكام المنتسبون إلى الإسلام الخارجون على أحكامه [1]

وعقب هذا الحديث المليء بالقصص، فقد كان علي أن أسافر إلى « الأبيض » لألقي بعض المحاضرات في هذه المدينة الكبيرة.

وكشفت وأنا أستمع إلى الأسئلة المعروضة علي أن هناك حركة قد نشأت في العاصمة وامتدت لها بعض الفروع في الأقاليم تدعو إلى ترك السنة والاكتفاء بالقرآن الكريم.

فقلت للجمهور: هل وصلتكم ثم الأخرى هذه الدعوة؟ إنها انتشرت بيننا حيناً ثم تلاشت، وكنت أحسب صحيفتها مطوية، ولكني وجدت هذا النشاط المريب قد امتد إلى الهند شرقاً، وإلى تونس غرباً، وأن كتباً عديدة تحمل جراثيمه، فعلمت أن مؤسسات التبشير والاستشراق المتخصصة في إفساد الفكر الإسلامي مستخفية وراء بعض هؤلاء الأشخاص المخدوعين أو الخادعين.

وإذا كانت هذه المحاولات السمجة تموت في مكانها لتفاهة موضوعها، وانصراف الجماهير عنها، فإن تكرار ظهورها هنا وهناك يدل على أن أعداء الإسلام لا تنتهي لهم لجاجة.

وأنهم من وراء الغيوب يجدون مصايد لهم في كل بلد، فاحذروا أيها الأخوة نبت المطية الجديدة التي ظهرت في بلدكم ..!!

واسترعى نظري مبنى شامخ، ممتد على الأرض، ذاهب في الأفق، يتوسط المدينة الكبيرة، ويرى من أغلب شوارعها.

فتساءلت: ما هذا المبنى؟

فقيل لي: الكنيسة التي شيدها المسيحيون أخيراً!!

فقلت في نفسي: تلك سياستهم في ربوع العالم الإسلامي كله، يبنون المعابد، لا لأداء الشعائر الدينية فقط، بل لإظهار المسيحية وكأنها الدين الغالب الذي يضع طابعه على الأرض في رسوخ واعتداد بالنفس دون أي اكتراث بمشاعر الكثرة الموجودة التي تعتنق ديناً آخر.

---

(1) نشر هذا الحديث قبل انعقاد المؤتمر بالفعل، [illegible] في توجيهه كان محاولة لمنع المسلمين به

ثم خاطبت صديقي: إنها لا شك تتسع لجمهور كثيف من المصلين! كم نسبة المسيحيين هنا في السكان؟

قال: يبلغون ٢٪ !!

قلت: حسناً، فقد نسيت كم لو كان المسلمون ٢٪، لعل في ذلك ما يخرس نعقات التبشير التي تتهم المسلمين بالتعصب.

لكن، هل يسكتون؟

لا أتوقع، فإن ضعف المسلمين الحضاري سيسمح للألسنة الكذوب أن تفتري عشرات التهم، أولها الحيف على الآخرين !!

ومن يجد الضعيف ينصفه في عالم يسوده منطق الغاب وتهم الذئاب

* * *

تزوير التاريخ

للاستعمار الحديث براعة مبتكرة في تزوير التاريخ، وإخفاء بعض معالمه، وإبراز بعض آخر، بعد تشويه لمفاهيم، وتحريف للكلم عن مواضعه.

والغرض من هذا هو خداع الأجيال الناشئة عن أصلها، وإبعادها عن وجهتها المعهودة.

وكما ينقل مجرى النهر لتسلك مياهه في مصب آخر، أو تذهب بدداً في أرض غريبة، ينقل مجرى التاريخ، وتحول أحداثه وأحكامه حتى يصبح ذا معنى غير معنى، وتوجيه غير توجيه.

وقد تضافر المستعمرون على تمزيق التاريخ الإسلامي وتحريفه خلال القرنين الأخيرين ليكون في ساعة محددة للمحتل عوناً على الغزو الثقافي الواسع، وليتمكن على جثته المصروعة من صب الأمة الإسلامية الكبرى في القوالب الكثيرة التي أعدت لها.

وهي قوالب شكلت بعناية ودهاء، كي تتبدد خلالها رسالة العرب، وتتلاشى في طول العالم وعرضه أمته الواحدة.

وقد ساعد على نجاح هذه الخطة بين جماهير المسلمين الضعفان الخلقي والعلمي اللذان صارت إليهما الأمة أيام العثمانيين.

وأبرز مظاهر هذا النجاح وجود جماعات غفيرة تعتقد أن الدين لم يكن وراء حركات المقاومة للحملات الأجنبية على البلاد!

أي أنه خلال القرن الماضي لم يكن له دور في مدافعة الاحتلال الفرنسي ثم الاحتلال الإنجليزي الطويل.

كانت المقاومة نابعة من بواعث أخرى مادية، أو محلية، أو عنصرية، وأي شيء آخر.. إلا الدين!!

ويتبع ذلك فهمهم أن الدين مستقلاً عن حركات التحرر، وميادين المقاومة

ومن يدري ؟ فقد ينمو هذا الوهم، ويوغل في الشرود فيتهم الغربي نفسه بأنه قضى على حركات الشعوب، وآمالها في حياة أرقى وأرغد !!

ولا يصنع الاستعمار الثقافي أكثر من هذا الضلال

والذي لا بد علينا أن نكشف الحقائق التي يراد طمسها، وأن نقطع هذه السلسلة من الترهات والأباطيل التي راجت بين القاصرين والأغرار

عندما احتل الفرنسيون مصر، كان الإسلام وحده، ولا شيء غيره هو الذي أشعل نار المقاومة المسلحة والمقاومة السلبية

لقد استمات المسلمون في مناصلة الغزاة وتعويق تقدمهم، وأرخصوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، ولم يحسبوا أمام تفوق الفرنسيين العسكري ورجحان كفتهم في كل شيء، ولا أمام الخيانات المفاجئة من بعض المواطنين !!

وقد كان للأزهر حرب الدفاع المقدس، فحكم الفرنسيون على عشرات من علمائه الشبان بالقتل، ونفذ فيهم حكم الإعدام فرادى وجماعات ...!

كما نفذ حكم الإعدام بطريقة بشعة قذرة في سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر، ودخل الغزاة بخيلهم ورجلهم صحن الأزهر

ولكن الثورة التي اشتعلت في القاهرة والأقاليم لم يستطع خمدها، وظلت حتى نسي نفوح وثبتها في القاهرة وحدها أكثر من ثلاثين يوما

ويقدر عدد المسلمين الذين قتلوا في مقاومة الغزو الفرنسي بنحو نصف مليون قتيل في مدن الوجهين القبلي والبحري والقاهرة

ولكن الغريب المحزن أن صور هذه المقاومة الباسلة طويت طيا، بل محيت محوا من صحائف التاريخ المدروس بين جماهير الطلاب والمثقفين ...!

وسطر فصول المأساة نفس بارد ميت !!

وقام جهد مزوري التاريخ على أمرين

أولهما سحب ذيول النسيان على دور الإسلام في المعركة وعلى تضحيات المسلمين الجسيمة وخسائرهم الفادحة في الأرواح والأموال

الأمر الآخر ... وهو ما تطيش له الألباب ... إبراز الحملة الفرنسية على أنها خير وبركة لمصر والمصريين !!

فأي زور هذا الزور ؟؟ وأي هوان هذا الهوان ؟؟

* * *

وقامت الثورة العرابية في مصر، وهي من ناحية اللون التاريخي لثورات المبادئ تشبه الثورة الفرنسية

إذ هي حركة تمرد على مفاسد بعض الملوك ومظالمهم، وتحرير الشعوب المضطهدة، ورد حقوقها المسلوبة.

والفرق بين الثورتين، أن الفرنسيين قاموا بدوافع إنسانية مجردة ضد مخالف الجائر من النظام الملكي ورجال الدين على الفقراء من الجماهير وانتهاك حقهم

أما الثورة العرابية فقامت بدوافع إسلامية ضد طغيان ملك مستبد، وعصبيات جاهلية، ولذلك أيدها علماء الأزهر ودعوا لها، ودافعوا عنها وحركوها من أجله

بل إن أحمد عرابي كان أزهريا يستمد ثقافته العامة وحكمه على الأمور من تعليمه الديني

وقد دعم الثورة العرابية الفريقان المتباينان من علماء الأزهر

رجال الفكر الحر وفي طليعتهم الشيخ محمد عبده ومدرسته

ورجال الترسم والتصوف وفي طليعتهم الشيخ عليش، والشيخ أبو عليان، وسائر شيوخ الطرق

ومعنى هذا أن رجالات الإسلام على اختلاف مشاربهم كانوا ظهيرا للثورة العسكرية الشعبية ضد مظالم الأسرة المالكة، والافتيات على الأمة

وأن الإسلام كان موقد هذه المقاومة للظلمة، وباسط أدلتها، ومضرم مشاعرها

وأنه لم يستورد مبادئ من هنا أو من هناك لتشحن قلوب المصريين الفارغة أو تعلمهم ما يجهلون!

وتمكن الإنجليز بقتل الثورة في مهدها، واستطاعوا بخبثهم الاستعماري أن يستصدروا فتوى من الخليفة التركي بأن عرابي عاص، ثائر، لا تجوز مساندته

ولكن علماء الأزهر سارعوا فكذبوا الخليفة المضلل، وأصدروا فتوى بأن عرابي على حق، وأن العمل معه جهاد

وشاءت الأقدار أن تهزم هذه الثورة، وأن يحتل الإنجليز مصر.. وبدأت مأساة تزوير التاريخ

فأهيل التراب على دور الإسلام والأزهر في كفاح المظالم السياسية والاقتصادية، وأُطبق الصمت على ما قدمه رجال عظام – من بواعث دينية خالصة – لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

والغرض من هذا التآمر تغريب عمر الدين وأهله، حتى يبدو الإسلام وكأنه مخدر للشعوب !!

وإنها لخطة محفورة مكورة أن يجرد التشريف من فضائله ثم تطرح عليه معايب الآخرين.

ولكن هذا ما وقع. فقد محيت الصبغة الدينية عن هذه الثورة وعرضت في الكتب المدرسية وغيرها مجردة من طابعها الإسلامي، كما تجرد الدم من كرياته الحمراء والبيضاء، فماذا يبقى منه ؟؟

لقد أصبحت وكأنها قصة فئة ثار على الحكومة في شيلي أو كمبوديا !! وكفى

* * *

واشتعلت نيران الثورة ضد الاحتلال الإنجليزي سنة ١٩١٩، وجاء هذا الغليان المحلي بعد أن أفلح الاستعمار العالمي في تقطيع الأمة الإسلامية الكبيرة، فجعل لكل قطعة منها نوعًا محنطًا، وجنسية مقررة، وتاريخًا خاصًا !!

ولكن المسلمين حيث كانوا، أبوا أن يفهموا الوطنية على أنها عبادة التراب، أو يفهموا القومية على أنها التعصب للجنس.

لقد واجهوا الأمر الواقع بتغليب منطق الإيمان وروح الأخوة، وأفهموا مواطنيهم من أتباع الأديان الأخرى أنهم مرعيو الذمم محفوظو العهود والمصالح حتى لا ينخدعوا بالدس الأجنبي.

ولم تشذ ثورة سنة ١٩١٩ عن سابقاتها، فكان الأزهر وفروعه في الأقاليم خطبها النيرون، وكان الجهاد في سبيل الله حاديها المسموع، وكان الأمل في جنة الرضوان عزاء الشاب الذي صارع الغزاة حتى الموت ..!

إن الدماء التي لم تضعفها المسليات والملهيات التي صنعها الاستعمار بدهاء وأناة خلال عشرات السنين

ولعل الثورة الجزائرية التي قدمت مليونا ونصف مليون شهيد لإتمام طرد الفرنسيين من البلاد شاهد صدق على هذه الحقيقة.

بعد مائة وثلاثين سنة بقيت خلالها لا يعدل موقفه تحت الرماد، ما إن وجدت نفس الذي تضرمها، حتى تلهب النار، واندفعت ألسنتها، و حترق الاستعمار في سعيرها

إن المحاولات للكيد للإسلام لم تنته، وأحسبها لن تنتهي، ولعل سواد الأ... الصريح لسابق ولا اللاحق، و ... قريب والبعيد، في صورة مأفوكة لملامح مزورة ... يوهم ... أنه ليس وراء حركات المقاومة الوطنية دين دافع ولا عقيدة موروثة [1]

وصحافتنا لا غفر الله لها تشيع هذا الكذب [1]

وربي أن ذلك يحدث لخدمة أعداء العروبة والإسلام، فقد غرب ... عن روح الأمة ومقوماتها في الوقت الذي ... طلائع الهجوم ليس ... و ... ونشطوا لهمهم، وحرمان لهم من أمضى أسلحتهم

وليت شعري ... العالم تجمعا على أساس اليهودية يقوم بالعدوان، ويرفض تجمع على أساس الإسلام يقوم بالدفاع ؟؟

ولماذا تشوه الأحداث وتشوه الوقائع لإخفاء اللوحة الإسلامي الشجاع وهو يكافح بشرف وفداء لحماية نفسه وأرضه ؟

ولحساب من يقع هذا كله؟

... نستفيد من هذا المسلك الذي هو الاستعمار والصهيونية، ونحن وحدنا الخاسرون !

ويتصل ... و ... أثره ... اللهم لا ... خطأ يقع من أحدهم ... في ... ، بل ... نفسه بهذا الخطأ ويحكم عليه بالإبعاد والإهمال !

... كنت ... لشاعر معروف، شاعر اشتهر بالعروبة في ... وجو ... و ... بينهن، و ... ، ... على ... و ... فتساءلت : ما هذا التحف ؟ ومن سره ؟

... هذا الشاعر ... الحماس، ويلهب ... لهجة كي تطلق لا سوى على شيء

---

[1] ... الإسلام ... الأرض ... ... !

فهو وأمثاله من أسباب الكارثة التي أصابت العرب أمام اليهود !

ثم سمعته يتأثم للهزيمة المريرة، فقلت لعلها توبة، وتحذير بالمنحرفين أن توقفهم وخزات الهزيمة النكراء التي ألمت بنا

ولقد صحت ضمائر شتى، وتذكرت ضرورة العودة إلى الدين والإنابة إلى الله بعد الذي وقع

ولكن سماسرة الاستعمار تحركوا على عجل ليمحوا ما يتعلق بالإسلام، ويسدوا الطرق المفضية إليه، إنهم يريدون طول الغيبوبة التي وقعت فيها الأمة، إنهم يريدون تكثير الضباب الذي يحجب الرؤية، إنهم يريدون بقاء الزور الذي استخفت وراءه الحقائق

من أجل ذلك يكتب أحدهم أن الإسلام لم يصنع ثورة شعبية، ويكتب ثان أن ضياع الإيمان لا مدخل له في الهزيمة، ويكتب ثالث أن الدين يكتفي بترديد الدعاء بالنصر على الأعداء، ويكتب رابع عن ضرورة إصلاح قوانين الأسرة! فهي قضية العصر

وتناسى الأعلام المعمية لاتجاه الجماهير، وتعمية الناس أمام الساترين!!

لا شك في أن من المتصلين بالدين ناسا لهم أغلاط وسيئات

وتأديب هؤلاء حق

ولو أن الناس سيصفقون لهؤلاء المنحرفين بعضهم لبعض للشر؟ هم عصبهم وعذرهم في حكمهم

لكني رأيت من يتهم علماء الدين بطلب الدنيا، فلما تأملت في سيرته، وجدته مخمورا بحب الحياة واصطياد الشهوات! ووجدته يزدري علماء الدين كما يزدري نصوص العمران نصوص الآخرة، أي أن نصيب ذلك يسخر من كل شيء!!

ووجدت هذا الذي يندد بانحراف المتدينين إذا رأى مؤمنا شريفا ذكيا ضاق به، وعمل على هدمه، واجتهد في إخفات صوته وإزالة أثره!!

لم ذلك ؟ ولحساب من ؟

إن الإجابة ليست معقدة . إن المقصود هو النيل من الإسلام نفسه ، والتخفف مما يؤخره والكراهة لما يقدمه

ونسأل مرة أخرى : من المستفيد من هذه الأحوال ؟

والجواب : لعبة الاستعمار والصهيونية فإن العودة إلى الإسلام مفتاح التغيير للموقف المستغلق في الشرق العربي كله

* * *

نهج الأحرار ورواسيهم جبل

في السهول المنبسطة يمتد السبيل حتى يبلغ منتهاه ما يعترضه شيء

وفي حقول الأرض واقعمح تهب الريح، فيميل السنابل العصبة كلها، ما ينتصب منها عود

ومن جماهير العامة، ينتشر التقليد الخاطئ أو العرف السيء فما يرده ذكاء

أو يمد رهبة السلطان المستبد وسطوه الملك الطاغي فما يعصمها تمرد

ولكن هناك رجالا من معادن فريدة تشذ عن هذا العموم العيني !

فهم الجبال حتى توقفه مد السيل، والأشجار التي لا تنثني مع هبوب العاصفة

وهم الصاحون من السكارى، فإذا شاع خطأ تعرضوا هم له بالنقد، وإذا ألف الناس مسلك سلم يعجبهم تصرفوا هم منفردين على طريقة المعري حين قال

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد   بعدوى فما أعدتني الثؤباء

وإن ركع الناس بين يدي ملك ظالم، أو استكانوا لأوضاع دنية، لمحت في أبصارهم بريق الأنفة، وفي سيرتهم شرف الحرية، فما يستريحون حتى تنجو البلاد والعباد من آثار الفساد، وقيود العبودية

أولئك هم مثل الذين يعتز بهم الإيمان، ويستقيم بهم الحياة

وإذا كان الله جل شأنه قد نصب الجبال للبشر بالحسبان، وقال في كتابه ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ﴾[1] فقد اقتضت حكمته العليا أن تصون المجتمع الإنساني بهذا النفر من حراس الحقائق الرفيعة وحماة المعالم الفاضلة . . !

---

(١) الأنبياء ٣١

فهم الدواء الخالد لكل ما يشكو في الدنيا من عنت، وهم الأمل الباقي لبقاء الخير في الأرض، وإن ترادفت النوب واكفهرت الآفاق.

ثم كان عشق الحق حقيقة فيهم فطرهم الله عليها كما قال سبحانه: **﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾** (1)

ولعشق الحق أعباء مرهقة، أولها الصبر على تثبيط الخاذلين، وكيد المعوقين والمخالفين بيد أن صبغة الثورة على الباطل لا تكترث لشيء من هذا، وفي الحديث الصحيح: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة - أو حتى يأتي أمر الله - وهم على ذلك».

وأكثر الناس يعرف الحق معرفة حسنة، غير أنه لا يأسى لهزيمته، ولا يأسف لضياعه!

ولعل إحساسًا من الضيق يخامره لخذلان الحق، إلا أن هذا الإحساس يصطدم بمصالح النفس وضرورات العيش، ومطالب الأولاد، فيتراجع المرء رويدًا رويدًا عن هذا الشعور الشريف، ويؤثر الاستسلام على المقاومة، والاستكانة للواقع عن تغييره وإنكاره..!

وهذا المسلك لا يتفق مع صحة الإيمان، ويستحيل أن تتقبله نفس ثائرة لله، مؤمنة في عقيدة.

فالغضب لله ورسوله يذهل في ساعة ثورته نفسه عما يحرص عليه الناس من حياة ومتاع، ولا يرى أمامه إلا نصرة الحق ورفع لوائه وليكن ما يكون.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين».

على أن من العبث انتظار التفاني في الحق من عبيد شهواتهم، وصرعى نزواتهم، بل الأمر يحتاج إلى تربية وتبصرة حتى يكون مذاق الإيمان أحلى في فم الإنسان من كل لذة عاجلة.

وعندما يشعر امرؤ بالسعادة لأنه واسى محرومًا، أو نصر ضعيفًا، أو أمن قلقًا، أو آوى هائمًا، أو أحصن عرضًا، أو حقن دمًا، فهو إنسان كبير.

ومثله أهل لأن يفتدي عناصر الإيمان بالنفس والنفيس!

(1) الأعراف: ١٨١

و شائرون ضد الظلم و سفهمون من أعوانه رجال من ذلك المعدن نفسه، و يدفعهم لتقييم الأظافر لشرسة ضرب من الإصلاح عام للحياة والأحياء ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾[1]

حيث يكون العسف والخسف، لابد أن يكون للإسلام ديث ثائر يطلب النصفة والرحمة

و حيث يكون الاستعلاء والاستعباد، لابد أن يكون المسلمون ثوار، ينشدون العزة والكرامة

وقد يكون عقبى الجهاد موتا في غربة، أو قتلا في معركة، والثائرون ضد الظلم أدنى الناس إلى البلاء والعطب

وماذا في هذا؟ إن ما يحذره غيرهم هو الذي ينشدونه لأنفسهم !

وتلك صيغة الثائرين، إما أن يحيوا كما يريدون، أو يموتوا كما يريدون

إنهم عزيمة مؤثرة في الحياة سلبا وإيجابا ولـسوا غرباء تشدهم حياة الأخرين

ويعجبني قول الطرماح بن حكيم، وهو يسعى إلى المعالي حتى لا يحتاج إلى صلة الأمراء في عهده، أو إلى عدة الخلفاء – كما سماهم

وإني لمقتاد جوادي وقاذف به، ونفسي، العام إحدى المقاذف !
لأكسب مالا، أو أئول إلى غنى من الله، يكفيني عداة الخلائف

ثم سمع إلى هذا الثائر المضطرب في مناكب الأرض طلبا للعزة يقول

فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن على شرجع يعلى بخضر المطارف[2]
ولكن قبري بطن نسر، مقيله نحو السماء، في نسور عواكف !!
وأمسي شهيدا ثاويا في عصابة يصابون في فج من الأرض خائف !!

والمسلمون اليوم من ينجحوا في حرب الاستعمار إلا إذا استهتروا بالموت وأحبوه في ذات الله

إن أولئك الرجال الكبار هم أصحاب اليد الطولى في صوغ التاريخ، وتوجيه أحداثه

---

(١) البقرة ٢٥١

(٢) أي نعش مغطى بالأقمشة المطرزة

والأفراد النابهون لا الجماهير الكثيفة هم صناع الحياة وقادة الفكر والخلق!!

فكم من أمة ظلت تغط في سباتها دهرا حتى جاء من أيقظها فثارت

وكم من أمة شردت عن الصراط المستقيم حتى رأت من هداها فرشدت

على أن أولئك المتمردين العباقرة أنواع!

فمنهم من رمق القافلة التائهة وأبى أن يندفع معها في وجهتها، واكتفى بأن ينفض يديه من أمرها، وألا يشاركها في مسيرها، وكأن أبا العلاء المعري يصور نفسية هؤلاء عندما قال:

حسدوا رأيي، وحسبك ذاك مني ... على ما فيّ من عوج وأمت
وماذا يبتغي الجلساء عندي؟ ... أرادوا منطقي وأردت صمتي
ويوجد بيننا أمد قصيّ ... فأموا سمتهم وأممت سمتي

والواقع أن اعتزال المجتمع الماجن الفاجر جهد غير قليل.

ترى هل هذا هو التغيير بالقلب الذي عده الحديث الشريف أضعف الإيمان؟ ربما، ولكني ألحظ أن هذا الموقف قد يكلف صاحبه متاعب فادحة، فإن المتعصبين له قد يطلبون الأعوان على سيرتهم بالرغبة أو الرهبة

وربما قالوا: من ليس معنا فهو علينا!!

وقد وقع محن شديدة، فإن الإمام الأعظم أبا حنيفة كان مزورا عن حكام عصره، مكتفيا بتفقيه الجماهير في دين الله، ولكن هؤلاء رأوا صمته نبوا عن صفوفهم كرها لهم، فعينوه قاضي القضاة، ومات الإمام في المحنة وهو يرفض المنصب المعروض!!

* * *

وهناك رجال من طراز آخر، لا يدعون المنكر يمر سالما أبدا، ويأبون إلا كشف زيفه وهدم صنمه، ومقاومة الجماهير العاكفة عليه

وإذا كان في مجالس المناظرة، أو عند تحبير المقالات، نقض بعض التقاليد المستقرة أمرا سهلا، فإن ذلك عند المجابهة العملية أمر شديد الوعورة مقلق للأخطار

إن للوثنية عبادا يأكلون من يخدشها.

وانظر شدة غضب هؤلاء على من يعترض طريقهم في قوله تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ (1)

---

(1) القلم ٥١

وانظر شدة تمسكهم بباطلهم وصبرهم على ملازمته في قوله تعالى ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا* إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ (1) !!

في وجه هذا التعصب الهائل، وفي وجه القوى الحمية، والحمية التي تؤازره، يعمل المصلحون لتغيير الأوضاع وتبديل الأحوال، ويتعرضون لنكد الحياة وسوء المنظر في الأهل والمال !!

وعندي أن العبادة المنقطعة في الصوامع ضرب من البطالة، أو هي على أحسن الظن ضرب من المتع المحبوبة، واللذات الروحية، يوفر لأصحابه نحو النفس السعيد وحسب !

لكن هل يتغير وجه الحياة الدميم بهذه العبادة الخالصة ؟

هل تنكمش سطوة الباطل بهذه الرهبانية المتوحشة من نحو المنقبضة عن الدنيا ؟ كلا

إن الصلاح تزكية النفس، والإصلاح تزكية المجتمع.

والمسلم الحقيقي هو الذي يتعهد نفسه بالتقوى ويعمل في الوقت نفسه على المجتمع ليؤازر الحق ويخذل الباطل، ويحب في الله ويبغض في الله، ويكثر سواد المؤمنين ويوهن كيد الكافرين.

إن الحياد في كل معركة بين الخسة والشرف ليس موقفا مقبولا، وأصحاب هذا الموقف هم إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان !!

إن إبراهيم الخليل لما رفض الوثنية لم يسترح حتى هدم الأصنام، وكذلك فعل خاتم الأنبياء، وإن كان طريقه أطول وجهده أشق !!

ومن ثم كانت رسالات الله تعبيرا حقيقيا للنفس والمجتمع، وثورة لا ترتد على العوج والفساد والظلم.

كانت محوا للوثنية، محوا للعرف السيئ وإثباتا للعرف الصالح، محوا للتشريع الضال وإثباتا للتشريع الحق.

إن كل هداية لا تتحول من صلاح نفسي إلى إصلاح اجتماعي فهي [illegible] في باب الخير

---

(1) – الفرقان : 41 ، 42.

كالجنين الذي سقط قبل استكمال نموه، فما قدرت له حياة ممتدة، ولا عرف له تاريخ مشرف.

وبدهي أن ينهزم الخير السلبي أمام الشر الإيجابي.

ماذا فعل صالحونا في قرون الضعف؟ لقد ثووا في العبادة في زواياهم وتركوا غيرهم أن يكتشف أسرار المادة ويجدد أسلحته وينقل إليهما عقائده وتقاليده ؟

ما أفاد الدين من سيرتهم شيئاً فضلاً عن حين ظفر بالخبيث من ظفر !!

وإني لأنظر إلى نعمة الإيمان التي غمرتنا فأحمد ثمرة قوم وثبوا بالإيمان من أرض إلى أرض، ووضعوا طابعهم بقوة على المجتمع، فسرت صبغتهم من جيل إلى جيل.

على رجال الحق لا أن ينشروا عنه فقط بل أن يصعدوه من أفق إلى أفق وينقلوه من قلب إلى قلب.

فإن الباطل المتحرك على ظهر الأرض لن يوقفه إلا إيمان متحرك ناشط مقدام..!

❊ ❊ ❊

في ذكرى المولد الشريف أنظر إلى صاحب الرسالة العظمى بإعظام ودهشة وأتساءل: كيف استطاع اليتيم الفرد إعداد القوة التي فتكت بباطل المستكبر واستخلصت من براثنه حقوقاً منهوبة، وشعوباً مستباحة ؟

كيف أعاد إلى الحق رونقه بعدما تنكر، وقيمته بعدما ابتذلت ؟

إنها السيرة المعجزة التي أقلقت المبطلين، وقذفت في نفوسهم الفزع حتى ليقول هذا الرسول المظفر « نصرت بالرعب من مسيرة شهر » !!

أين من هذا الأوج، أمتنا التي استنسر في أرضها البغاث، وتألب على آجامها الثعالب ؟؟

ما أبعد هذه الأمة عن محمد ! وأضلها عن طريقه !

❊ ❊ ❊

مستقبل العلاقات بين الدين والمتدينين

تشق المذاهب المادية طريقها في الحياة بقوة، حتى ليظن بعض المتشائمين أن الأديان في معركة خاسرة! فإن جماهير كثيفة من البشر قطعت صلتها بالسماء، أو جمدت هذه الصلة في إطار يجعلها أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.

ولست مع أولئك المتشائمين في تفرسهم للمستقبل، ولكن الأمور إذا بقيت تسير في مجراها المشاهد، فإن ظلام المادية سيطبق على كل شيء، ويزحف على كل أفق.

وسيكون المتدينون أنفسهم – على خلاف معتقداتهم السماوية – هم السبب في ضياع الإيمان وفشل قضيته!

إن المذاهب المادية تستغل أخطاء خصومها، وتنفذ إلى غايتها من الثغرات الكبيرة في أفكارهم ومسالكهم.

ولا يرجع شيوع الإلحاد والانحراف إلى ما فيهما من نفع عاجل، بل إلى أن المتدينين لم يحسنوا حل ما في الحياة من مشكلات!

وبينهم نحو هذه العصور، لقد رأينا بعض ملله أنهم جعلوا من علاقة بعضهم ببعض الآخر مشكلات قاسية دامية!

فكيف يفلحون مع هذه النقائص الغريبة؟

وليس لدى العالم كله مشكلة «إسرائيل» فهي دولة قامت على أساس ديني يستهدف جمع اليهود في العالم أجمع في بقعة من الأرض ليست مجهولاً من المحاجر ولا قفراً من العمران، ولكنها بقعة عامرة بأهليها الأصلاء الذين اطمأنوا بها، واستقروا فيها من دهور.

ومع ذلك فإن الضمير الديني لدى «الصهيونيين» استباح بقسوة تشريد هؤلاء، وتدمير حاضرهم ومستقبلهم!

والضمير الديني لدى « لاسعت بين » من أوروبيين وأمريكيين حالف زميله على عيه، وعاونه على ارتكاب جريمته، وأمده بالسلاح الفتاك والمال للقوى ويصرى !

فهل هذا التدين لأعوج أهل للحياة والبقاء ؟

أو ليس هذا لعوج عذر للمتدينين كي ينبذوا الطمأنينة بالدين كله ويحاولوا اقتلاعه من جذوره ؟

إنني أدين بالإسلام، وأثق ثقة مطلقة في وجود الله وصلاحية وحيه لهداية الخلق، وقيادتهم إلى الخير والرشد

وأرمق الصراع القديم بين شتى الشرائع السماوية، فأشعر بالأسى والألم وأود لو تحدت لمرض في الحاضر أو المستقبل يعدون متمرين بين أهل لكتب كلهم، يرقى به الإنسانية، ويقف في وجه المادية العمياء ويصدوا العدوان الغشوم !

ويدهي أنه لا يقوم هذا التعاون إلا بعد استئصال الأحقاد، وتلاشي نيات السوء، وإنهاء الرغبات المحمومة في القضاء علينا وعلى ديننا، والقضاء على هذه الجرأة المستهجنة على حقوقنا الطبيعية في الحياة والاستقرار

أما مع تفاق مجموعة قليلة أو كثيرة من الدول لصغرى والكبرى على إماتة فلسطين وإحياء إسرائيل فهيهات أن يكون ذلك دلالة على خير، أو أمارة على سلام، فإن المشاعر لكامنة وراء هذا الاتفاق لا تخفى علينا، والضغائن التاريخية المتمسة حلقه تنذر بشر مستطير

إن انتشار المادية في الأخلاق والشغف بها يرجع – كما أومأنا – إلى سلوك المتدينين أكثر مما يرجع إلى ترحيب الخاصة والعامة بالكفر والإباحة والتحلل

وإن أتباع موسى وعيسى ومحمد يستطيعون كتابة صفحة جديدة مضيئة في تاريخ العالم. لكن المداد الذي تكتب به هذه الصفحة لا يجوز أبدًا أن يكون من دماء المضطهدين وعبرات اللاجئين !

أو بتعبير أصرح لا يجوز أن يكون من دماء المسلمين !

وإذا لم يفهم الآخرون هذه الحقيقة فإن الأديان سوف تستهلك نفسها في صراع دامٍ مشئوم، وسوف يفسح الطريق ويتسع فسيحًا أمام مسارع الإلحاد والردة والكفر بالله واليوم الآخر .

ذلك، ونحن نطلب كثيرًا من الناس عندما نطلب الأديان السماوية متعددة الأصول متحدة الاتجاه، فإن الله بعث أنبياءه على مر الزمان بدين واحد

والحقائق التي أراد تعليمها الناس في مجالات التربية النفسية والتعرف الاجتماعي متقاربة إن لم تكن متحدة، والمرسلون على اختلاف أممهم إخوة.

وهذه القرابة الروحية من حقها أن تجمع لا أن تفرق، وأن توقظ مشاعر التعاون والتعاطف لا مشاعر القطيعة والخصام.

وعند التمعن في تعاليم الإسلام نجد عشرات الأدلة على صدق ما ذكرنا.

فالقرآن الكريم يؤكد أن الإسلام الذي جاء على لسان محمد صلى الله عليه وسلم يتفق في أصوله وغاياته مع ما أوحى الله لأنبيائه الأقدمين.

قال تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [1].

ومعنى هذه الآية واضح، فإن العقائد الأساسية في كل الديانات التي بلغها هؤلاء المرسلون واحدة.

والديانات الباقية الآن، والتي يتبعها جمهور كثير من الناس هي اليهودية والمسيحية والإسلام.

وأتباع هذه الأديان الثلاثة ينتسبون إلى أبي الأنبياء إبراهيم، ويعتبرونه جذر الشجرة التي تفرعت مع امتداد العصور، وأنبتت موسى وعيسى ومحمد.

وكان ينبغي أن يتفق الكل على نشر التوحيد، وتعريف الأمم الجاهلة برب العالمين ولكنهم للأسف لم يتفقوا.

والقرآن الكريم في الآية السابقة يوصي المسلمين بأن يتعاونوا مع غيرهم على نشر هداية السماء ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾.

والواقع أنه مما يزري بالضمير الديني أن تنشب العداوة بين المتدينين على اختلاف مللهم، وأن تتسع بينهم هوة الخلاف مع أنه جدير بهم أن يتعاملوا فيما بينهم بالود والعدل والرحمة.

والقرآن الكريم يذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء مؤكدا لما قبله لا ناقضا له، وليس هذا في أصول الإيمان وحدها، بل في مكارم الأخلاق، وفروع العبادات التي لا يصح التدين ويتم الكمال البشري إلا بها.

---

(١) الشورى: ١٣

خذ مثلا هذه المجموعة من التعاليم التي وصى الله بها بني إسرائيل على ألسنة أنبيائهم الكثيرين ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [1]

إن هذه التعاليم كلها هي نفسها التي أمر الإسلام بها

فعبادة الله وحده، والإحسان إلى الوالدين والأقارب، ورعاية الأيتام وإعانة المساكين، وإلانة القول للخلق الله كلهم، أداب لابد للمؤمن منها قال الله في كتابه ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ﴾ [2]

والصفح عن المسيء ومقابلة الشر بالخير، والصفح الجميل وهي تعاليم بارزة تكون في خطبة عيسى عليه السلام وهي بعض أتباعه في الموعظة التي جاء فيها «ومن لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر»

إن هذه الروح المتسامحة في سماحتها، المطهرة من دنس الحقد هي التي جعلت نبي الإسلام يقول «أمرني ربي أن أصل من قطعني، وأن أعطي من حرمني وأن أعفو عمن ظلمني»

والمفروض أن هذا اللون من السلوك العالي مقصود به تدريب الإنسان على فعل الخير وشد الكمال المطلق إيثارا لما عند الله من مثوبة، وإحراز مرضاته الأعلى دون نظر إلى ما يستحقه المعتدي من قمع، أو ما تفرضه العدالة من قصاص

لكن عندما يستشري الشر وتضيع الحقوق وتبتز الأفراد والجماعات تحت وطأة الظلم فلابد من استعمال الشدة

والمسيحية والإسلام في ذلك سواء

فعيسى صاحب الكلمات الرقيقة السابقة يقول «ما جئت لأحمل سلاما بل سيفا»

والقرآن الكريم يقول ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ [3]

---

(1) البقرة ٨٣

(2) النساء ٣٦

(3) الشورى ٣٩ - ٤١

أي لا حرج على أي مؤمن أن يقاوم المعتدي ويكسر شوكته

والآداب الثلاثة توصي بحفظ العرض، وضبط العلاقات الجنسية في حدود الأسرة التي توثقت بكلمة الله

والنهي عن الزنا أحد الوصايا العشر التي تواصى بها العهد القديم والجديد

ولم يقع أن الإسلام في سبيل صيانة الأعراض والدماء والأموال أحيا الأحكام السماوية التي تناستها الأمم السالفة، بل إنه لام اليهود لأنهم يريدون الخروج على تعاليم التوراة، وكان ينبغي أن ينفذوا حكم الله في هدوء مهما كان الحكم صارما

قال تعالى: ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك** ﴾ (1)

والقصة وردت في يهودي اعتدى على عرض امرأة، وكان لابد من رجمه حسب أحكام التوراة. ولكن اليهود تحاشوا حكم كتابهم فأمر نبي الإسلام بتنفيذه (2)

وحديث القرآن الكريم عن التوراة والإنجيل يستدعي النظر والتروية، فهو يقول عن التوراة ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا** ﴾ (3)

ويقول عن الإنجيل ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور** ﴾ (4)

ثم يقول الله جل شأنه عن القرآن الكريم ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** ﴾ (5)

ومعنى الهيمنة المذكورة أن القرآن نزل بعد التوراة بنحو ثلاثين قرنا، وهي فترة تطورت فيها البشرية تطورا يستدعي بعض التغيير في الشرائع الفرعية التي تحكم العلاقات وتنظم الطوائف، وتسير سياسة الحكم والمال وفق قواعد لا تسمح بالفوضى والهوان والبأساء والضراء

---

(1) – المائدة 43

(2) أعجب ما يتعجب منه المسلمون وهم أهل الكتاب الآن أن هؤلاء لا يريدون تنفيذ ما جاء به موسى وعيسى على حين يتمسك المسلمون به

(3) – المائدة 44

(4) – المائدة 46 (5) – المائدة 48

وذلك أن وضع الإسلام دائرة الكلام فيه، وأتى فيه بجديد، لا يناقض أصول الديانات السابقة بل يصون هذه الأصول أو لا يخدشها.

وليس من أصالة الرأي أن نطلب من الإسلام الجمود مع تطور الإنسانية فإن الملبس الذي يصلح لصبي صغير لا يصلح مطلقاً لرجل كبير.

وعصرنا الحاضر يحتاج إلى أن نسير حياته الاجتماعية:

أولاً: على الإيمان بالله وحده، وهو ما تواصت به جميع الرسالات السماوية قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1]

ثانياً: على الإخلاص في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو ما شرعه الله لكل الأمم على اختلاف الأزمنة قال الله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة﴾[2]

ومما لا شك فيه أن الصلاة شعيرة مهمة لتصفية النفس الإنسانية ووصلها بالسماء، وأن الزكاة فريضة تدعم التكافل الاجتماعي وإقرار الأخوة العامة بين البشر.

ثالثاً: حراسة الفضيلة ونشرها، وكره الرذيلة ومحو جرائمها وهذه هي حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي شرعت في كل دين، وكلف بها جمهور المؤمنين.

وقد خاصم عيسى عليه السلام اليهود وندد بهم لأنهم كما عبر القرآن: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[3]

رابعاً: معاملة البشر كافة بضمير رحيم وخلق فاضل. وقد ندد القرآن الكريم بأن بعض المتدينين لا يبالي بإساءته من ليس على دينه، وسماحة خلقهم فقال: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾[4]

خامساً: إشاعة العدالة والرحمة والسلام في الأرض. وهذه تعاليم شاعت في الكتب السماوية كلها، ويسعى أن تتسق جهود المؤمنين لنشرها ودعمها قال تعالى ممتناً على البشر في بعثة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين

---

(1) الأنبياء: 25. (3) المائدة: 79.

(2) البينة: 5. (4) آل عمران: 75، 76.

لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (١) وقال ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ (٢)

ومن الحكمة والعلم ألا ندين بنسخ معتقد من كتب واحد، وأن نسعى بهدوء لاستعراض ما بقي من أسسها من فروق، وجمع أشتاتها على وحدة فكرية ومذهبية منظمة.

إن ذلك مستحيل بداهة، ولكن يمكن أن نرى جوانب من المشتركة التي تقرب ولا تباعد، وترجح السلام على الخصام، والألفة على الوحشة، وتفسح مجالا للتعاون على البر والتقوى!

إنه مع ضيق الحق، وفساد الظنون وتفاهة التفكير، يمكن أن يقتتل أبناء الدين الواحد، وتتشعب بهم عشرات السبل فلا يلتقون أبدا.

ومع سعة الحق، وشرف النفس، وسلامة الرأي، يمكن أن يتعاون أتباع رسالات مختلفة، ويقدموا للإنسانية خيرا كثيرا، مع بقاء كل طرف منهم متمسكا بدينه حريصا على تعاليمه.

وأحب أن ألفت النظر إلى نوع منكور من التلاقي الواقع في بعض المجتمعات!

هناك تلاق بين ناس ينتسبون للإسلام نسبة إلى آبائهم، ونفر هم منسلخون عن أديانهم موضوعا وإن انتموا إليها شكلا، وما جمعتهم إلا الشهوات والمآرب الدنيا.

هذا التجمع لا يدل على سماحة، ولا يصح الاستشهاد به على انتهاء التعصب الديني!!

إنه شارة انحلال ديني عام، وليس شارة تعاون مشكور.

إن الذي نبغيه أن يبقى كل ذي دين محتفظا بدينه، فلا ينسى ربه ولا نبيه ولا يرخص عقيدته، وينظر إلى مخالفيه نظرة لا حقد فيها ولا تمرد ولا حيف ولا جفاء!! بل نظرة تقوم على البر والعدالة والإحسان.

وعندي أنه مما يعين على ذلك في الظروف العالمية القائمة أن يجتمع مؤتمر مسكوني مسيحي آخر، ليعطف على عرب فلسطين في محنتهم، وليمحو أثر المؤتمر المسكوني السابق الذي أبدى عاطفة مستغربة نحو اليهود الذين شردوا المسلمين عن بلادهم، ويزعمون أنهم أولى بها منهم، ويريدون بناء وطن لهم على [illegible]

(١) النحل ٦٤ (٢) فصلت ٤٣

إن ذلك – لو تم – سيكون بداية إغلاق الطريق أمام المدنية الزاحفة على كل شيء، المستهينة بكل قيمة، المحتقرة لرسالات السماء على سواء.

أما الذي بقي فالاستعمار يحرك وراءه أحقاد العصور الخالية، ويحرك اليهود على [illegible] أن [illegible] و[illegible]، وإن النار التي أشعلها ستحرقه قبل غيره، وسيندم حين لا مكان لندم.

إننا نعلم أن الإسلام أعرض سلاماً شريفاً فهل يقبل هذا العرض أم يرفض ؟

وأعرف أننا في فترة من تاريخنا لا نحسد عليها

ولكننا نعلم أنه سوف يحترق [illegible]، وسوف يحاسب من أعان على ظلمه، ومن تركنا نحتفظ بحق الحياة

إننا لا نطلب من مؤتمر مسكوني جديد أن يسوي [illegible] أن يكف عنا الأذى ويمنع عدوان أتباع حاقدين

ما لإيعاز إلى بعض الطوائف [illegible] أن تعرقل الكفاح العربي وأن تصف الكفاح الفلسطيني [illegible] قبيحة [illegible] ولن ننسى لأصحابه

فهل نجد سميعاً لهذا النداء ؟؟

* * *

التبشير الأمريكي يضغط على اندونيسيا

كان تصوري لمستقبل العلاقة بين الإسلام والمسيحية واضحا، قريبا، ميسور الفهم والتطبيق: يخضع لقاعدة عادلة محترمة: أن نتعاون على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

ولم أخترع هذه القاعدة من أفق بعيد.

فإن الإسلام الذي أثرته وأحببته، يقيم الزوجية بين رجل مسلم وامرأة من أهل الكتاب، يرعاها، ويحنو عليها، وينشأ بينهما عواطف الود والرحمة، مع بقاء كل منهما على دينه!

فكيف بعد ذلك تضيق أرض الله الواسعة بتجاور دينين، وائتلاف فريقين!

لكن هذه المشاعر التي نبعت من سماحة الإسلام لم تلق التجاوب المرتقب!

فإن الطرف الآخر - خصوصا الأوروبيين والأمريكيين - كان سوداوي المزاج، جياش الأحقاد، لا يكن للإسلام وأتباعه قبولا ولا سلاما..!

وعندما واتته القوة بغزو أراضي المستضعفين وضع السيف موضع الندى، ولم تواته فرصة للإجهاز على الأمة الجريح إلا اهتبلها!

وتاريخ الاستعمار الغربي يقطر بالدم الحرام، وتؤلف صفحات متخمة بالفساد والفوضى.

وقد أحس كثير من العقلاء أن هذا الاستعمار استغل المسيحية أسوأ استغلال، وأنه في سبيل نزواته الحقيرة لم يتق الله، ولم يرع حتى نفس الوحي الذي ينتمي إليه.

وقد ظهر ذلك في العلاقات الداخلية بين المسيحيين الغربيين أنفسهم، فإن الكاثوليك افترسوا البروتستانت حيثما كانوا، وسجلت الحروب الدينية مآسي تقشعر منها الجلود.

كما بدا أن التفرقة العنصرية تفرض نفسها باسم الدين، وتقسم أبناء آدم قسمة فاجرة تجعل الضعة قرين أحدهم أبدا، وإن تساوى مع أخيه في الوطن والدين!

فإذا كان ذلك مسلك القوم إزاء بعض منهم فماذا يتوقع من مسلكهم إزائنا ؟

هل نتوقع إلا العداوة الضارية والخصومة القاسية ؟

أقول ذلك وقد انتهيت من مطالعة نداء حزين وجهه مسلمو أندونيسيا إلى إخوانهم في أرجاء العالم كله

إنهم يشكون من تحالف تم بين الكنائس الكاثوليكية والكنائس البروتستانتية يستهدف تنصير المسلمين بالدس والرشوة والحيل

وهذا التحالف يعتمد على سند لا ينفد من المال الأمريكي، والدعاية الخادعة

وقد مهد لهذا الهجوم الصليبي الحديث أن أندونيسيا عاشت أكثر من ثلاثة قرون تترنح تحت وطأة الاستعمار الهولندي المتعصب الجائح

وهو استعمار استنزف مواردها، وعرق عظمها، وبث المبشرين في شرقها وغربها

فلما جاء الأمريكيون في أعقاب هذا العهد فتحوا مسالك الأطماع، [illegible] ولما رأى [illegible] واستعانوا بهذه الوسائل على حرب الإسلام ومحو عقائده فقد يصلون إلى شيء من النجاح.

إن عددا من أبنائهم نجحوا في تنصير الألوف من أبناء المسلمين [1]

وكان الإسلام في سلامته من الاستعمار الهولندي قد نبا [illegible] زحف [illegible] حربه، وزاد ضراوة، وهو الزحف الماركسي الذي يستأصل الإيمان كله

وقاوم المسلمون المتعبون الضربات التي تنهال عليهم من هنا ومن هناك، ولا يزالون يدافعون عن دينهم وكيانهم ويومهم وغدهم

ولكن التبشير الأمريكي [illegible] في حرب الهجوم وكأنما ظن أن الأمور قد تمهدت له، وأنه واصل حتما إلى القضاء على الإسلام والمسلمين

وهذه الزعقة المحزونة في [illegible] جعلت مسلمي أندونيسيا ينادون بوقف الخطر [illegible] وتنبيه المسلمين في كل مكان إلى مصدره الآثم

وعندما درست الأحوال في أندونيسيا، وتتبعت مراحل هذا الغزو الناشب وجدت أن الخطر [illegible] في موضوع [illegible] البلاد شره

---

(١) يظهر أن [illegible] الصفحة التي [illegible]
[illegible] يوسف

و « سوهارتو » رجل مسلم، يرأس دولة تعداد المسلمين فيها قريب من مائة مليون

ولكنه لم يتدخل في القضية بهذه الصفة!!

لقد تدخل فصرح بعقد مؤتمر الأديان يحول دون وقوع نكبة قومية عامة!

وأملت الجهات المشتركة في المحادثات أن تنهي التوتر بإصدار بيان أو ميثاق يرتضيه زعماء الأطراف!

وقال رئيس الحكومة منبهاً إلى خطورة الموقف إنه يخشى من زعم الكاثوليك والبروتستانت في التوسع على حساب غيرهم، وإنه يجب على كل فريق أن يتسامح مع الآخر، وألا يستهدف المعتنقين لدين ما، لتحويلهم إلى دين آخر

ولكن رفض زعماء النصارى بعد انعقاد المؤتمر أن يعقدوا اتفاقاً مع المسلمين، وأعلنوا أنهم لن يكفوا عن التبشير

والواقع أن روح التحدي والاستهانة كانت مسيطرة عليهم من قبل، ولو تأملنا المدى الذي بلغته الصلات بين المسلمين والمسيحيين في بعض المناطق بدون سبب إلا بضغط قادة الهجوم الصليبي الجديد، وذلك ما يستشفه القارئ من كتبهم الذائعة

ففي كتاب « التبشير في إندونيسيا اليوم » تأليف الدكتور « ... » نقرأ في صفحة ٨٥ هذه العبارة « قامت بعض كنائس جزر الملوك وفي خارجها بروح من الألفة والأخوة تربط بينهم وبين المسلمين!

لكنهم بالرغم من ذلك يعيشون معيشة محزنة لأن هذا الوئام يشل قواهم ويحد من نشاطهم، فلا يؤدون واجبهم التبشيري تجاه جيرانهم المسلمين. إنه من الممكن أن تتمكن البروتستانت في جزر الملوك من التغلب على جميع المصاعب المرة التي لا بد أن يلاقوها في ميدان التبشير!!

والعبارة واضحة في عدم صداقة المسلمين، وفي محاولة فتنتهم عن دينهم والحرص على تحمل كل ما ينشأ عن محاولة التبشير من صعاب ومرارة!!

فكيف ينجح مؤتمر يدخله رجال الكنائس بهذه الروح الشريرة؟

وقد حاول السيد محمد ناصر وغيره من زعماء المسلمين أن يكفكفوا من هذه النزعة العدائية، وأن يتفقوا مع رجال الكنائس على طريق العدل والإنصاف

وأندونيسيا تعاني مشكلات جمة، فإن الحاكم السابق « سوكارنو » فتح أبوابها لجميع التيارات التي تزلزل الإسلام وتفتن أتباعه

ويمكن للشرق والغرب على سواء من ترويج المبادئ التي تصرف الأجيال الناشئة عن دينها، وتغريها بالفرار منه!

وبدأ وجود صلابة من بعض الفئات تنوي استعمال السلاح، وامتلأت المنافي بالمجاهدين، والقبور بالشهداء!

وقام سباق هائل بين الشيوعية والصليبية، أيتهما ترث الجسد المنكوب وتستولي على حاضره ومستقبله؟

والمسلمون الحيارى بعد ما نجوا من الاستعمار الهولندي يقعون في استعمار داخلي شرس وأنكى

وشاء الله الكبير أن تفشل الشيوعية في الاستيلاء على مقاليد أندونيسيا وأن يستنقذ المسلمون أنفسهم منها بعد مذابح ذهب فيها مئات الألوف

وبقيت المسيحية في ساحة تناثرت فيها الأشلاء، وتشابكت فيها برك الدماء

بقيت لتطاول الإسلام، وتحاول النيل منه مستعينة بالنجدة الأمريكي والعون الأجنبي

ونحن لا نبتئس بهذا الموقف، فليس جديدا!

ولا نفرق من نتيجته فقد جرب القوم هذا السلاح معنا فانقلب مفلولا

وقد كنا نريد أن تسير العلاقة بين الدينين في نهج أصفى وأرضى، ولكن غيرنا يصر ويأبى، فماذا نصنع؟

لا بد من الصمود لهذا الهجوم وقبول مرارة الوضع الحاضر حتى الوضع الذي يغري خصومنا بالضرب وهم آمنون من الثأر.

ولعل الغد القريب أو البعيد يأتي بالفرج المرقوب!

والتساؤل: ماذا كان مصير مؤتمر الأديان الذي فرح بحضوره الناس يوم تم عقده، وانتظر من ورائه سلاما بين المسيحية والإسلام في أندونيسيا؟

لقد كتب الحاج «مصطفى بشر» رئيس تحرير مجلة الأمة رسالة إلى الشيخ أحمد حسن الباقوري مدير جامعة الأزهر يبثه فيها مصير ذلك المؤتمر، ويصف بعض ما لاقى المسلمون فيه من تجنيهم وحيفهم يقول

لقد أحبط النصارى من الكاثوليك والبروتستانت مؤتمر الأديان المنعقد في ٣٠/١١/١٩٦٧ بجاكرتا لأنهم لم يقبلوا مشروع الميثاق الذي عرضته الحكومة ولم

يريدون التنازل عن موقفهم المسيء وذلك أنهم لا يشعرون إلا بحقوقهم الخاصة، ويرفضون الاعتراف بحقوق غيرهم

والغير هنا هم جمهرة السكان في أندونيسيا المسلمة !!

ويقول رئيس تحرير مجلة القبلة في معرض الشكوى من مطالب تلك القلة المتحدثة كلاما طويلا نجمله في الحقائق الآتية

( ) – يرفض الكاثوليك والبروتستانت أن تكون القوانين السائدة مستمدة من الشريعة الإسلامية ولو كان تطبيقها مقصورا عليهم ! وقد اعترضوا على الدكتور محمد ناصر وهو يقرر ضرورة تنفيذ الشريعة الإسلامية بالنسبة إلى المسلمين إلى جانب الاعتقاد في إله واحد.

(ب) يحاول هؤلاء بناء كنائس في المناطق الإسلامية الخالصة على أساس أن وضع طابع مسيحي على الأرض تمهيد لتنصير أهلها مستقبلا وهذا التصرف واضح الاستثارة لمشاعر المسلمين، وقد اعترضه إخواننا بشدة

(جـ) يشن التبشير الأمريكي حملات سفيهة على صاحب الرسالة الإسلامية ولا يفتأ يتناول شخصه الكريم بالإهانة والافتراء والتجريح

والغريب أن المسيحيين لجئوا إلى إسقاط المؤتمر بتقديم طلب غريب، فقد اقترحوا حضور ممثلين للأحزاب والمنظمات غير الدينية تشارك في بحوثه ومقرراته

ولا ندري كيف يشترك الهندوكيون والشيوعيون ومن على شاكلتهم من الوثنيين والملاحدة في مؤتمر لتنقية العلاقات بين المسلمين والنصارى !

وقد أبت الحكومة الأندونيسية الإصغاء إلى هذا المقترح لأنه يريد الفشل للمؤتمر، ويضعف الآمال في الوصول إلى حل يقر الأمن في البلاد

وأخيرا قال الجنرال « سيماتوبانج » وهو أمريكي النزعة والوجهة: مهما اتفق عليه ممثلو الأطراف في هذا المؤتمر فلن يكون اتفاقهم مقيدا لمجلس الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية، ولن يلزمها العمل بمقتضاه لأن كلا منهما له استقلال تام وحرية كاملة

وبهذا التهديد أصبح نقاش المؤتمر لغوا، وجهده باطلا !

وكانت الحجة البارزة لقادة التبشير الأمريكي أنهم ينفذون أوامر الله وأن التبشير جزء من حرية التدين..

ونحن نقف هنا لنحسم هذه المخادعة الصغيرة

إن نحن المسلمين أول من يقر حرية الدين على ظهر هذه الأرض

وأول من يرحب بالجدل المفترح، والحوار المعمق في قضايا الدين كلها، أصولا وفروعا

وأول من يكسر القيود، ويزيح العوائق التي قد يضعها البعض على حرية العقل والضمير

إن نحن المسلمين نعد جو الحرية [illegible] ودخول الناس أفواجا في دين

إن الاستبداد الفكري هو العدو الأول لنا

إن البيئات التي تحرس الخطأ وراء أسوار من الاستبداد، ولكنها هي التي ستقضي علينا

ومن المضحك أن يقول رجال التبشير الغربي إنهم طلاب حرية دينية، وأن يتهموا مسلمي أندونيسيا بالتنكر لهذه الحرية أو الضغط عليها

إن وظيفة المبشرين معروفة، لمسناها في بلادنا، وسمعنا أنباءها في كل بلد نزلوه

ولو وصفناها بأنها سرقة للعقائد ما عدونا الحقيقة

لقد جاءت مبشرة أمريكية إلى أسيوط، واستطاعت أن تربي في محضنها مئات الصغار من أولاد المصريين، نشئوا على النصرانية، فهل هذه هي الحرية المطلوبة ؟

وفتحت المدارس الأجنبية تعلم أبناء [illegible] حتى ينالوا أعلى الشهادات من جامعات الغرب، ثم عادوا ليحكموا البلاد لحساب الاستعمار

وفي ظل هذا الحكم، وفيه، وضعت عوائق هائلة حتى لا ينتشر التعليم بين المسلمين، وحتى لا يرتفع مستواهم فيثقوا في أنفسهم وبلادهم. فهل هذه هي الحرية المطلوبة ؟

وفي البلاد التي يرتفع فيها المستوى الأدبي للمغلوب، على الغالب، وللمقهور، على القاهر، كأريتريا بالنسبة إلى الحبشة، ماذا صنع التبشير ؟

إنه يعمل على السيف في إخراس الألسنة، وتمهيد الأرض بالسلاح لاستقبال دين جديد، وترك ما تقدس وتعشق من دين، فهل هذه هي الحرية المطلوبة ؟

إن الحرية التي يتحدث عنها أولئك المبشرون هي خلو المكان من الشرطة حتى يستطيع المعتدون إتمام جرائمهم في اطمئنان.

فلا غرو إذا نادى مسلمو أندونيسيا بالجهاد المقدس لوقف هذا الاعتداء المبيت على أنفسهم وبلادهم.

أو كما يقول الحاج مصطفى بشير في عبارات حماسية مشكورة: «إنه يدافع بعزم وحزم لنيل النصر أو الشهادة، ملبياً دعوة الله، وتتحرك أفواجه أفواجاً بلا انقطاع لإقامة الدين على أسس متين، مستمسكين بالعروة الوثقى في اليسر والعسر، باذلين الأنفس والأموال في سبيل الله، صامدين في ميادين الكفاح إلى آخر رمق حتى يحق الحق ويبطل الباطل».

ومرة أخرى نسأل نفسي وغيري: ألا يمكن وضع حد لهذه الخصومات المستحكمة بين الإسلام والنصرانية؟

لقد أعلنت مراراً عن رغبتنا نحن المسلمين في إرساء العلاقات بين الناس على قواعد معقولة، تحقن الدماء، وتفتح صفحة جديدة في تاريخ العالم!!

* * *

من خمس عشرة سنة تفضل السيد وزير الأوقاف الشيخ أحمد حسن الباقوري فأنابني عنه لحضور المؤتمر المسيحي[1] الإسلامي المنعقد في الإسكندرية.

وكانت فكرتي التي درستها وعرضتها على نفسي أن هذا التلاقي خير للعالم أجمع إذا ساده الإخلاص وصلحت فيه النيات.

وإنه لكسب جسيم كريم أن تحط عن كواهل الناس أحقاد طالت أعصاراً، وأن تضع الحروب الدينية أوزارها، ويتعاون المتدينون على إنشاء عالم أدنى إلى السلام وأبعد عن الشحناء.

إننا معشر المسلمين نؤمن بالوحدانية المطلقة، وإذا كان المسيحيون يجنحون إلى التثليث فهم ينتمون به إلى التوحيد - كما يقولون.

أي ينتهون إلى أن للعالم رباً لا شك في حياته ومجده.

وأن الناس صائرون إليه بعد الموت ومحاسبون أمامه.

وأن العباد في هذه الدنيا يجب أن يتعاملوا على أسس من المصالح المرعية والحقوق المكفولة.

---

(1) في كتاب «كفاح دين» بيان هذا المؤتمر، وشيء من التفاصيل المهمة.

وأن الظلم مرتعه وخيم، وأن مسالك الرذيلة لا تليق بعباد الله الصالحين، وأن .. وأن .. إلخ

إننا مدعوون ولا أقول مجبرون إلى أن نلقى الخير بخير أشمل، وأن نرد التحية بأحسن منها

والتعاون المقترح بين المسيحيين والمسلمين في نطاق الإنسانية الرحبة لن يمنع أحد الفريقين من القيام بواجباته الدينية الخاصة

بهذه العواطف النقية ذهبت وتحدثت

وقد استمعت إلى الجانب الآخر فوجدت كلاما لا بأس به

ولكن الصخرة التي اصطدم بها هذا المؤتمر وتحطم عليها، والتي سوف تصطدم بها جميع المؤتمرات المتشابهة، تتمثل عندها في السياسة الصليبية التي تهيمن على أفئدة الغربيين وعقولهم

فهم يريدون سلاما يخزينا، ويزري بديننا، ويحط من قدرنا !

إنهم بطريقة مستهجنة سمجة يريدون تهويد فلسطين، وتشريد أهلها، ولا يشعرون بحياء من المصارحة بهذه الجريمة النكراء، ثم هم في إفريقيا حيث يسود الإسلام يقيمون حكومات ليست صورة حقيقية ولا مقاربة للشعوب المحكومة، بل حكومات مطلوب منها أن تمحو الإسلام وأن تتجاهل الكثرة التي تعتنقه، وأن تحارب لغته وتقاليده وجامعته !!

وقد اطمأنت إلى هذا الشكل من الحكومات، ومنحته الاستقلال وأعطته الجلاء، بعد ما ضمنت ولاءها في المنظمات العالمية الكبرى .. !

وهذه السياسة لا تلتقي مع الآخرين على مثل رفيعة تستمد وجاهتها من طبيعتها المبررة كلا، إنها تعتمد على القوة، وما تغري به القوة من كبرياء وطغيان وما تحدثه من فضائح ومظالم

ولذلك نرى جماهير الغربيين في صفوف الغارة ووسطها بعثت بهم مستوطنون البيض، والضمير العربي صامت

ومعنى هذا أننا نحن المسلمين لا نتعامل مع مسيحيين يحسنون الحب والتقوى حتى وفق معتقداتهم نفسها، بل نتعامل مع ناس قرروا أن يدوسوا مبادئهم ثم جعلوا تحت لواء المسيحية يريدون أن تخلع على ديننا، وتقض الذمة في شئوننا كلها !!

فهل يقبل عاقل الاستسلام لهؤلاء ؟

إنا مضطرون لمقاتلتهم بكل سلاح ورد طغواهم بكل وسيلة

وبقاء الصنائع القديمة يعود وزرها عليهم لا علينا

ولا لفت النظر هنا إلى أمور ذات بال في الأحداث الأخيرة

إن سقوط هذه الملكية يطوي الطريق إلى عرشها الأمينة بسرعة مذهلة، وإذا كانت عقائد لم تزل بعد، فإن ما يرتبط بها من عادات وتقاليد تتهاوى شيئاً فشيئاً

ودور العقائد نفسها سيجيء في نهاية المطاف.

والغريب أن الدول المسيحية تؤثر أن يفسح الطريق أمام الشيوعية ولا يسمح للإسلام بحياة!!

وحتى يكون كلامي مقترناً بأدلته أذكر هذه الحقائق

عندما كافح العرب الاستعمار البريطاني جنوبي اليمن، وفرضت الظروف على الإنجليز أن يرحلوا، آثر المستعمرون الراحلون أن يسلموا البلاد إلى الجبهة القومية، وهم يعلمون ميولها الشيوعية المعرقة، وأبوا أن يسلموها لجبهة التحرير الموالية لمصر

وعشية الرحيل شن القوميون الحمر غارة على رجال الجبهة وأهليهم وبيوتهم مع صحفياتها مئات القتلى في عدن من الأطفال والنساء والرجال

حتى تعب الناس من تشييع الجنائز واستخراج الجثث الهالكة تحت الأنقاض

هكذا خرج الإنجليز بعدما جعلوا الشيوعية ترثهم لا الإسلام!!

وفي الهند، عندما استعمرها الإنجليز بعد الخلافة فوجدوا تحت وطأتهم مسلمين وهندكاً، فقرروا دون تردد أن يرجحوا كفة الوثنية على الإسلام

يقول السيد أصغر حيدر السفير الباكستاني في القاهرة: إن أصابع التاريخ تشهد بالأعمال الوحشية والقسوة التي تعرض لها المسلمون على أيدي البريطانيين، إذ كانوا يشنقون الناس بعد محاكمات سريعة، ويطلقون عليهم النار لأسباب تافهة، ويسلطون عليهم ضغوطاً سياسية واقتصادية مرهقة

وقد استهدفت السياسة البريطانية أن تجعل المسلمين تحت تصرفها المطلق، فلم يمض وقت طويل حتى ألفى المسلمون أنفسهم مجردين لا من السلطة والنفوذ وحسب، بل مجردين من ثرواتهم وما ملكت أيديهم..!!

ولم تعد اللغة الفارسية لغة رسمية للبلاد، من أهم شأنها – لأنها تمثل وعاء الثقافة الإسلامية هناك – وأميتت العمل بالقانون الحقوقي الإسلامي، وحرفت الشريعة الإسلامية، وأنكر على أي مسلم أن يشارك في حكم البلاد (1).

ووصف الشاعر محمد إقبال هذه الحال فقال: "لقد اعتبر البريطانيون المسلم متسولا".

ومضى الإنجليز في هذه الخطة قرنا بعد قرن، حتى وقر في نفوس المسلمين الهنود أن الاستعمار البريطاني يترصد للإسلام وأمته في كل مكان، ويحاول الإيقاع بهم حيثما وجدوا.

وقد لخص كاتبان هما "دورد فونسون" و"ج. ت. جرانت" الوضع كما يأتي:

"لقد أصابت السياسة الإنجليزية خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى الكثير إلى نفوس المسلمين، فقد ابتلعت الدول الأوروبية البلدان المحمدية، واحدة تلو أخرى.

وكان البريطانيون إما مشاركين مشاركة مباشرة كما حدث في مراكش وفارس، وإما موافقين بنصيب كما حدث في طرابلس.

وقد عدت حرب البلقان التي نشبت 1912 – 1913 جزءا من هجوم عام شنه الأوروبيون على الإسلام ... إلخ".

وظهر من نتائج الإنجليز في هذا أنهم عدو الإسلام ونصير الوثنية.

أما في فلسطين حيث نشب النزاع بين الإسلام واليهودية فإن دور إنجلترا قد تحدد من غير مواربة، فقد تحركت بكل ما تملك من دهاء وسلاح إلى جانب اليهودية ضد الإسلام والعرب.

وإنجلترا مثل صادق لسائر دول الغرب الصليبي، فإن هذه الدول على استعداد مطلق لمحاربة الإسلام ومساندة أي خصم له.

والعجيب أن المسلمين لم يفطنوا لهذه الحقيقة ولم يحذروا لها حذرهم، بل قيل عنهم بوقاحة إنهم متعصبون.

ولا يحسن أن نعزو هذا الحقد في الخصام ونحصره في العصور الماضية لظروف طارئة، وإن العصور الوسيطة امتلأت بآثار هذا التعصب العنيف.

ومن المؤرخين من يرجع هجوم التتار على الإسلام إلى تحريض الصليبيين لأولئك الهمج، ومعاونتهم لهم في تدمير الإسلام حكومات وشعوباً

وعلى أنه حين نزل بالمسلمين من كروب وأهوال على أيدي أولئك المغيرين بعد من الأحداث الغريبة في الدهر، لكن الذي يثير الدهشة حقاً شعور الشماتة والتشفي لدى طوائف النصارى المقيمين بين العرب وهم يرون إخوانهم الموحدين يهانون ويذلون[1]

يقول ابن كثير في الجزء الثالث عشر من كتابه «البداية والنهاية»: أرسل هولاكو وهو نازل على حلب جيشاً مع أمير من كبار رجال دولته يسمى «كتبغا نوين» يريد دمشق، فدخلها الجيش في أواخر سنة ٦٥٨ هـ آخر صفر، وكان هولاكو قد كتب أماناً لأهل البلد، قرئ بالميدان الأخضر، وشاع بين الناس خبره

إلا أن الناس كانوا على وجل من أن يغدر بهم، فكم من أمان بذله التتار ثم خاسوا به!

ووقع المحذور، فما هي إلا أيام حتى استحر القتل في وجوه البلد، وأخذ الخراب يسري في أرجائها، ولم يدع التتار مدينة إلا هدموها، ولا برجاً إلا خربوه

ثم ولى الفاتحون أحد قوادهم حاكماً على دمشق بعد أن دخلها من دخلها، وكان اسم الحاكم التتاري «إبل سيان» يقول ابن كثير: وكان عظيماً معظماً لدين النصارى، فاجتمع عنده أساقفتهم وقسوسهم فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، وصارت لهم به دولة وصولة

بل إن طائفة من النصارى ذهبوا إلى هولاكو حاملين معهم الهدايا والتحف، وقدموا من عنده ومعهم أمان لطائفتهم

ودخل الوفد العائد من باب «توما» وهم يحملون شعارهم

ومعهم ثياب فيها خمر، ويرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازونه في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم

ودخلوا من درب الحجر، فوقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان ورشوا عنده خمراً وكذلك على باب مسجد درب الحجر الصغير والكبير!

واخترقوا السوق حتى وصلوا درب الربحان أو قريباً منه، فوقف خطيبهم فوق دكة

(١) - أثبت المؤرخ الإسلامي الكبير الأستاذ محمد علي نصب هذه القضية في كتابه «من الحروب الصليبية إلى حرب السويس»

ذلك في عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله فإنا لله وإنا إليه راجعون »!

ثم يقول ابن كثير « وكان في نيتهم لو طالت مدة التتار أن يخربوا كثيرا من المساجد وغيرها.

ولما وقع هذا اجتمع قضاة المسلمين والفقهاء والشهود، فدخلوا القلعة يشكون هذه الحال إلى النائب « ابن سباي » فأهينوا وطردوا وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم .. »!!.

لقد عوملوا على الطريقة الاستعمارية المشهورة الويل للمغلوب

وكما قلت ليس عجيبا أن يفتك الوثنيون بالموحدين على أشنع الصور، ولكن العجب أن يشترك النصارى في ذلك، أو يشمتوا ويفرحوا من بعد!!

ولقد عاشوا أعصارا مع المسلمين آمنين في ذمتهم ظافرين بلون من الحياة أهدأ وأنعم مما ظفر به البروتستانت في جوار الكاثوليك

أجل، إن نصارى الشرق في جوار المسلمين كانوا أسعد حالا من إخوانهم في أوروبا نفسها

فلم كل هذا الغل والرضا بمصائب المسلمين؟

واليوم تعمل الحراب الإسرائيلية في أحشاء العروبة والإسلام، فمن الذي يمسك بالحربة ويحركها؟ الاستعمار العالمي

إني أستعرض الآلام القديمة والحديثة ثم أذكر قول الشاعر

كل خليل كنت خاللته لا ترك الله له واضحة !!
كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة !!

ومع كل ما حوى التاريخ من سخائم تحمر أو تصفر لها وجوه المعتدين فنحن مستعدون أن ننسى، وأن نفتح مع القوم صفحة جديدة لعلاقات يسودها العدل والبر

فهل يعقلون؟

أغلب الظن أن أضغان القوم عليا لن تبلى

إننا نحن المسلمين محكومون في نظرنا إلى اليهود والنصارى بأمرين يوجبان السماحة والاعتدال.

أو بهما أنا مصدقون بالرسالات الأولى ومكرمون لأنبيائها

و للآخرين نحترم الفكر الإنساني، ونقيم الإيمان على حرية الإرادة ونعطى مجتمعنا في الرأي، الحقوق التي لنا، ولا نرميهم إلا بالواجبات التي علينا

وقد توارثت أجيال المسلمين هذه المعاني حتى أصبحت تقاليد مقررة في مجتمعاتهم السابقة واللاحقة

إلا أن أهل الكتاب، أو نفر كبير منهم، يستكثر علينا حق الحياة، ولا يبادلنا المشاعر الحسنة التي نكنها لهم.

ومع أن هذه الحقيقة المريرة برزت بوجهها الكالح على امتداد العصور، فإن طيبة قلبنا تحملنا على النسيان والتغاضي!

بيد أننا نأبى أن تتحول طيبتنا إلى غفلة، وسماحتنا إلى حماقة

إن الاستعمار الحديث واضح الرغبة في صرفنا عن ديننا، وتحقير إيماننا ظاهرا وباطنا

وقد مزق الحجاب عن قصده، وشرع سياسيا وعسكريا يكشف [illegible] ويجهر علنا

وهو اليوم يقوم بجهد مزدوج [illegible] إنه يوسع حملات التبشير ويدعمها بكل أسباب النجاح

ثم هو يحاول أن يستغل نصارى الشرق ليطعنوا المسلمين في ظهورهم ويلوموا صفوفهم وهم يردون العدوان عن أنفسهم وبلادهم

ونحن نرمق هذه الجهود بعيون مفتوحة، وقلوب مجروحة

إن الله لن يتخلى عنا، فنحن عباده الأوابون إليه، المستعينون به

ونظن نصارى الشرق أعقل من أن يستجيبوا لتلك الدعوات الخبيثة، إنهم لن يعاونوا الاستعمار في الحرب التي تدور الآن بيننا وبينه [illegible] إنهم لن يخذلوا المؤمنين الذين يقاومون الصهيونية [illegible]! إنهم لن يفرطوا في حق الموطنة، ولن ينسوا الجوار الشريف الذي جمعنا زمانا طويلا .

وأعلم أن البعض وقع في هذا الشرك، وشرع ينال منا

لقد اطلعت على كتب شتى، تتناول ديننا، ونبينا، وتجرحه بأساليب دنيئة ولكننا سنتعب على هذه الجراح ونسير

وإذا كنت أثبت هنا كلمات تصيح بالسموم ضدنا فلكي أقول للعقلاء إن هذا لا يليق !!

جاء في كتاب «الخريدة[1] النفيسة في تاريخ الكنيسة» ما يأتي وصفًا للإسلام ورسوله وتاريخه

والكتاب مطبوع في القاهرة عام ١٩٦٤ (مطبعة قاصد خير) بالفجالة

والسطور التي نقتطفها من الجزء الثاني ص ٩١، ٩٢، ٩٣ .

قال مؤلفه: «إن محمدًا صاحب الشريعة الإسلامية، ومشترعها، ولد في شبه جزيرة العرب بالحجاز، بمدينة مكة من قبيلة قريش سنة ٥٦٩

وقد يتم من والديه وهو في سن الخامسة من عمره فرباه عمه أبو طالب، وعلمه التجارة والأسفار، وأول أسفاره كان وهو في سن الرابعة عشرة سافر مع نفر من قبيلته إلى الشام، ولما رجع اتخذته أرملة غنية تدعى خديجة [illegible] فصار يتجر لها ثم تزوج بها

وكان ذكاؤه الطبيعي مفرطًا، واتفق له في أثناء تردده إلى سوريا وفلسطين أنه عاشر كثيرين من نصارى واليهود، وخالط علماءهم وخاصتهم، وسمع تعاليم كثيرة منهم، بعضها من الكتاب المقدس، وبعضها خرافات كتب يلهج بها العامة، فكان يعلق ذلك في ذاكرته ومذكراته(!!)

ولما بلغ سنه الأربعين سنة، كان حفظ شيئًا كثيرًا من تلك التعاليم الصحيحة والكاذبة ومزجها بتصوراته[2] (!!)

ولعدم وقوفه على مصادر التعاليم الصحيحة (!!) وهو الكتاب المقدس. لما أراد أن يدونها زاد فيها ونقص وغير وبدل [illegible] كما يعلم ذلك من قرأ حوادث الكتاب المقدس المسرودة في القرآن . (!!)

---

(1) نسخة هذا [illegible] مصورة من نسخة محفوظة بدار الكتب في القاهرة رقم ٤٠٤٦، ولهذا الكتاب مكانة [illegible] وسمعة برغم ما فيه من إسفاف !!

(2) [illegible] أعداء محمد [illegible] {إنما يعلمه بشر} [illegible] {وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا} {قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورًا رحيمًا} [illegible] الأنبياء [illegible] كلام كشف عن تهافته في كتبنا الأخرى، وبيان ما فيه من فراغ

ومن ثم قصد أن يظهر بمظهر نبي أمام العرب (!!) لا سيما عرب قريش وكانوا عبدة أصنام، فاستعظموا تعاليمه، وجزعوا منه، واقترحوا عليه أن يؤيدها بأعجوبة سماوية فعجز عنه الاقتراح، ولم يجد مناصاً سوى الاعتذار بالقرآن (١)، والاحتجاج بفراغ بعدم إيمان السالفين بالمعجزات (!!) وبأن الله أرسله ووده بالوحي فقط لإرشاد الناس وهدايتهم (سورة الأنعام آية ٣٧، والأعراف آية ٢٠٢ والرعد آية ٨، وبني إسرائيل آية ٦٢، والعنكبوت آية ٤٩)

وكان يدعو الناس إلى التسليم بدعوته وقبولها في أول أمره بالحسنى والرفق، واللين والرضا، ويتظاهر بعدم إكراه أحد وإرغامه قبول الإسلام، وقد وردت بهذا الشأن نصوص كثيرة في القرآن لا محل لإيرادها (راجع سورة البقرة آية ٢٥٧، وآل عمران آية ١٩، والأنعام آيات ٦٦، ١٠٤، ١٠٧، ويونس آيتي ٩٩، ١٠٠، والأحزاب آية ٤٧، والنمل آية ٢٦، وبني إسرائيل ١٠٦، والزمر آية ٤٢)

ويظهر أنه كان مرغماً على ذلك بالمعروف فقط (!!) وخاصة ظروفه (!!) فتظاهره بدعوته الناس إلى قبولها بالحسنى غير مكرهين كان في حال ضعفه (!!)

فلما اشتد أزره بالغلب[2] إلى العكس كما يعلم من نصوص أخرى عكس التي أشرنا إليها (راجع البقرة آية ١٨٨، والتوبة آيات ٥، ٢٨، ٧١، ومحمد آية ٤، والنساء آيتي ٨٣، ٨٨).

وكذلك راعى في أول الأمر خاطر اليهود ليكونوا أعواناً له، وجعل وجهة المصلين بيت المقدس، فلما قويت شوكته نقض هذا الأمر، وجعل وجهة المصلين الكعبة في مكة، وهي معبد[3] أصنام قديم لعرب قريش، لا يزال فيه حجر أسود يدعي العرب أنه نزل من الجنة

---

(١) القرآن هو المعجزة الكبرى لمحمد، وقد وقف به كما وقف غيره من الرسل حول كثيرة، لكن الإسلام بعمومه وخلوده يمنح الخوارق المحدودة مكانة ثانوية، ويجعل الإيمان منوطاً بالعقل المفكر لا بالحس.

٢ هذا افتراء كبير، وقد فضح هذه الفرية في الرد على جولد تسيهر «المستشرق المجري اليهودي» بحث موجود بكتابنا «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» وفيه كشف ورد على مفتريات هذا المؤرخ الكنسي وغيره من الباحثين عن العيوب ليرموا بها الإسلام، وهيهات !!

٣ الكعبة هي المسجد الحرام الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم لعبادة الله وحده، وقد أقحم فيه الوثنيون أصنامهم حتى جاء محمد فهدمها صنماً صنماً وهو يقرأ قوله تعالى ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ وحملة القرآن الكريم على الأصنام ليس لها نظير في كتاب أرضي أو سماوي، ومع ذلك يحلو للكاتب أن يزعم هذا الزعم، مؤلف الكتاب أن محمداً مدح الأصنام يوماً ما، ولكن هيهات أن يصدق ذلك إلا الحاقدون الذين يحبون أن ينسبوا إلى الإسلام ما ليس من أخلاقه

وطلب محمد من كبار قريش أن يزيلوا الأصنام من الكعبة فرفضوا، والتمس منه نفر أن يكرم معبوداتهم لكيلا ينفر الناس من دعوته فأكرمها ومدحها ! بقوله «أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى»

وقد ورد ذلك في سورة النجم ولكن العبارة الأخيرة حذفها جامعو القرآن، لأنهم رأوا أنها مخلة بمنزلة محمد

ولكن المفسرين أثبتوها، وأثبتوا نسبتها لمحمد واعتذروا عنه ! وأشهرهم ابن عباس

وقد أحس محمد بغلطته، وعدل عنها، فنقم عليه عبدة الأصنام وقصدوا إيذاءه، وضمروا له الشر، فلما انكشف له سوء مقصدهم، هجر مكة وهرب إلى المدينة (!!) وكان ذلك في سنة ٦٢٢ ومن سنة هروبه (!!) يبدأ تاريخ الإسلام، واستمر بعد ذلك إحدى عشرة سنة[1] كان يشن في أثنائها الغارات على القبائل، وينهبهم (!!) ويسلب أمتعة القوافل (!!) وينكل بالمقاومين له حتى قوي أمره .. (!!).

ذلك ما يكتب عنا في بلادنا !! وهو واضح الدلالة في إهانة مقدساتنا واستباحة حرماتنا، وإرخاص كل صلة، وكشف القناع عن شر مستطير

وأحب أن أتجاوز هذا النحو الهابط ... وعندنا ما أنبه إليه المسلمين أن الاستعمار طامع في اجتياح دينهم طمعه في اجتياح بلادهم، وسرقة خيراتهم !

وإن الأمر يحتاج إلى يقظة مضاعفة .

وكلمة هامسة إلى من شئنا من أهل الكتاب أن يضربوا على أيدي سفهائهم، فلا يريدوا الطين بلة !! ولا يحملوا الفتنة الممتلئة على حقد نعمة ومعونة الأعداء

إننا نحن المسلمين نعامل مخالفينا في الدين معاملة لا نظير لها نبلا وسماحة ولم

---

(١) - بهذه الكلمات الهازلة يصف الكاتب شرف الجهاد الذي قام به رسول الله وأقر به التوحيد المضطهد، وثبت نحو المطارد، وصد طواغيت الشرك وهي تحاول أن تطفئ نور الله، وظاهر أن الرجل يكذب ويرخي العنان لكراهية عميقة ضد الإسلام ونبيه، وما درى الأحمق أن الإسلام يوم يطوى فلن يقوم مكانه دين، ولن يبقى بعده إيمان في إقناع العقل وإراحة الضمير

يحدث أن يغفر مثلها المختلفون من أهل الملل الأخرى حين يعيش بعضهم بعض أو عامله

وقد كنت أريد أن أطوي هذه المثالب، وأتغاضى عن ذكرها، لولا أن جهات مسئولة هي التي أسهمت في طبعه ونشره، هكذا يقول مؤلفه في نهاية الجزء الثاني صفحة ٥٩١

وعبارته بنصها: «تم بعون الله طبع هذا الكتاب النفيس في يوم ٣٠ من أبيب سنة ١٦٨٠ للشهداء، الموافق ٦ من أغسطس سنة ١٩٦٤ للميلاد في عهد غبطة سيدنا المعظم الأنبا «كيرلس» السادس حفظه الله

ولولا اهتمامه بنا، ومساعدته، وتشجيعه وبركته وصلواته المقبولة ما أمكننا أن نقوم بهذه المهمة، نسأل الله أن يحفظه ذخراً للرهبنة وللكنيسة فخراً»

ونحن نأسف لهذا الخطأ في حسابنا، بل لهذه الخطيئة، ونوصي إخواننا المسلمين أن ينسوها، ونوصي إخواننا المسيحيين ألا يكرروها!

* * *

التبشير والاستعمار وآلام أخرى

يكاد المراقبون والنقاد يجمعون على أن الأوروبيين والأمريكيين ليسوا موحدين متدينين، ولا ميالين إلى التقوى، وإن وصفهم بأنهم لا يتجاوزون الشكل إلى الموضوع، وأن احتفاءهم بالمناسبات الدينية يقوم على تحويل الآحاد ومختلف الأعياد إلى فرص للاستجمام وشباك للهو والمرح بريئا أو غير بريء.

والأوروبيون والأمريكيون - بلا جدال - يحصدون ثمرات تقدم علمي رائع رفه معايشهم، ونعم حضارتهم، وربما استطاع هذا التقدم أن يخفف متاعبهم ويهدئ من توترهم إلا أن بيئات كبيرة في كل القارتين لم يرفع العلم الإنساني مستواها إلا في المأكولات والملابس!

أما ما وراء ذلك فهناك القتل، والخطف، والاغتصاب، والفوضى الجنسية، والكبرياء العنصرية، وعبادة الحياة الدنيا، والجهل أو الإنكار لما وراءها.

ومع هذا السلوك الهابط فإن الأوروبيين والأمريكيين يهتمون بالتبشير ويرصدون برامجه وأغراضه أموالا طائلة، ويتابعون نشاطه ونتائجه بيقظة!

ومع أن الحكومات في كلتا القارتين لا تبالي أن يؤمن أبناؤها أو يلحدوا إلا أنها تولي الدين في إفريقيا وآسيا قدرا ملحوظا من رعايتها، وتتوسل به إلى تذليل الصعاب، وحطم الخصوم.

وننظر إلى فلسطين في ظل الانتداب البريطاني والدور الذي أداه هذا الانتداب في تحقيق الأغراض الاستعمارية بين سكان هذا القطر المحروب.

كان تسعة أعشار الفلسطينيين مسلمين عربا فكيف يمكن تذويب عروبتهم وإسلامهم معا؟ وكيف يمكن خلق الظروف التي تتمخض عن قيام إسرائيل كما وعدت بذلك بريطانيا..؟!

لن أتعرض هنا للأساليب الاقتصادية والعسكرية على شناعتها ووحشيتها، وإنما أتعرض للنواحي الدينية وحسب.

كان بفلسطين معهد لتخريج الدعاة المسلمين يسمى « بالكلية الصلاحية » عمد الانتداب البريطاني إلى الإجهاز عليه عشية باشر الحكم في البلاد.

وقد نشرت إحدى الصحف تاريخاً موجزاً لهذه الكلية جاء فيه « الكلية صلاح الدين الأيوبي »

« كانت تقوم في الناحية الشمالية الشرقية على بعد عشرات الأمتار من الحرم الشريف في المكان المعروف بدير القديسة حنة ويقال إن هذا المكان جعل مدرسة إسلامية قبل صلاح الدين الأيوبي

ولكن الاسم التصق بصلاح الدين حينما جعل منها مدرسة للفقه الشافعي يطلب من فقهاء الشافعية ومر عليها زمن تقلبت فيه بين يد النصارى والمسلمين

حتى كانت سنة ١٩١٤م (١٣٣٣هـ) وقام على بلاد الشام القائد التركي « جمال باشا » حيث أعدها مدرسة دينية إسلامية لإعداد مبشرين بتعاليم الإسلام وبالأخص منهم الواعظين وسماها « كلية صلاح الدين الأيوبي » وعرفت بين الناس بالكلية الصلاحية كما درس بها علماء من مختلف البلاد في ذلك الوقت من أمثال محمد إسعاف النشاشيبي، وجودت الهاشمي، وعبد القادر المغربي السوري الذي كان فيما بعد نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ثم عبد العزيز جاويش، ورستم حيدر، ومحمد سيل، وعبد الرحمن سلام … وكان شيخ الإسلام في الآستانة يحول مرتبات هذه المدرسة من تركيا بواسطة مصرف القدس وبدخول الجيش الإنجليزي القدس في ٨/١٢/١٩١٧م أعطيت هذه المدرسة إلى الآباء البيض الفرنسيين وهي اليوم مدرسة إكليريكية دينية للروم الكاثوليك »

والواقع أن هذا التاريخ مدخول، فالمدرسة كانت تقوم بتعليم الفقه الإسلامي ثم حولها الترك إلى كلية للدعاة تخدم الإسلام في الداخل والخارج … فلما ملك الإنجليز الأمر حولوها إلى كلية لتخريج المبشرين المسيحيين، وسلموها إلى جماعة الآباء البيض الفرنسية وهي جماعة لها دور هائل في محاولة تنصير المغرب العربي أيام الاحتلال الفرنسي.

والمعروف أن « عبث » الفرنسيين يتمشى مع الفكر التبشيري الذي يرى أن إفريقية الوسطى ومصر والشمال الإفريقي كلها كانت مستعمرات رومانية، ويجب أن تعود كما كانت وقد بذل الاحتلال البريطاني لمصر جهوداً شاقة لإبعاد الأمة عن دينها، وعن المناسبات التاريخية التي تربطها به

نشرت جريدة الأخبار تحت عنوان «احتج الإنجليز على الاحتفال بعيد الهجرة في إذاعة القاهرة منذ ٤٠ عاما فاتت احتفل العالم الإسلامي أمس بعيد الهجرة، وهو بداية العام الجديد منذ أمر عمر بن الخطاب بجعل الهجرة أساس التقويم الإسلامي وقد احتفلت به الإذاعة المصرية لأول مرة سنة ١٩٣٤ ميلادية بقرار من «مدحت عاصم» أول مدير للإذاعة المصرية بعد أن أصبحت حكومية وكانت من قبل تشرف عليها مؤسسات أهلية وأمر المدير المصري أن يبدأ الاحتفال بصلاة الفجر !

وعد ذلك حدثا غريبا وواجه المدير المصري معارضة شديدة من الإنجليز المشرفين على الإذاعة !

وكانت الحجة المعلنة أن الإداريين والفنيين سوف يسهرون إلى ساعة صباحا، ورد عليهم السيد مدحت عاصم بأن هؤلاء يسهرون في رأس السنة الميلادية حتى مطلع الفجر، ويمتد إلى الصباح، ويرتب قلائد بالقياس من الاحتفال بالسنة الهجرية وسكت المعترضون كأنما هي في الاحتفال بالسنة الميلادية، ويبدو أن الاحتفال بذكرى الهجرة شيء ممجوج أو لعله شيء رجعي .. !!

المهم أن الإنجليز بعد أن ألغوا الكتيبة الصلاحية، وعملوا على أنه لن يكون للإسلام دعاة مرشدون في فلسطين، وأرادوا أن يستجلبوا إلى الأرض المستباحة مللا أخرى تنشر الفوضى الدينية بها، وتبلبل الأفكار، وتكثر ظروف الملهية عدم استقرار وهم من قبل شجعوا البهائية، واحتضنوا طاغيتها الداهية عباس عبد البهاء، وبعثوا عليه مدنيا وأدبيا، فجعلوا «عكا» كعبة البهائيين المستوطنين في بقاع شتى، وربطوهم بفلسطين روحيا ووثقوا الصلات بين المحافل البهائية ودعاة الصهيونية، حتى تخدم إحداهما الأخرى ويتظاهرا جميعا على الإسلام.

بعد ذلك لا يكفي قلائد من استقدام القاديانية إلى فلسطين هي الأخرى كي تشترك في صنع الشتات الإسلامي وتمهد للوجود اليهودي.

وغلام أحمد منذ نشأ في الهند كان صنيعة للإنجليز ومعقد القاديانية. وأذكر أني زرت «أوغندا» منذ عامين ووجدت مسجدا للقاديانية في أعظم ميادين العاصمة.

ومن شأنه أن يعرض هؤلاء سماسرة من «أوغندا» بعد أن انقطع الاستعمار الإنجليزي منها.

لكنهم في فلسطين بعد أن تركت للمهود يسرت بها دولتهم بعد رفع الإنجليز عن عهدهم، والمحنة التي نقف عنها حسر بكتيبة الصلاحية لتشبه يذكر لشاهد

القاديانى داخل إسرائيل وكأنه ولد ونما بطريقة طبيعية ، فهى تسوق القصة على هذا النحو

لقد كان الأستاذ المولوى جلال الدين شمس أول مبشر وفد من قبل الخليفة الثانى للجماعة الأحمدية إلى بلدان الشرق الأوسط ، وذلك فى أواخر العشرينات من هذا القرن، ولكن قد مهد لهذه المهمة حضرة المولوى زين العابدين أستاذ تاريخ الأديان فى كلية صلاح الدين الأيوبى فى القدس

وقد بدأ عمله فى دمشق الشام إلى أن اضطر إلى الانتقال لمدينة حيفا بفلسطين بسبب المعارضة الشديدة التى لقيها من علماء المسلمين هناك وبناء على طلب من الحكومة الفرنسية آنذاك .

وفى حيفا أسس جماعة ونشر دعوة المهدى زمنا ما حتى تيسر له الاتصال بأهل قرية الكبابير الواقعة على جبل الكرمل والمحاذية لحيفا فقبل معظم سكانها الأحمدية وأقام بها مركز التبشير سنة ١٩٢٩م وفى السنة الثانية بنى المسجد الموجود حاليا ثم أضيفت إليه دار التبليغ ، وأنشئت سنة ١٩٣٤م المطبعة الأحمدية وبدأ المركز يصدر مجلة (البشرى) وهى المجلة الأحمدية الوحيدة فى بلاد الشرق الأوسط التى ما زالت تصدر بإسرائيل كما بوشر فى الحال بفتح مدرسة ابتدائية لتعليم البنين والبنات وكذلك مدرسة دينية لتعليم الكبار

وقد تطورت المدرسة مع الزمن إلى أن أصبحت اليوم تضم ثمانية صفوف ابتدائية وروضة أطفال ولها بناية أنيقة وقاعة جميلة

والمدرسة الأحمدية فى الكبابير هى أيضا المدرسة الإسلامية الوحيدة فى البلاد التى تدار بصورة مستقلة عن جهاز التعليم الحكومى

لقد كان المركز فى الكبابير حتى قيام دولة إسرائيل يشرف على الأعمال التبشيرية الأحمدية فى جميع بلدان الشرق الأوسط وكانت الكبابير نقطة انطلاق للمبشرين القاصدين من الشرق إلى الغرب أو العائدين من الغرب إلى الشرق

لكن نشاطه انحصر بعد سنة ١٩٤٨م فى إسرائيل وحدها

وبعد حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧م امتد نشاط الجماعة إلى الضفة الغربية وإلى قطاع غزة ، وللأحمدية اليوم عدد غير قليل من الأتباع فى هاتين المنطقتين

ولا بد من التنويه إلى أن الجماعة الأحمدية فى إسرائيل تمارس نشاطها بحرية ولها مكانة محترمة لدى الأوساط الرسمية والشعبية فى هذا البلد

ويشرف على المركز اليوم الأستاذ بشير الدين عبيد الله تساعده هيئة إدارية ينتخبها أفراد الجماعة المحلية، وكذلك جمعية خدام الأحمدية للشباب ولجنة إماء الله للنساء يقمن كل يوم بواجباتهن نحو الجماعة تحت رعاية المبشر.

وفي انكشبير اليوم نحو ثماني مائة أحمدي يكونون الغالبية الساحقة من سكان القرية ... والمعروف أن كلتا الحسيين المستدعتين، البهائية والقاديانية، تخدم الاستعمار العالمي وتشد أزره في ضرب الإسلام والعدوان على أمته، وهي لون آخر من التبشير يتفق في الغاية ويختلف في المنهج.

وليس كل من ينتسب إلى المبشرين من الشعوب الأوروبية والأمريكية يتسم بالعدوان، ويتعمد مقدماً إيذاء من يعدو عليه ... ففي الدهماء عدد كبير من السذج والقاصرين يحسب أنه يرضي الله بما يبذل من مال ... وربما عذر حكومته وهي تباشر أخطر وسائل الفتنة والسرقة للعقائد والمقدسات.

على أن الحكومات الاستعمارية عقدت صلحاً دائماً مع ضميرها وهواها، وأقنعت به نفسها ورعاياها، واستمرأت بمقتضاه تسخير الدين في تحقيق ما تسعى وراءه من أطماع.

والتبشير يتطلب أمرين متكاملين:

أولهما: العنوان الذي يستر خبيئته ويحمل به – في الظاهر – وظيفة أخرى ثقافية أو اجتماعية أو طبية ... إلخ يمضي تحت شعارها إلى هدفه.

والثاني: وهو في نظرنا شديد الخطورة: تكوين الظروف التي تشعر الشعوب بخواء مفتعل، أو فصام وهمي، أو مشكلات مختلقة تتبدد فيها الصفوف وتتشعب الآراء والأهواء.

إن هذه الظروف المصنوعة تشبه سحب الدخان التي تتحرك خلفها الجيوش الزاحفة فلا يوضع أمامها عائق ولا يوقفها مستعد أو حذر.

وما أشك في أن التبشير العالمي، خلق ألغاماً كثيرة في الأمتين العربية والإسلامية

* تنشر حزاماً من الصمت مثلاً على كتب جيدة نافعة وتقدم أخرى ضارة تافهة

* أو تطفئ شمعة من الحق في مكانها فيما تتحول إلى سراج وهاج لو تركت للنمو الطبيعي

* أو تخلق سراباً من المناهج تجذب إليه ألوف الشباب ليلهثوا في طلبه ثم يعودوا بخفي حنين

« أو تسوى بين البيت و الأوهم ستهدم مكتبة الأولى ومن يسعى بها من قداسة ؟ و تدخل في لحظة بمؤنة لهم كي يساعدا على جعل قيادتها ممثلة هزيلة

بمهم إحداث شتات وبعثرة في الوقت الذي يحدد فيه رجال التبشير تقسيم أدوارهم كملا و ميدان خال من الحراس، أو الحراس مشغولون فيه بغيرهم

وقد وصل عدد العاملين في خدمة الأغراض التبشيرية إلى أعداد هائلة، وننقل هنا ما ذكرته مجلة دعوة الحق التي تصدرها وزارة الأوقاف المغربية في عددها الأخير قالت.

نشرت دائرة معارف الكنيسة (إنسكلوبيديا) الأرقام التالية عن النشاط الكنسي

١ - لدى الكنيسة الكاثوليكية ٢٥٠،٠٠٠ ألف متفرغ في العالم (مبشرين) بينما يبلغ مجموع العاملين لخدمة الكنيسة الكاثوليكية ١،٦١٠،٠٠٠ مليون وستمائة ألف نسمة

٢ - خلال ربع قرن من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٥٢ حول المبشرون ١٣،٠٠٠،٠٠٠ ثلاثة عشر مليون شخص إلى الكاثوليكية بمعدل نصف مليون سنويا

٣ - لدى الكنيسة البروتستانتية ٤٣،١٠٠ ثلاثة وأربعون ألف متفرغ (مبشرين) يديرون ١٦٠٠ ألف وستمائة مركز ومستشفى في العالم لأغراض التبشير

وقد بلغ عدد المتنصرين في ربع القرن من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٥٢ حوالي ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ ثلاثين مليونا والجدير بالعناية أن هذا النشاط الباهر يتم في صمت، وأن صحفنا البارعة الذكية مواصلة على كتمانه، زاهدة في الإشارة إليه

وتسحق تجارب التبشير حرب الإمساك والتهجير، وقد تمت المؤامرة على جريمة سحق الوجود العربي في فلسطين، وتسليم الأرض إلى المستوطنين اليهود المجلوبين من أطراف الدنيا

وقد ذكرت في بعض الكتب

كيف أخذت إنجلترا جزيرة قبرص من تركيا، وكيف سلانيه ... ثلاثة عشر قرنا فاستقدمت إليها المستوطنين اليونانيين حتى كادت تذهب بمعالمها الأولى، وتقوم الآن حركة ضمها إلى اليونان التي لم تعرف هذه الجزيرة من قبل في التاريخ !!

وفي خلال الغفلة والصمت تتحول عناصر معينة شراء أرض ذات قيمة تاريخية أو عسكرية ثم تحشد أتباعها فيها ليظهروا فجأة بمطالب شاذة تحميها القوى !!

ولا أدري إلى متى يبقى العرب والمسلمون ذاهلين عن مصيرهم مع كل المؤامرات المدروسة التي تفاجئهم بين حين وحين.

ولا أحسن عصاصة من التنبه إلى قضية تحديد النسل، إن أعداء الإسلام يعرفون النتائج المادية والمعنوية التي تترتب على الكثرة العددية للأمة الإسلامية، ومن ثم يجتهدون في إقناع المسلمين ... وحدهم بتحديد ... النسل، ويتركون ... وحدهم - لأن رؤساء الأديان الأخرى أحضروا أمرهم على تكثير نسلهم.

ومن المفيد أن أذكر أن المسلمين في الأقطار الشيوعية لأسباب معروفة أخذوا يكثرون.

لعل هذه الكثرة مصداق المثل السائر « بقية السيف أنمى » !!

وقد قرأت دراسة علمية دقيقة نشرتها مجلة (دعوة الحق) في هذا الموضوع حشد فيها الحقائق ... على الأقل أحد المسلمين يتزايدون، بمعدل طبيعي كبير في المناطق التي درسها وبهذا زادت نسبتهم في السنين الأخيرة في البلاد الشيوعية الأربع (الاتحاد السوفيتي، يوغسلافيا، ألبانيا، بلغاريا)، التي سبقت دراستها.

* فمن بين كل ألف سوفييتي كان ١١٣ مسلما سنة ١٩٣٩ فصار ١٣٦ مسلما سنة ١٩٧

* ومن بين كل ألف يوغسلافي كان ١١٢ مسلما سنة ١٩٣١ فصار ١٥١ مسلما سنة ١٩٧١

* ومن بين كل ألف ألباني كان ٦٨٦ مسلما سنة ١٩٣٠ فصار ٧٠٧ مسلمين سنة ١٩٦٩

* ومن بين كل ألف بلغاري كان ١٣٣ مسلما سنة ١٩٤٩ فصار ١٧٠ مسلما سنة ١٩٧١

وهذا هو نفس الوضع في معظم بلاد العالم حيث يزداد المسلمون أكثر من غيرهم وهذا يكشف هدف الدعايات الخبيثة لتحديد النسل بين المسلمين.

فواجب كل مسلم من جهة الوقوف ضد هذه الدعايات ومن جهة أخرى العمل على تحسين وضع المسلمين المادي ووضعهم المعنوي.

ونحن نضع بين يدي قرائنا هذه المعلومات ليدركوا الكثير مما يغيب عمدا عن العيون.

* * *

عدوان إلى آخر رمق

أشارت صحف القاهرة إلى مرحلة جديدة من مراحل العدوان على أرض العروبة والإسلام

والمرحلة التي يتم إعدادها في صمت، والتي تعرض أسوأها تحت عنوان حاذق، تقوم على إسكان خمسين ألف يهودي في بلاد الحبشة في منطقة « عوندار » التي تقع على الحدود السودانية الحبشية!

وقد عرض حكام الحبشة خمسين ألف فدان يمكن استصلاحها لتكون نواة للمهجر الجديد

وربما سأل القارئ لماذا لا يأخذ هؤلاء اليهود طريقهم إلى إسرائيل بدل الحبشة؟

والجواب أن هؤلاء اليهود من الدرجة الثانية، ويطلق عليهم « الفلاشا » وفي نسبهم إلى اليهودية غموض، وكانوا يعيشون في الشرق الإفريقي معيشة ظاهرة التخلف، ويرتزقون من بعض الحرف البدائية

حتى نظم الغرب العلاقات بين الحبشة وإسرائيل من النواحي الروحية والاقتصادية والسياسية بأخذ وضع « الفلاشا » يتحسن، والتحق عدد منهم بوحدات الشرطة، وفرق الجيش الأثيوبي، وصعدوا في مدارج الترقي حتى أصبح لهم عضو في مجلس الوزراء!!

وقد تولت إسرائيل إنشاء مدارس في منطقة « عوندار » يتربى فيها الفلاشيون على يد معلمين إسرائيليين، كما استقدمت بعثات منهم إلى أرض إسرائيل (!) لتدريبهم التدريب الذي يحقق الأغراض المرجوة في مستقبل ليس ببعيد!!

ومن ما يحقق زيادة التقارب والالتحام بين إسرائيل وأثيوبيا أن توضع الخطط الصارمة كي ينكمش نشاط الكثرة الإسلامية النائمة في الحبشة، فلا يسمع لها صوت، بل لا يحس بها وجود..!

وذلك حتى تجد أمدادا لا مقطوعة ولا ممنوعة من الدعم الأثيوبي الاقتصادي، ومن ثم تستطيع أن تمزق العرب، وتقضي عليهم.

ويوم تسقط العروبة تسقط شمس الإسلام وستجنح إلى الغروب.

وهذا هو ما يستهدفه الاستعمار النشط وراء سياسة «أثيوبيا» وقيام إسرائيل!!

وخطة توطين بعض اليهود في الحبشة التي شرحتها جريدة «جويش كرونيكل» اليهودية، والتي تعمل لها الوكالة اليهودية من بضع سنين ليست في نظرنا أمرا ذا بال!!

وأحسبني قريبا من الصدق إذا قلت: إن هذا أخف الضربات التي وجهها الاستعمار إلينا. فإن الدم الإسلامي النازف بغزارة في الشرق الإفريقي يكشف عن مأساة فاجعة تقع وراء أسوار من السكوت المطبق، وأخشى ألا نصحو حتى تكون الضحية قد طواها العدم.

والضحية هنا شعب مسلم كبير هو شعب «أرتيريا».

إن مسلمي أرتيريا يقاومون بقتال مستميت منذ ربع قرن ليظفروا بحريتهم الدينية واستقلالهم السياسي، ضد الاستعمار الحبشي، وعمداء الحقد، وأغرته السلطة.

ومع فداحة التضحيات التي فرضت عليهم فإنهم لم يضعوا السلاح ولم يستسلموا لليأس، وجبهة تحرير أرتيريا تعمل بإيمان ومصابرة لاستبقاء الإسلام والعروبة على أرض الأجداد، وتقاوم سلطات أثيوبيا وهي تهجم بالسلاح الأمريكي لمحو هذه الكتلة!!

إن جبهة تحرير أرتيريا تقوم بالعمل التاريخي الضخم الذي قامت به من قبل جبهة تحرير الجزائر، والذي تقوم به الآن جبهة تحرير فلسطين!

ويظهر أنها تلقى من أعداء الإسلام في [illegible] عنف، لأنهم يخشون أن يكون مصيرهم مصير أغلب المستعمرين في البلاد التي استردت حريتها.

إن هذا النوع من [illegible] الجيش الأثيوبي غاشم في سطوه، فظيع في عدوانه. وهناك نموذج لما يقع هناك من مصائب فظيعة ذكرها الصحفي السويسري «لا رورو» رئيس تحرير مجلة «كاثوليسوس» و[illegible] «ترافل رويس» [illegible] السويدي [illegible] في زيارة خاصة لأرتيريا:

«في يوم عاصف تدلت فيه اثنتان وعشرون جثة من جثث الثوار على أعواد المشانق في مدينة كرن، إحدى مدن أرتيريا الرئيسية.

وفي الوقت نفسه كانت تتدلى سبع عشرة جثة أخرى ممثلا بها في موقعة من أسمرة العاصمة، ومصوع الميناء».

يا حرباه على أمة الإسلام، ما أرخص دمها، وأهون أحرارها !

تسعة وتسعون بطلا من رجالات الله تتأرجح جثثهم في مهب الريح دفعة واحدة على هذا النحو الرهيب!!

تنكيلا بأتباع محمد، وترويعا لطلاب الجهاد، وإذلالا لأحرار الناس

معرض للردى تمثل فيه كل صغائر البشرية الخسيسة على الذين أرادوا رفع قدر الإنسان

ويبرز من خلاله الأحقاد التي ظل المستعمرون الجدد عن الصليبيين الأقدمين

تلك الأحقاد التي لا تخف مع تراكم السنوات، والتي تحسر بالحر كيف تطفئ وتستريح من نارها ولهيبها

[illegible] الكثرة المسلمة في أريتريا كجبهة مسلحة داخل الحبشة تتعرض لحرب إبادة جماعية

وقد بدأت محنة هذا العصر [illegible] منذ قضت هيئة الأمم المتحدة بضمه إلى إثيوبيا على رغم أنفه، ومع أن هذا الضم أخذ دون الأمر صورة «اتحاد فيدرالي» إلا أنه سرعان ما تحول إلى [illegible] الكامل [illegible]، وإلغاء شخصيته، ولغته، ودينه، وتاريخه، ومستقبله!!

وبدهي أن يقوم المسلمون الأريتريون [illegible] إخوانهم في الجزائر وفلسطين من قبل، [illegible] القرى يحصدون من فيها وما فيها بالرصاص والقنابل

غير أن الأبطال المجهولين نظموا صفوفهم في جبهة تحرير شجاعة مثابرة، قاتلت الجيش الإثيوبي وأذلته في معارك شتى

وفي العام الماضي [illegible] الإريتريون أمام حملة انتقام حبشية شديدة شنت عليهم [illegible] هؤلاء الإثيوبيون حدود السودان في حالة مخزية، [illegible] قراهم ومزارعهم ومواشيهم، و[illegible] حرمانهم [illegible] الملحة [illegible] عليهم، و[illegible] دون دفن لتأكلها الوحوش!!

وقد شاهد [illegible] هؤلاء اللاجئين لقد كانوا هياكل بشرية، وكان الجوع والعطش قد برح بهم [illegible]

على أن جبهة تحرير [illegible] مضت على درب الجهاد الطويل [illegible]

وقد [illegible] رئيس [illegible] مؤتمر [illegible] الأستاذ [illegible]

البواب لسابق كما يسب الكثير من شباب بلد الثائر على الصم، وتفرست في ملامحهم عزيمة الجهاد حتى لقاء الله

إلا أن هناك حقيقة أحب أن أثبتها في هذه الكلمة العجلى

إن الأعداء القابعين وراء البحار يعملون على تهويد فلسطين هم هم الأعداء الذين يعملون على تنصير إرتيريا، وإن اختلفت أساليب الجريمة وأدوات التنفيذ

والغرض الظاهر الباطن لدى هؤلاء إصابة الإسلام في صميمه، وتمزيق أمته شذر مذر

فما الذي يجعل العرب شديدي الحزن لمحنة فلسطين، مكرى الصمت بإزاء مسلمي أرتيريا ؟؟

إن الجامعة العربية لم تكترث عندما سب هؤلاء المسلمون استقلالهم وسلموا إلى الحبشة لتسترق أعناقهم، وكان في مقدورها أن تقاوم وترفض

لكن الجامعة العربية - ويقولون كسمعي لسان - لا تهتم بأمر المسلمين ولا تشغل بمصابهم، وهي - إذ تستصرخ الضمير العالمي لأهل فلسطين - تفعل ذلك على أخوة جنس وحسب !

والجامعة العربية إذ تؤثر هذا المسلك تخون دينها وتاريخها وتنفصل عن الأمة العربية ذاتها فلا تترجم عن مشاعرها ولا عن آمالها

بل إن الجامعة العربية تخون قوميتها المزعومة بتجاهلها قضية أرتيريا، فإن الشعب المسلم المضطهد هناك، يتكون من قبائل عربية الدم واللغة مثل الألوف المؤلفة من سكان وادي النيل !

ولا ندري كيف تناسى المسئولون الحسبة هذه الحقيقة عندما صمتوا صمت القبور على وأد إخوانهم العرب ؟

والجامعة العربية إذ تتجهم للإسلام تغرق في مسلك مدني انتهى أمده وانكشفت حقيقته فإن اليهود لا يستحون من الانتساب إلى أبيهم إسرائيل إذا استحى العرب من الانتساب إلى أبيهم محمد !!

والأمريكيون لا يستحون من عرض الإنجيل وتأييد تعاليمه إذا استحى العرب من عرض القرآن وإبلاغ رسالاته

فإلى متى تنفض الجامعة العربية يديها من قضايا الشعوب الإسلامية المأكولة في إرتريا وغيرها ؟

بل إلى متى تعد قضية فلسطين عربية خالصة وهي اليوم نهب عدوان ديني سافر يؤازره حقد تاريخي قديم ؟؟

إن العرب إن خانوا الإسلام فلن يفيدوا من ارتدادهم إلا الضياع والمعرة وسيحق فيهم قوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ (١).

إن هذه المجموعة باسم السياسة سعت للقضاء على العروبة في أرتيريا، فإن السلطات الأثيوبية شنت حملات شعواء على اللغة العربية – وهي لغة البلاد الرسمية وفق المادة ٣٨ من دستور أرتيريا – وبدأت هذه الحملات بإهمال الطلبات والعرائض المكتوبة بهذه اللغة، ثم بإزالة اللافتات العربية.

واستطاعت أخيراً أن تمنع تدريسها في شتى مراحل التعليم الرسمي منه والشعبي، عندما عزز الأثيوبيون سيطرتهم السياسية سنة ١٩٥٦

وقد أحرقت الكتب العربية التي استوردتها وزارة المعارف الأثيوبية من القاهرة

أما خريجو الجامعات العربية فيمنحون نصف مرتب خريجي الجامعات الأخرى حتى تموت رغبة الشباب في كل دراسة عربية

وفي سنة ١٩٦٣ منعت الحبشة تدريس الإسلام إلا باللغة الأمهرية لأنها تعلم أنه لا يوجد كتاب واحد عن الإسلام بهذه اللغة

وهكذا فصلت الحبشة بحرها القديم على المستضعفين دينياً وشعبياً، والعرب ناظرون واجمون

ومعروف أن للأمريكيين قواعد كثيرة في أرجاء البلاد، تحرس الاستعماريين الديني والسياسي في هذه البقاع المنكوبة، وقد ذكرت جبهة الثوار أنها في بعض الاشتباكات مع الأحباش أسقطت طائرة هيليكوبتر أمريكية كانت تساعد المعتدين (؟)

ونحن لا نستغرب هذا المسلك، وإنما نستغرب أن يتراخى عرب الشمال الإفريقي في خدمة دينهم ومساعدة إخوانهم، في الوقت الذي يقف فيه الاستعمار مجموعات من الحكومات الحاقدة تطارد الإسلام وتتعقب أنصاره !!

إن جبهة تحرير إريتريا تعاني ضروباً من الصد والتهرب من أناس يحسبون قوميتهم وعقيدتهم على سواء !!

* * *

(١) البقرة ٨٦

سير الأمم بين الأصالة والتجديد

ولو أن استمساك المسلمين بدينهم ضرب من التقليد المجهول أو التعصب الذميم، لكنت أول الناقمين والمحاربين له! ولكن المسلمين المتشبثين بدينهم في وجه ضغوط مدنية، ومكايد ظاهرة وباطنة، يصدرون في ذلك عن وعي سليم واقتناع كريم.

ولو أن دعاة التحلل وسب الماضي، أو التطور والانطلاق مع المستقبل كما يقولون، يؤثرون هذه الوجهة بعد مقارنة ودراسة، وحوار مفتوح، ونقاش نزيه، لأكنا لهم شيئا من الحرمة، ولعذرناهم عندما يخالفوننا في الرأي!

ولكن هؤلاء يريدون بالجهل حينا، وبالتعصب حينا آخر، أن يصرفوا الجماهير عن دينها، ويفتنوها عن عقيدتها...!

فإذا عز عليهم تسويغ مآربهم وجدت عداءهم للرأي الآخر يصفون غيرهم بالجمود!

ووجدت أذناب التيارات الدخيلة يرمون سواهم بالتقليد! ووجدت عملاء النحل الفاسدة، قديمة كانت أو محدثة، يتهمون رجال الإسلام بالتخلف!!

ومع أن الإسلام منذ بدأ إلى يوم الناس هذا، دعوة إلى الحياة والابتكار وإلى الفكر الذكي والنشاط الموصول، فقد بقيت صورته في أذهان هؤلاء، وصبغ وحده، دون سائر الملل والمذاهب بسمت التوقف، وأصبح دعاته حصن الرجعية، وآفة المجتمع، وغير ذلك من النعوت التي يخترعها سماسرة الغزو الثقافي.

لقد تقدمت اليابان منذ أكثر من قرن، ولم يجد رجالها حرجا من الاستماع للعلم العصري في مجاليه النظري والتطبيقي دون أن يعلنوا حربا على ماضيهم، ودون أن يشتبكوا مع الشعب في حرب ضروس يصرفونه عن ديانته الوثنية.

وتقدمت الولايات المتحدة في ميدان الارتقاء العام مع حرصها البالغ على حماية شتى المذاهب الكنسية، بل على نشرها هنا وهناك!!

ولقد قرأت وصف تكفين الرئيس كندي بعد مقتله نشرته مجلة المختار في يناير

سنة ١٩٦٤ ، وهو وصف يصلح لمكتبة مضطربة ويفتقد وإطلاق الرسميين والشعبيين على حد سواء، جاءت في الوصف المذكور هذه العبارة

« في الساعة الثانية عشرة والدقيقة السابعة والخمسين بعد الظهر ، أي بعد سبع وعشرين دقيقة من اغتيال « كيندي » استدعى اثنان من القسس الكاثوليك في « دالاس » هما الأب « أوسكار هوبر » والأب « توسون جيمس » ليكونا إلى جوار الرئيس

وسحب الأب هوبر الغطاء عن وجه الرئيس ثم غمس إبهامه في « الزيت المقدس » ، ورسم علامة الصليب صغيرة على جبهة كيندي، وقال باللاتينية : إني أغفر لك كل لوم وخطأ باسم الأب والابن والروح القدس آمين !! وإذا كنت حيا فليغفر الله بهذا الزيت المقدس كل خطاياك . !!

هذه التقاليد المسيحية في أمريكا لم تعل عليها حرب شعواء حتى تستطيع الشعوب التقدم، وتساير موكب الزمن الزاحف كما يهرف بعض من لا وزن لهم من حملة الأقلام المرموقة !!

بل بقيت هذه التقاليد وحدها ، ومضى الأمريكيون في طريقهم يعرفون الفضاء حينا، ويمدون نطاقات التبشير بالعونين المادي والأدبي حينا آخر

وتشترك اليابان والولايات المتحدة وسطا إلى إسرائيل ، عدونا اللدود !

إن قيام هذه الدولة على أسس حقيقة أوضح من فلق الصبح

والألوف المؤلفة من اليهود الذين يقيمون في أمريكا يمدونها بما في طاقتهم من جهد لتنهض وترسخ

وهم يدفعون السياسة الأمريكية دفعا في هذا المجرى المكشوف مستخفين بدعوى الأخوة الدينية اليهودية، ومستغلين العداء التاريخي نحو الإسلام وأمته من مواريث الصليبية القديمة

ومع هذه الحقائق الملموسة ، فإن العصابة المتاجرة بالتقدم في بلادنا تنكر أن يكون للدين أثر في الجبهة المعادية لنا ! لماذا ؟؟

حتى تخمد الأصوات التي تطلب إحياء الإسلام بين العرب . !

حتى تكون الحرب ذات طابع ديني هناك وذات طابع مدني هنا !

إن تمويت الإسلام هدف مقصود لذاته ، ولو كان في ضمنه ضياع العرب، وفشل قضاياهم، وتمزيق شملهم، واضمحلال أمرهم إلى الأبد !!

وأنا أعلم كما يعلم غيري أن هناك يهوداً لا يتجاوبون مع إسرائيل، فما دلالة هذا؟ هل إذا ذكر بعض الإنجليز الاستعمار ووصفنا الشعب الإنجليزي بأنه بريء من الاستعمار، وأنه لا يحمل تبعات حروبه وعدوانه في إفريقيا وآسيا وغيرهما بضعة قرون؟

إننا لم نصف كل يهودي على ظهر الأرض بأنه معتد على العرب، ولكننا نصف الجمهرة الساحقة من اليهود بأنهم من وراء قيام إسرائيل على أنقاض بلد عربي عليه ساستهم وقادتهم

فلم المماراة في هذه الحقائق الصلبة؟

بيد أن الذين يسعون لإبعاد الإسلام عن ميدان الكفاح بل إبعاده عن أسباب الحياة أو إبعاد أسباب الحياة عنه يمضون في طريقهم مكابرين معاندين

نعيد ما كتب في عدد القاهرة الأخير، وقد كتب «كيف تستطيع شعوبنا أن توفق بين الأصالة وهي التاريخ، وبين التجديد وهو المستقبل»؟ نحن نؤمن من أعماق هذا الرأي، هذه عبارة تدعو إلى التفاؤل، إنها توحي بأن نبني على قواعدنا، وأن نندفع مع سيرنا، وأن نتجاوب مع طلائع العربية المسلمة

والأصالة في حياة أمة هي صورتها الروحية، وصبغتها الفكرية والخلقية، ومكانها في توجيه الحياة وفق عقائدها وشريعتها

وإذا كان لنا نحن العرب تاريخ لامع وحضارة مشهودة فمرد ذلك أجمع إلى الإسلام وحده

وتستطيع الأمة الذكية أن توائم بين جذورها في الماضي وحركتها إلى المستقبل

وإذا سهل ذلك على أمم ذات تاريخ تافهة أو أديان شائهة، فكيف يصعب على أمم أنشأها الإسلام باعث الحياة في رفات قومها، وموقد الشرر في الحجر الجامد؟؟

إلا أن جريدة الأهرام طلعت علينا بحديث للمستشرق جاك بيرك يفسر فيه الأصالة تفسيراً مقلوباً، ويردها إلى عناصر مادية ووثنية، ويرى في قمة الأخلاقيات والآداب والعادات من حيث هي المعالم الأولى للأصالة!!

ويرى هذا المستشرق دلالة بارزة على الحضارة المصرية «الصينية»، ثم يمضي في حديث موغل في التعصب والملق إلى أن يكشف عن نفسه أو يكشف عن الهدف الذي استقدمته من أجله جريدة الأهرام

فهل ليست الأصالة هي العودة إلى الماضي ؟ الدعوة إلى الأخذ بمحاسنه وعيوبه كل ما سبق للثورة الصناعية المعاصرة التي اجتاحت وما تزال تجتاح كل أنحاء العالم وكل صفحات الحياة الإنسانية، فردية كانت أم جماعية . والأصالة اليوم أن نكتشف دورنا وأن نهيئه للانسجام مع عالم هذه الثورة الصناعية المكتسحة، وما هو عداها ؟

ولا يحتاج المرء إلى جهد قليل أو كثير ليشعر بأن القصد من هذا الحديث مع العرب من المفكرين في دينهم، ولا سيما مع أصولهم السماوية ومثلهم الفلسفية والاجتماعية

إن الوقت الحاضر يحمل احتلال الحقول أساسا بعيدة عن منابعها الروحية حتى لو جرفتها الحضارة وأصابتها الحيرة ... حتى لو تهددتها الهزيمة وحدقت بها العدو، فالحساب من هذا كله ؟؟

إن الثورة الصناعية التي أشار إليها هذا المستشرق فهي خصيصة لا تقف بمعنى لدى شركة فيه شيء للأجناس والحضارات، والأمم الكبرى تستغل تفوقها الصناعي في دعم فلسفتها الفكرية ومذاهبها الاجتماعية

أي أن هذا التقدم الصناعي وسيلة محكمة للأهداف الإنسانية للأمم كما تراها كل منها. فالجهاز الصناعي الهائل في أمريكا يخدم المنهج الرأسمالي لدى ثورة صناعية

ومثله في روسيا يخدم المنهج الاشتراكي الاقتصادي فكيف تتحول الوسيلة إلى هدف كما يريد خداعنا هذا المستشرق ؟

إن الأصالة ترجع أساسا إلى الأسلوب الخاص الذي تريده الأمة لنفسها، وهذا الأسلوب لا ينفك عن أركان ديننا وأصول حضارتنا وتاريخنا

وكم يسعى اليهود وغيرهم الغوص في العلم والعمق في أغوار حضارتهم وفرص نفسهم بحيث أن يعمر العرب وأن يرعوا مصالحهم بحضارتهم !!

أهذه مشكلة معقدة ومعادلة صعبة كما يصور بعض الكتبة ؟

هل أبسط من أنه بدينها سائغ مقبول أم باطل بالإسلام فمشكلة المشاكل ؟

إن العودة إلى الماضي في حسبان نحن العرب معناه سيقف الرسالة التي نملأ القلوب الدارعة ونطمئن النفوس المجروحة وتقمع الأهواء الفاسدة وتجعل البشر عبادا لله صالحين وخلفاء على أرضه مكرمين

إن العودة إلى الماضي تعني أن نستصحب الوحي الإلهي في مسيرتنا، ونستهدي هداه على طريقنا. أفذلك ما نحرج به صدورنا ويحتاط منه أقوام؟

لماذا ارتفع هذا الحرج في المجالات العالمية لما عاد اليهود إلى ماضيهم وقاموا باسمه دولتهم؟؟

لماذا لم تتجه جهود الغرب التبشيرية إلى الديانات الوثنية، واستماتت في ضرب الإسلام وحده والتنكيل بأتباع محمد؟

سيقول سماسرة الغزو الاستعماري في الغرب: إن العودة إلى الماضي تعني أن نعود إلى ركوب الإبل.

ويتجاوز هذا الهزل فيقول لأصحابه: بل تريد من هذه العودة أن تهدم حوانيتكم التي فتحت، وتجعلكم أضحوكة الناس.

ففي هذه الأيام واليهود جاثمون على صدرنا ممسكون بخناقنا تنشر جريدة الأهرام هذا الإعلان عن رواية جنسية تعرض في سينمات القاهرة، فتصف كيف سرقت عاهرة رجلا من زوجته وكيف «تضمه إلى صدرها فإذا تنقصه حرارة القبلة، وتشتهي هي الأخرى طعم الحب، وتبدأ بين الاثنين قصة، قصة الرجل المتزوج من امرأة سلبت عواطفه، وقصة الفتاة الصغيرة الناضجة التي تشتهي ضياع المتعة واللذة!! وعلى شواطئه، على شاطئ القصيرة والطويلة والعريضة تروى لأيام أحلى وأعظم قصة عشق» إلخ[1]

هذا هو أسلوب السخرية المتجددة التي نسخر بها من الماضي، ونواجه به عدوان الاستعمار والصهيونية على بلادنا.

هذا هو الأسلوب الذي يستأجر له مستشرقون يفسرون الأصالة بأنها جملة من العناصر المادية.

وعلى هذا النحو تعمل السمسرة الأدبية في إضاعة الماضي والحاضر والمستقبل جميعا.

* * *

(١) - الأهرام ٣٠/٣/١٩٦٩.

تناول الدين بين الجد والهزل

بين الإنسان العربي اليوم والإنسان العربي في صدر الإسلام بون بعيد بعيد

قد يكون إنسان اليوم أفخر ملبسًا، أو أدسم مطعمًا، وأفره مركبًا ومسكنًا من حيث الخصائص الروحية والعقلية فإنه ضائع النسبة إلى أبيه الأول وسلفه العظيم !

لقد ظهر العرب - منذ بدأ بالإسلام تاريخهم - أمة تقود ولا تقاد، وتنفع ولا تنتفع، وتمنح الآخرين المعرفة والخلق والقانون والحضارة لأن ثروتها في هذه الميادين هائلة وحاجة الغير ماسة، والرغبة في العطاء موفورة .

أما عرب اليوم فيدهم السفلى ممدودة ترتقب العون المادي أو الأدبي ممن يعطي إذا شاء أو يأبى إذا شاء .

وقد يتقعطون لطمة تلو لطمة فما يستطيعون لفرط هوانهم أن يرفضوا ضيمًا، أو يدركوا ثأرًا

إن الفروق بين الإنسان العربي اليوم والإنسان العربي أمس جسيمة، لأن إنسان الأمس كان صاحب إيمان عميق، وخلق عظيم، وقدرة على المحاولة خارقة، وهمة في اجتياح العوائق فائقة

أما إنسان اليوم فعريان عن هذه الخصائص المعنوية .

ونحن نبذل جهودًا جبارة كي نطوي المسافة بين حاضره وماضيه، أي نعيده إلى الدين الذي صنع أمجاده، وجعل له في التاريخ دويًا كبيرًا، ولم يكن قبله شيئًا مذكورًا .

والناس قد يأخذون الدين شكلًا لا موضوع له، وصورة لا روح فيها

وهذا اللون من التدين قد يكون أسوأ من الإلحاد المكشوف، لأن التدين المصحوب بالضعف والبلادة والذهول والغفلة سبيل تخلف مهين، لا وزن له عند الله، ولا أثر له بين الناس . !

وعندما حاول بنو إسرائيل قديما أن يأخذوا الدين بهذه الطريقة السمحة هددهم الله جل شأنه بالسحق، أو يأخذوا الدين أخذا معقولا !

أجل، فقد نزع جبلا من مكانه، وهددهم بالدفن تحت ركامه، إذا ظلوا يستقبلون تعاليم الدين بعزيمة خائرة وفكرة غامضة. قال تعالى: ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾(1)

والأخذ للوحي الإلهي بحماس باطن وظاهر، واستحضار ما فيه على نحو ينفي الغفلة والنسيان، أمران لا بد منهما للتدين الحقيقي.

والأمة التي تنظر إلى معالم وحيها ببرود، وتقرؤه باكتراث، أو التي تغلب أهواؤها فتنسى ما كلفت به وتمضي على هواها لا وفق هداها، أمة ليست أمينة على رسالة الله، ولا جديرة برعايته.

وقد حكى القرآن ما مهد الله به قديما لبني إسرائيل حتى نعرف سرا من أسرار سخطه على الأمم.

وعندما أطيل النظر في أحوال العرب اليوم أجد علل تأخرهم ظاهرة

لأن انتماءهم إلى الإسلام قشرة رقيقة على كنود غليظ !!

إنهم يؤدون عملهم كأنهم مشدودون إلى أحمال أخرى، فلا نشاط، ولا إخلاص ولا جد، ولا نصيحة !

أسلوب الأداء خلو من العاطفة الحارة والعقيدة الدافعة

التكاسل مستمر في أداء العبادات والتجهم للخدمة أساس في السلوك العام

[illegible] والإخلال بالعهد، والسعي [illegible] الخ

وجنون الريبة والظنون يفتك بالأفراد والأسر والطوائف

وتضخم الأنانية يتحكم [illegible]، وتسيطر الأفكار المعوجة، بعد أن هجرت الحلول الصحيحة لمشكلاتها !

وضعف الشخصية يستقدم ألوانا من تقليد المستعمرين في الشرق والغرب، ويجعل المجتمع العربي خليطا من المضحكات المبكيات يندى له الجبين

---

(1) الأعراف: ١٧١

إن الإسلام مفهوم غير صحيح للأمة الإسلامية المترامية الأطراف، وللأمة العربية التي تتولى بحكم بعثها مكان القيادة لجماهير المسلمين.

وقد نجح الاستعمار الأجنبي في:

١ – ألا نأخذ من أوليائه بقوة.

٢ – وألا نذكر ما فيه.

ومن هنا استطاع أن يصرفنا عن سنن ديننا، وأن يسلب بالقشور الفارغة، وأن يدفعنا على مر الأيام إلى الخلاص منه، والارتداد النهائي عنه.

وأخطر ما صنعه إيجاد مجتمعات خالية من فضائل العقيدة وروابطها وتقاليد الأمة تمارس شئونها المختلفة، وأمرها فرط، ونفسها خراب، وعقلها هواء.

وربما كانت سنة الله في الأولين تخويفهم بالخوارق حتى يرعووا، ورفع الجبل فوق رءوسهم كي يزعجهم فيستقيموا.

ولكن الله لم يرفع جبل «الطور» فوق عرب الأندلس حتى يدعو مخاوفهم ويخوفهم، فإنه ترك بين المسلمين سننا يقولون بها: ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ (1)

فلا حرج أن يطردوا من ديارهم بعد ما خسروا بخلافهم عن الله ورسوله فيها!!

إن نفرا كان يظن أنه يحكم على أبنائه وعلى ذريته جميعا وعندهم زعم أهل الكتاب يستيقنون أن الجنة حكر لهم، مهما كانت أعمالهم، كذب الله هذه الأوهام، وكشف أنه لا يستحق كرامته إلا من نجحه إليه في عمل الحسن ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (2)

فإذا كان العرب لا يولون وجوههم شطر دينهم ولا يتحرون الحسنى في أمورهم فهل يتوقعون إلا المخاوف والأحزان؟

في الأمم المجاورة [illegible] والمصير يؤذن [illegible] من غير [illegible]، وفيه ظاهرة، ويتصل ذلك بالضعف الذي وضعهم وخوفهم ساعة من الشرق، لا يسوغ من الرهبة، ولنفس [illegible] في [illegible] بأيديهم [illegible] وجه الله ومثوبته، وإخلاصا للأمة ومستقبلها، فمن أين يكون شيء من ذلك نصرا [illegible]

(1) – النساء ١٢٣ (2) – البقرة ١١١، ١١٢

وقد كان العرب الأولون - نمشب مع تربيتهم الدينية الأصيلة - نماذج رائعة في هذه المجالات، فلم يشب الأجيال الأخيرة في عصر مدنيتهم وأعوزهم معنى الإيمان والشرف في حركتها وسكونها، حتى التوفيق في الحرب والسلم، في الداخل والخارج !!

ومن أشك في أن العرب يتعرضون لعداوات استئصال إذا لم يأخذوا الإسلام بقوة، ويذكروا ما فيه لعلهم يتقون

ما يمنع الإنسان العربي المعاصر أن يكون كأسه القديم اعتصاما بالوحي وامتدادا معه، وعيشا في إطاره أو موتا في سبيله ؟

إن الوحدة التي نتقلب في حمأتها ما ينقذنا منها إلا هذا المنهج المبين

أما الدعاوى العريضة دون استناد من يقين وفداء فقد أصبح حبلها للخصوم والأصدقاء على سواء، وأصبحت عديمة الغناء

نحن مفتقرون إلى جيل آخر من الرجال .

والرجولية المنشودة صفة أضفاها القرآن الكريم على صنفين متميزين لم يمنحها غيرهما !!

الصنف الأول أولو العزيمة والوفاء الذين يقولون الكلمة ويموتون عندها صدقا مع ربهم واحتراما لأنفسهم ... وكأني أنظر إلى أنس بن النضر وهو يقول للرسول: إنه غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، أما والله لئن أشهدني الله المشركين ليرين الله ما أصنع !!

هذه يمين إنسان عزم الثقة بنفسه، وقدرته على الصمود والتضحية !

يمين من ورائها إيمان بعيد الآماد لا يزيغ ولا ينبو !!

ولقد ثبت هذا الرجل في أحد، وتلاشى كالنسر أسلحة أعداء الله، ولكنه هو وأنداده من الأبطال كانوا الجسر الذي عبر عليه الإسلام إلى قرون أخرى لا يعلمها إلا الله .

والجدير بهم ما نزل فيهم من كلام الله الخالد ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ [1]

---

(١) - الأحزاب ٢٣

أما الصنف الآخر من الرجال الذين نتطلع إلى ملامحهم الطيبة الطاهرة فهم مدمنو الصلاة، عشاق المساجد، ذاكرو الله بالغدو والآصال، أصحاب السرائر الصافية، والأيدي السخية، والضمائر المرهفة لربها، المستعدة ليوم الحساب ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[1]

هل نطمع أن نربي ناشئته على هذا الغرار، وأن نكثر في أمتنا هذا النوع من الرجال؟

إن العين تلمح أجسادا متحركة بالمشرب الطيب، والطعم الكبير والصغير سواء انه فاستهم أنفسهم، ذلكم هو الغثاء الذي يصبح به اليوم والغد

فهل نتغير بتغيير الله ما بنا ؟

إن الهزائم السود التي أصابتنا تعود قبل أي شيء إلى قلة الرجال الذين شرح الكتاب نعوتهم، ورسم مستواهم!

إن الرجولة ليست صفة جسدية ترادف الذكورة، ومع ذلك فهي رجولة ترفض المشقات، وتعشق الملذات، وتحسب الشبع والري والزينة والظهور الشخصي مثلا رفيعة!!

والكثرة من هؤلاء قلة

والعراك بهؤلاء لا أمل فيه!!

قد أسأل نفسي: لماذا يخرج العمل شائها أو تافها من أيد كثيرة عندنا؟ مع أن المعارف النظرية لإكماله وإعلائه موفورة

والجواب الذي لا أرى غيره: هو فقدان الإيمان الحار والاعتقاد المتوهج

وتحول الدين في القلوب إلى قوة كهربائية محنطة بالمواد العازلة معطلة الأثر.

وقد عرض ذلك لأهل الكتاب الأولين فأفسد أمورهم وأحبط أجورهم

وحذر الله المسلمين منه عندما قال لهم ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾[2].

---

(١) – النور ٣٦، ٣٧ (٢) – الحديد ١٦

والواقع أن الإنسان العربي اليوم أشبه باليهود والنصارى أيام البعثة، وعلى عهد الخلافة الراشدة!!

إنسان طال عليه الأمد، واستغلق فؤاده دون هدايات الله

بل وجد في العرب من يضيق بالانتساب إلى الإسلام، ومن يغضب إذا ذكر بأحكامه وشرائعه وشعائره!!

ولن تقوم للعرب قائمة إلا بعودة حية قوية بالصحو للإسلام تنسخ جاهليتهم العرقية والجماعية على المنوال الذي نسخ جاهليتهم في العصر الأول، فطلع بهم فجر وولد بهم تاريخ

* * *

فوضى الحلال والحرام..
في غياب التشريع الحق

لأن الأمة الإسلامية اليوم تمثل جماهير كثيفة من الشعوب المتخلفة.

والفروق بين الشعوب المتخلفة والشعوب المتقدمة كثيرة ومتنوعة، ويمكن ردها جملة إلى خمول حقيقي في المواهب الإنسانية الرفيعة، حين عجزت هذه المواهب عن أداء وظائفها باقتدار وإجادة.

وليس يصعب على من يرقب الأمم المتأخرة أن يلحظ كسلها العقلي في ميدان المعرفة، وكسلها العملي في ميدان الإنتاج، وضعف الأخلاق التي تحكم قواها وحركاتها، وكثرة العقد النفسية التي تمثل طابع التربية والأثرة والملق والتعصب على المستوى الفردي والاجتماعي.

إن هناك انهيارا حقيقيا في البناء الإنساني للشعوب المتخلفة!

والإصلاح الجاد يستهدف إعادة هذا البناء ودعمه خلقيا واقتصاديا وسياسيا.

ونحن — المشتغلين بالدعوة الإسلامية — نعالج هذا العمل الشاق، ونرى العقبات التاريخية والطارئة التي تعترض طريقنا وما أكثرها.

وهناك ناس يعملون لهذا الهدف، هدف بناء أمة جديدة، ولكنهم متأثرون بشيء لا يرتبطون بالإسلام ولا يستشيرونه في حل مشكلة أو شفاء علة.

وظاهر أن هؤلاء الناس هم الذين نشأوا في ظل الاستعمار الأوروبي، ورأوا أن تكون بلادهم مغمورة بشارات رايته الظاهر والباطن، فأرادوا أن يلتحقوا بالركب المتقدم عن طريق التشبه به والاقتباس منه.

ولما كان علم هؤلاء بالإسلام قليلا، فإنهم لم يحاولوا الإفادة منه أو الارتباط به بل مضوا في طريق التقليد للشعوب المنتصرة في ظاهر أمرها وباطنه.

وعذرهم أمام أنفسهم على الأقل أنهم يبغون النهوض بأمتهم.

ولسنا الآن بصدد نقد هؤلاء، ولا ذكر مواقفهم المعنتة من الدعاة المسلمين

بل على العكس سنتناول باللوم والإنكار مواقف بعض المتشددين المعاصرين الذين يسيئون إلى الإسلام من حيث يظنون خدمته . .

إن تبذل النساء في هذا العصر بلغ حد السفه وهبط إلى درك سحيق من الحيوانية المنكورة

وصيحات الوعاظ لوقف هذا التيار تذهب بددا . .

لماذا ؟ لأن تناولهم لقضايا المرأة مشوب بالغموض أو الجهالة ، متسم بالسلبية والعجز ، محكوم بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان

وأغلبهم لو أمكنته الفرص لرد المرأة إلى البيت وغلق عليها الأبواب ، وحرمها مختلف الحقوق المادية والأدبية ، وجعلها القدم العرجاء للإنسانية العاثرة أو الجناح المكسور للأمم الصاعدة . . !

والمسلمون في العصر الماضي جانبوا الإسلام مخالفة مستغربة في الطريقة التي تحيا بها المرأة . . !!

فهم حرموها حق العبادة – بتعبير العصر الحديث – وحظروا عليها دخول المساجد ، ويوجد في أنحاء مصر نحو سبعة عشر ألف مسجد ، لا ترحب بدخول المرأة ، ولم يبن في أحدها باب مخصص للنساء ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنى مسجده بالمدينة المنورة .

وقد بذلت بعض الجهود ، لتغيير هذه الحال ، ولم تنجح إلا في حدود تافهة !

مع أن صفوف النساء في بيوت الله كانت أحد معالم المجتمع الإسلامي الأول !!

وهم حرموها حق العلم – بتعبير العصر الحديث – فلم تفتح المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية والعالية للمرأة إلا بعد محاولات ومجادلات مضنية

ولم تدخل الأزهر إلا بعد تطويره الحديث ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل طلب العلم فريضة على الرجال والنساء ، ومع أنه أمر بخروج النساء وهن حوائض ليشهدن الخير ويعرفن دعوة الإسلام . .

وهم رفضوا أن يكون لها دور في إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وصيانة الأمة بنشر المعروف ، وسحق المنكر ، مع أن الله قال في كتابه **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** (١)

---

(١) التوبة ٧١

ان الفكرة التي سيطرت على أدمغة نفر من المتمدنين هي عزل المرأة عن الدين والدنيا معا، واجتياح كيانها الشخصي وكيانها المعنوي.

ولا نزال هذه الفكرة أملا يحركهم، ويحملهم على ترويج أحاديث موضوعة وواهية، وتكذيب أحاديث صحيحة وحسنة، وعلى تفسير القرآن الكريم بآراء لم يعرفها نبيه، ولا قام عليها مجتمع الأصحاب والتابعين!!

ان ستطيع القول ان تقاليد التي دفعت بها المرأة المسلمة بهذا الفكر القاصر، جعلتها دون المرأة في الجاهلية الأولى

فإن المرأة العربية ظهرت في بيعة العقبة الكبرى، كما ظهرت مبايعة بعد فتح مكة، وقارب عدد النساء المبايعات ستمائة امرأة!

والجهة المتدينة تستكثر على المرأة المسلمة هذه المكانة الكبيرة، وقد شح عن هذا التفكير في قضية المرأة، وعن التفكير المماثل في قضايا أخرى كثيرة أن ظلم الإسلام ظلما شديدا، وأن أساء به ظن من لم يحط به خبرا ومن لم يحسن له فهما

وعندي أن الانقلاب على الفكرة السلبية من قيود الإسلام الحقيقية يرجع إلى هذا العجز والغباء

وقد لاحظت أن بعض المصلحين ممن اشتغلوا بتحرير المرأة قد جرأهم هذا الموقف على ارتكاب حماقات سيئة، بل جرأهم على ترك الإسلام!!

فهم لم يقوموا بتصحيح أخطاء بعض المتدينين بدفعوا في طريقهم معاس فخطئوا الدين نفسه حيث لا محل لتخطئة، ولا مكان لتصويب!

وإنه لمن المحزن أن يسيء الدعاة عرض دينهم في ميدان ما، فتتزعزع الثقة بهم في كل ميدان، ثم يعنح الناس على مصدر غيره بدلا من شتى أحكام الإسلام السمحة والثابتة، يقبل منها ما يعجبه، ويرد منها ما ينبو عن مزاجه المنحرف!

أكتب ذلك وبين يدي كتاب مطالعة للمدارس الثانوية أعد على عهد وزارة المعارف وراجعه الدكتور طه حسين بك وآخرون

في الفصل الثالث من هذا الكتاب حديث عن قاسم أمين وردت فيه هذه العبارات «وضعاته ونماذجه في الحياة العامة يوم كان يلي منصب القضاء» «ولم يتقيد في قضائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره كثير من القضاة حجة لا محيد عنها، بل لم يتقيد بنص القانون إذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه... وهذا من جعله ميالا للرأفة في قضائه، نافرا أشد النفور من حكم الإعدام!!»

فقد كان يرى «أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع لإصلاح المذنب»، وأن «المعاقبة بالشر تضيف شرًا إلى شر»، وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويقع في إصلاح فاعله، «وأن الحقيقة هي الشيء المقدس الذي لا محل لاستعماله واحترامه الصفة اللازمة لغريزة الإنسان».

وقد كانت الجماعة التي يعيش فيها بعيدة عن إدراك هذه الأفكار وكانت في سبيلها [illegible] وكل [illegible] إلى تطبيقها. هكذا يتحدث قاسم أمين العاصي عن نفسه!! [illegible] تجري على سنة القصاص والانتقام، ومن [illegible] دموية متوحشة فلا أقل من أن يتحدث عن الإعدام، وهو أشد العقوبات وحشية، وهو العقوبة الوحيدة التي لا سبيل لعلاجها [illegible] ظهر خطأ العاصي أو [illegible] الجماعة إلى [illegible] من [illegible] عقوبتها تجعل العقوبة للإصلاح لا للقصاص، أو أحلت محلها مذهب العفو والتسامح!

[illegible] القارئ الذي يطلع على هذا الكلام [illegible] يحس أن صاحبه يصطدم بالوحي، ويكذب أن في القصاص حياة.

ويوغل مع الخيال فيقرر أن العفو العام في كل حال وعن كل شخص هو قاعدة الإصلاح الاجتماعي الصحيح!!

والكلام كله لغو فارغ، بل محض يعزل صاحبه لا عن منطق العقلاء وحسب، بل وعن الفتيا في مشاكل الناس.

ونعتقد أن قائل هذا الكلام متحرر تحررًا تامًا من احترام نصوص الكتاب والسنة!

ومع ذلك فإن طلاب الجديد من الشباب أيامئذ [illegible] لم يقرءوا هذا الكلام [illegible] تلك العبارات.

[illegible] روح قاسم روح أديب، ولكنها الروح العصبية الحساسة الثائرة التي لا تعرف الطمأنينة ولا تستريح إلى السكون، ولكنها الروح المشوقة التي لا تعرف الهدوء في ذلك، بل تظل مستخفة للبحث والتنقيب حتى تنسى نفسها، وتنسى ما يكتنفها ما في الكون من نشاط وجمال.

وفي [illegible] في تحرير المرأة من رق الجهل، وفي الحجاب لم يكن كل برنامج قاسم أمين الاجتماعي، ولكن كانت خطته هي نشر حضارته واعتقاده».

ونحن نقول: إن قاسمًا وغيره ممن نهج في الحياة منهجه كانوا أشخاصًا يتقمصهم

قدر كبير من العلم الديني والعلم المدني، وأنهم استغلوا القصور الشائن الذي غلب على المحدثين باسم الإسلام فهجموا على الأمور هجوماً شاملاً كان شره أكثر من خيره.

وربما استطاعوا أن يكتسحوا رجال الدين ... من أصحاب التسمية ... في مجال النشاط النسائي لما علمت من حقيقة الموضوع.

لكن التطويح بشرائع القصاص ومن والنهاية لحدود عنه صارت المحذور، والانسلاخ عن الإسلام لا يجدي فيه دفاع، ولا يساق فيه عذر.

إذا قال الله ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [1] فجاء غر يقول في القصاص همجية! فليس هذا جهلاً فقط، ولكنه ارتداد عن الإسلام وكفر بواح عندنا من الله فيه برهان.

وقد سمعت من موضعه في الإذاعة، في أحد برامج الصباح، وصف قطع يد السارق بأنه وحشية، ولم يفاجئني هذا الارتداد الصريح فإن التمهيد الثقافي له بدأ من عهود الاحتلال الأجنبي لشتى البقاع الإسلامية.

ومن نقيصته هي ... ... قسم أمين ... التي وضعت بين يدي طلاب الصفوف الثانوية يشهد لذلك.

ونريد أن نعلم العاصي والمتدين أن كل طعن في نصوص الإسلام القطعية مردود على صاحبه، وأنه ضرب من الارتداد يخدم الاستعمار الحاقد على ملتنا وتاريخنا.

ولا فرق عندنا بين ارتداد جزئي وارتداد كلي.

فإن أبا بكر رضي الله عنه حارب الجاحدين للزكاة مع من ... الذين ... بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

مع أن مانعي الزكاة زعموا أنهم مؤمنون بالله ويقيمون الصلاة.

بيد أن هذا الزعم لم يخدع الخليفة الأول، ولا جمهرة أصحابه، فقاتلوا الفريقين جميعاً، وعدوا هؤلاء وأولئك كفرة لا شك في كفرهم.

والحقيقة التي نستيقنها أن الناقمين على شرائع الحدود والقصاص قوم لا يقين لديهم ولا صلاة بهم، وأن علاقتهم بالقرآن مقطوعة، وأنهم لا يستبقون نسبتهم إلى الإسلام إلا لظروف عارضة، أو ليكيدوا له وهم داخل دائرته.

---

(1) البقرة ١٧٩.

وكلمة أخيرة للمتخصصين بالعلوم المدنية. إنه لا يشرفهم أن يدركوا رأيا فقهيا ويجهلوا رأيا آخر!

إنهم يصورون الإسلام صورا ناقصة حين تكون صورته في أذهانهم ناقصة أو شائهة، ثم حين يزعمون مع هذا النقصان والتشويه أنهم علماء الدين وحراسه.

إن القرن الأول – من بين القرون الأربعة عشر التي تمثل تاريخنا – هو أقرب العصور إلى حقيقة الدين... فكيف يحكم الإسلام «متن» من متون الفقه ألف أيام الاضمحلال العقلي للأمة؟

أو كيف يحكم الإسلام عرف تركي في مجال السياسة أو المجتمع؟؟

لقد كان الاستبحار العلمي سمة طبيعية لأمتنا في أعصارها الأولى.

فلا يجوز أن يقطعنا عن هذا الماضي برهة جهل عارض، أو فكر غامض.

ويوم يعود المسلمون إلى دينهم الحق، فإن التخلف الفكري اللاصق بهم اليوم ستنجلي غمته وتنكشف ظلمته.

وسيأخذون طريقهم مرة أخرى إلى الصدارة، والتقدم.

* * *

إسلام واحد وإن اختلف الفقهاء

المؤمنون أفراد وجماعات يتحرون مرضاة الله في مسالكهم كلها، ويجتهدون أن تقع أعمالهم وفق مراد الشارع الحكيم سواء في العبادات المعقولة أو المعاملات المعقولة

وغير المؤمنين يخطون طريقهم في الحياة بجهدهم الفكري وتجاربهم الخاصة

وصلتهم بالوحي الأعلى مقطوعة أو واهية

وفي الوقت الذي تحكم فيه النصوص السماوية والقواعد الدينية حياة المؤمنين بالله، نجد غير المؤمنين ينشطون بفكرهم المجرد يتصرف في هذه الحياة، ويضع ما يرون من دساتير وقوانين يظنون أنها تكفل مصالحهم وتضمن سعادتهم

وقد اتسعت علوم السياسة والاجتماع والأخلاق والاقتصاد وغيرها من العلوم الإنسانية البحتة، وانفردت بقيادة الإنسان على ظهر الأرض في جانب مجموعة من الفلسفات النظرية التي اشتغل بها العقل البشري من قديم

أما المؤمنون بالله، ونحن في هذا المقصر نعني المسلمين خاصة، فهم يعتمدون على شمول التعاليم السماوية لشئون حياتهم، ويستغنون بها عما وراءها من مذاهب ونظريات

معتقدين أن في هدايات الله تعالى الكمال، وأن الله جل شأنه قد ضبط معاشهم ومعادهم بكلامه، وسنة نبيه، فلا مكان لشيء آخر بعد ..!

﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان .. ﴾ (١)

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٢)

والحق أن الوحي الإلهي في الرسالة الخاتمة قد كفى وشفى وحدد حيث يسعى

---

(١) الشورى ١٧ — (٢) الحديد ٢٥

التحديد، وفصل حيث يستحب التفصيل، وأجمل وعمم حيث يقتضي الأمر إرسال التعميمات مجملة عامة.

وحث العقل على أداء وظيفته في الفهم والاكتشاف والتبصر والاعتبار، وحذره أن يجانب الحق بالحدس والتخمين، وأن يبدد قواه في اقتحام الغيوب المعجزة.

كما علمه الأدب مع الله ورسوله، فلا مكان لاقتراحاته حيث يتكلم الوحي، ولا لابتداعاته حيث مضت السنة.

والمعاني التي قررناها آنفا ليست موضع خلاف بين المسلمين، ولكن الخلاف أخذ لونا آخر يقترب اقترابا شديدا من هذا الموضوع.

فقد تساءل أسلافنا - غفر الله لهم - عن مكانة العقل بالنسبة إلى الحظر والإباحة، والفعل والترك، والاستهجان والاستحسان، وكانت إجابة كثير منهم أن العقل في هذا الميدان صفر، وأن الشرع وحده هو كل شيء.

وفي هذه الإجابة غموض وجور.

فإن العقل يستطيع بنوره الذاتي أن يعرف الشر في أشياء كثيرة، وأن يلحظ الخير في أشياء كثيرة.

وقد نبه القرآن الإنسان إلى أنه بفطرته قادر على التفرقة بين شناعة الجهل وكرامة العلم **﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾**[1]

وإلى أنه بفطرته يستطيع العلم، ويأبى الحكم بأنه **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾**[2]

صحيح أن العقل الإنساني بحاجة إلى عون من الله ومدد من الوحي.

بيد أن هذه الحاجة لا تعني بخس قيمته ولا التهوين من قدرته المحدودة في مجالي التحسين والتقبيح.

ولكن جمهور السلف رأى - سدا لباب الاستعلاء بالعقل - أن يجعل الشرع صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في هذا المجال، ويقرر هذا العلامة الزنجاني في كتابه[3] «تخريج الفروع على الأصول» فيقول:

---

(١) - الزمر ٩ (٢) الجاثية ٢١

(٣) - أخرجت جامعة دمشق هذا الكتاب في السنوات الأخيرة، وهو من ذخائر الفقه الإسلامي.

ذهب الشافعي رضي الله عنه وجمهور أهل السنة إلى أن الطهارة والنجاسة وسائر المعاني الشرعية كالرق والملك والحرية، وسائر الأحكام الشرعية، ككون المحل طاهراً أو نجساً، وكون هذا الشخص حراً أو مملوكاً، ليست من صفات الأعيان المنسوبة إليها، بل أثبتها الله تحكماً وتعبداً، غير معللة!! لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه ﴿ **لا يُسأل عما يفعل وهم يسئلون** ﴾ (1)

ولا تصل العقول الكليلة، والعقول الضعيفة، والأفكار القاصرة إلى الوقوف على حقائقها، وما يتعلق بها من مصالح العباد، فذلك حاصل ضمناً وتبعاً، لا أصلاً ومقصوداً، إذ ليست المصلحة واجبة الحصول في حكمه.

واحتج على ذلك بأن الله تعالى إذا جاز أن يعاقب الكافر على كفره، والفاسق على فسقه ولا مصلحة لأحد فيه، جاز أن يشرع الشرائع، وإن تعلق بها مفسدة ولا يتعلق بها مصلحة لأحد (2).

وكذلك نرى الله تعالى كلف الإنسان ما ليس في وسعه فقال تعالى ﴿ **فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** ﴾ (3) ﴿ **فأتوا بسورة مثله** ﴾ (4) وقال للملائكة ﴿ **أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين** ﴾ (5) وكل ذلك تكليف للإنسان ما ليس في وسعه، وذلك ضرر لا مصلحة فيه (6).

وسر هذه القاعدة أن الله تعالى مالك الملك وخالق الخلق، يتصرف في عباده كيف يشاء، ولا كذلك نحن الخلق، فإنه إذا أضر بغيره كان متصرفاً في ملك الغير بالضرر، وذلك ظلم وعدوان ...!!

وذهب المنتمون إلى أبي حنيفة رضي الله عنه من علماء الأصول إلى أن الأحكام الشرعية صفات للمحال والأعيان المنسوبة إليها، أثبتها الله تعالى، وشرعها معللة بمصالح العباد لا غير.

كما أن الحسن، والقبح، والوجوب، والحظر، والندب، والكراهة، والإباحة، من صفات الأفعال التي تضاف إليها.

غير أنه قسم الأحكام والأفعال إلى ما يعرف حسنه بالعقل، وإلى ما يعرف بأدلة الشرع على ما سبق.

---

(1) [illegible] ٢٣ [illegible] ٣٨

(2) [illegible] [illegible] ٣

(3) [illegible] ٣ [illegible] ٢ من عبد الهمس

أما أحكام الأعيان فقد اتفقوا على أنها كلها تعرف بأدلة شرعية، ولا تعرف بمجرد العقل، وأنها كلها تثبت بإثبات الله تعالى.

واحتجوا في ذلك بقياس الشاهد على الغائب، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح، وزعموا أن شرع الحكم لا لمصلحة عبث وسفه، والعبث قبيح عقلا.

وهو كإقدام الرجل اللبيب على كل ما فيه من ضرر بين ضرر! فإنه يقبح منه ذلك ويستحق الذم عليه.

وإذا مهدت هذه القاعدة فنقول: الشافعي رضي الله عنه حيث رأى أن التعبد في الأحكام هو الأصل غلب احتمال التعبد، وبنى مسائله في الفروع عليه.

وأبو حنيفة رضي الله عنه حيث رأى أن التعليل هو الأصل بنى مسائله في الفروع عليه، فتفرع عن الأصلين المذكورين مسائل ... إلخ.

ولست هنا بصدد ترجيح مذهب الأحناف وتضعيف رأي الجمهور، فالأمر عندي أعمق من ذلك.

إن المسلمين كافة يعلمون أن الله هو القاهر فوق عباده وأنه ليس لبشر ما أن يقف أمامه إلا عانى الوجه، مكسور الشوكة!

وإن إرادته نافذة في أرجاء الملكوت لا يعترضها إنس ولا جن ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[1].

لكن الله - وله المجد الذي لا يبلى - خلق السموات والأرض بالحق لا بالباطل، وسير الكائنات في السر والجهر ولكن بالحكمة لا بالفوضى، ودبر الأمور من الأزل إلى الأبد وفق نظام دقيق لا خبط عشواء، ولا بقدر مجازف ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾[2].

فكيف نتصور في شرائعه أن تتخلف المصلحة أو تنطوي على مفسدة؟

إنه حقا لا يسأل عما يفعل، ولكن هل المتصور أن من ذاته فوق المسئولية يجوز أن يصدر عنه ما لا يعقل؟ بحجة أنه مالك الملك؟..

والأولى من ذلك والأدنى إلى الصواب أن نعرف حدود الدائرة التي يستطيع فيها العقل البشري الإدراك الصحيح والحكم السديد.

---

(1) الأعراف ٥٤ (2) القمر ٥٣

بل الإنسان الفرد تتفاوت أحكامه في مرحلتين من عمره على شيء واحد، وربما استقبح وهو شيخ ما كان يستحسنه وهو شاب.

وربما يسخ التصور عشوه كثمة أو حقيقة على التصارب فقط معا بما هو صادر به

﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1]

فقد توهمنا عبوثا في مظاهر الخلق أو جورا ما في أحوال الناس فنتهم أفكارنا نحن ولنعترف بقلة علمنا، قبل أن نقول **﴿لا يسأل عما يفعل﴾**

وأعتى علماء المادة يعترف بأن ما يجهل أضعاف أضعاف ما يعلم، وأن حصيلة الذكاء البشري طوال القرون تشبه عودا من الثقاب أوقد في ظلمات ليل ضرير الآفاق!

إنه ما يرى في هذا الكون الكبير إلا النزر اليسير.

وقد شاء رب العالمين أن يزود الإنسان بالعقل يستبين به في نطاق محدود الخير من الشر والخطأ من الصواب، كما زود العين بالقدرة على الرؤية في نطاق أبعاد معينة.

وربما أصيبت العين بعاهة عارضة تمنعها من النظر البعيد أو القريب بيد أن ذلك لا يعني أن طبيعة العين تعجز عن الرؤية.

وكذلك لا نسلم لأحد القول بأن العقل عاجز بطبيعته عن إدراك الحسن والقبح في الأشخاص والأشياء.

ولا نسلم أبدا بأن الكذب والصدق، والعدل والجور معان متساوية القيمة أصلا حتى نزل الوحي الأعلى بحسن هذه وقبح تلك.

والذي نراه أن جمهور المسلمين وفي مقدمتهم الإمام الشافعي رضي الله عنه يقصدون بكلامهم في التحسين والتقبيح ربط الحكم بالفلسفة العملية في مسير الإنسان ومصيره، وحاضره ومستقبله، وشئون حياته كلها ما دق منها وما جل.

وهو مذهب خطير بلا ريب، بل هو تجاهل للرسالات الإلهية كلها، واستعلاء على ما جاء بها، وقبول ما يعجب، ورد ما لا يعجب.

ومن فجر الخليقة حاول الإنسان أن يعتمد على نفسه في الفعل والترك والقبول والرفض.

---

(١) – البقرة ٢١٦

وفي عصرنا هذا أعطى الإنسان نفسه حرية مطلقة في التشريعين العام والخاص وتصرف في شتى شئونه بالمحو والإثبات وجعل حقه في التحسين والتقبيح فوق ما قرع آذانه ليلا ونهارا من آيات الله والحكمة

وما يختلف مسلم ومسلم في أن ذلك المسلك مردود جملة وتفصيلا

وإذا كانت هناك الآن مبررات في عالم الاجتماع والاقتصاد، أو في ميادين السياسة والقانون تختلف مع نصوص الدين أو قواعده العامة، فهي في نظر فقهاء المسلمين قاطبة مكرورة مجمدة.

إن أوامر الله ونواهيه هي المصدر الأعلى أو قل هي المصدر الأوحد لما يحظر أو يباح

وقد عاد الزنجاني في كتابه العظيم « تخريج الفروع على الأصول » إلى هذا الموضوع مرة أخرى فقال :

ذهب جماهير العلماء إلى أن التحسين والتقبيح راجعان إلى الأمر والنهي، فلا يقبح شيء لعينه، ولا يحسن شيء لعينه من المعنى لكونه قبيحا أو محرما، أنه متعلق النهي والمعنى لكونه حسنا أو واجبا أنه متعلق الأمر

واحتجوا في ذلك بأن ما يخاف العقل شيئا من ذلك لا يخلو إما أن يكون ضروريا، أو نظريا

والأول محال، فإن الضروري لا نزاع فيه، كيف ونحن جم غفير وعدد كثير لا نجد نفسنا مضطرين إلى معرفة حسن هذه الأفعال ولا قبح نقائضها

والثاني أيضا محال لإفضائه إلى التسلسل.

وذهب المنتمون إلى أبي حنيفة رضي الله عنه من علماء الأصول إلى أن الأفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام

فمنها ما يستقل العقل بدرك حسنه وقبحه بديهة، كحسن الصدق الذي لا ضرر فيه وقبح الكذب الذي لا نفع فيه

ومعنى الاستقلال أن العقل يدرك ذلك عندهم، وأنه لا يتوقف على إخبار مخبر ومنها ما يدرك حسنه وقبحه بنظر العقل « كحسن الصدق المشتمل على الضرر » وقبح الكذب المشتمل على النفع »

ومنها: ما لا يستقل العقل بدرك حسنه وقبحه أصلا، دون تنبيه الشرع عليه كحسن الصلاة والصوم والحج والزكاة، وقبح تناول الخمر والحرير ولحوم الحمر الأهلية.

وزعموا أن أمر الشرع في هذا القسم ونهيه كاشف عن وجه حسن هذه الأفعال وقبحها لعلمه بأن امتثال أمره فيها يدعو إلى مستحسنات العقل، وكذلك تركها في نقيضها من المناهي.

واحتجوا على كون العقل مدركا لمعرفة الحسن والقبح، بأن البراهمة يقبحون ويحسنون مع إنكارهم الشرائع وجحدهم النبوات.

وقد رفض الزنجاني مذهب الأحناف الذي صوره في بحثه، وآثر عليه غيره.

والذي نعود إلى توكيده أن الله جل شأنه هو الحاكم المقسط، وأنه لا يشرع إلا ما فيه صلاح أمرنا في العاجل والآجل، وأنه منحنا عقولا تستطيع أن تبصر وجه الحكمة في أغلب ما شرع، وأن ما يفوتها عرفانه فلقصورها عن الإحاطة بكل شيء.

وتلك مذاهب لا يختلف الفقهاء فيها، وما ورد يشعر بخلاف فسياسة التخريج الفقهي من مذاهب جائرة عن الطريق الحق أو تعبير عن شهوات الأقدمين أساسه «سد الذرائع».

وأريد أن أخلص من هذا الاستعراض إلى حقيقة تتصل بموضوع هذا الكتاب.

إن المذاهب الفقهية في الإسلام يكمل بعضها بعضا ولا يغني أحدها عن الآخر.

إنها كلها تمثل الفكر الإسلامي الرحب الذي يجب أن يدرس، ويبحث، ويخضع للنقد، والمقارنة، والترجيح، والمحو، والإثبات.

ونحن شديدو الاحترام لأئمتنا الأوائل، عظيمو التقدير لذكائهم الخارق، وتقواهم لله، ونصحهم للأمة، ومقاومتهم للجور.

غير أننا نشعر بأن كل واحد منهم يمثل لونا من التفوق الذهني والمناهج العلمية، وأن الإسلام مجموعة هذه الألوان وغيرها مما يجد على اختلاف الليل والنهار من اجتهاد الفقهاء، وتطبيق الكتاب والسنة على مختلف الشئون.

إن من يطلب تحكيم الإسلام لا يفكر في إقامة دولة مالكية، أو دولة حنفية، مهما تعمق في التفكير.

إن الإسلام الذي نستهدي به هو

أولا: الأصول المعصومة من كتاب وسنة

وتبينا جهد العقل الإسلامي في مواجهة الأحداث المتتابعة في تاريخه الطويل، ومدى ما أحرز من توفيق، أو عرض له من خطأ.

ونحن المسلمين في هذا العصر نواجه الفكر الإنساني القادم من شتى القارات، المعارض لأنواع الحضارات المعاصرة بعشرات النزعات والفلسفات. فكيف يلقى هذا القصف العامر رجل محصور في مذهب فقهي يتعصب له؟ أو رجل ينتسب إلى فرقة إسلامية ويتدنى في أخطائها...؟

إن على دعاة النهضة الإسلامية المعاصرة أن يخلعوا من هذه القيود وأن تكون لديهم إحاطة علمية بما لديهم مهما كان الرأي فيه.

وحسن الإدراك لثقافتنا في أصولها وفروعها شيء، وما يميل إليه المرء من رأي أو يؤثره من وجهة شيء آخر!

ويؤسفني أن تكون أزمة المعرفة في بلادنا، وبين رجالنا، بعض النقص الذي نشعر به في جوانب حياتنا كلها، المادية والأدبية.

وما يخدم الإسلام بهذه الضيقة، ولا هذا الانحصار.

* * *

ختام

قد يستطيع العرب استيراد السلاح من جهة أو أخرى كي يستردوا حقهم الضائع، ويداووا جراحاتهم الغائرة.

ولكنهم لو أداروا ظهورهم لله ثم جمعوا سلاح المشرق والمغرب فلن يدركوا به إلا ذل الدهر وخذلان الأبد!!

ولن يغني عنهم أن يعطف عليهم ذلك الفريق، أو يشد أزرهم ذلك الفريق ﴿**أمّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور**﴾(1).

ليس أمام العرب إلا طريق واحد لتطهير أرضهم، وطرد عدوهم واستعادة النضرة إلى وجوه كساها الهوان.

هذا الطريق هو العودة إلى الإسلام ظاهرا وباطنا وترسم خطى السلف الأول في صدق الإيمان وحسن العمل.

لقد اختار الله العرب ليحملوا أمانات الوحي بعد أن عبث بها بنو إسرائيل.

فإذا استهان العرب بهذا الاختيار الإلهي، وقرروا أن يدعوا العمل بالإسلام، وأن يتركوا الدعوة إليه، ورأوا أن يلتحقوا أذنابا أو رءوسا بإحدى الجبهتين المتنافستين في العالم فهيهات هيهات أن يفلتوا من عقبى هذا الارتداد الخسيس ونكث البيعة الفاجرة!

إنهم لن يجنوا من هذا المسلك إلا خيبة السعي وضياع الجهد.

إن الله لا يترك الناقضين لعهوده يمرون بسلام.

أهون ما يلقونه أن يغلبهم ذباب الأرض وإخوان القردة.

وذلك هو حصاد الغرور.

---

(1) - الملك 20

أما طريق الشرف والكرامة فأنسانه لن يعرف العرب لم كانوا أمة؟ وكيف صار لهم في التاريخ الإنساني وجود؟

لقد ظفر الإسلام بهم طفرة رحيبة الأبعاد، ونقلهم من عصابات همل في وديان الصحراء، ومن أحلاس شهوات إلى قادة هدى وبر، وأصحاب صلاة وزكاة !!

فهل جزاء الإسلام الذي رفع خسيستهم أن يأبوا النسبة إليه، وأن يرفضوا إنفاذ أحكامه وإعلاء شعائره؟

وهل يستكثر بعد هذا الكنود عليهم أن يصابوا بالهزائم التي تنكسر بها الرءوس وتشخص لها الوجوه؟؟ ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ (١)

ليس للنصر إلا طريق واحد.

أن يعود العرب إلى إسلامهم، وأن ينعشوا روح الإيمان في منابت من أحوالهم وأعمالهم، وأن يسلموا وجوههم لله ثم يمسوا بأصابعهم أي شيء في متناول اليد فسوف يتحول إلى أداة نصر ومفتاح نجاة !!

إني ألمح على الأفق القريب أو البعيد رهبان الليل فرسان النهار، وهم يجتازون الحدود مغردين بالعلام الذي غرتنا بوادره.

وكأني أسمع صرخات التكبير والتوحيد يدوّون بها أرجاء الصحراء، وتهتز لها بطون الأودية وهي تكنس أمامها بني إسرائيل في أرض الميعاد وتؤكد للقرون الباقية من عمر الدنيا أن رسالة محمد لم تمت ولن تموت، وأن القرآن الكريم هو كلمة الحق النافذة إلى يوم الدين.

لقد أقبل بنو إسرائيل يتحدون الله ورسوله، ويريدون بناء مملكة للتوراة والتلمود على أنقاضنا !!

ولقد أعانهم على إدراك مآربهم خصوم الحق والشرف، وورثة العداوة والبغضاء من أحقاد الصليبيين الأقدمين.

بيد أن أحدا لم ينل منا مثل ما نلنا نحن من أنفسنا !!

لقد تركت ـ من نصف قرن ـ البدع والخرافات والانحرافات تطوح بنا بعيدا عن ديننا، حتى مهدت للاستعمار سبل الغلب علينا.

---

(١) – الحديد ٢٦

ثم ترك المستعمر الغاصب يمحو ويثبت كيف يشاء من معتقداتنا، وتقاليدنا، وأفكارنا، ومشاعرنا، ويقتحم من دمه وعنفه ما يزيدنا خبالا

ثم ترك الأجيال الناشئة تنبت وهي تستغرب دينها ولغتها وتاريخها ومثلها، وتتحرك على ظهر الأرض مدفوعة تارة بنداء الأثرة، وتارة بنداء القومية الضيقة

فلما اصطدمنا بالمتعصبين لدينهم، دون أن يكون لنا دين نثأر له، ونغار عليه، ونحتمي به، كانت النهاية الفاجعة الأليمة؟ ووكلنا الله لأنفسنا !!

فهل ننسف كل هذه العقبات قديمها وحديثها، ونمضي قدماً ليوم النصر؟

إن عدة ذلك الإسلام وحده

من أن يهتدي العرب إلى رسالتهم، وأن يحملوا رايتها، وأن يستندوا إلى ربهم ثم يرموا بأعدائهم من حيث جاءوا

أما قبل ذلك.. فلا شيء

إلا حصاد الغرور.. !!

* * *

محتويات الكتاب

رقم الإيداع : ٩٨/١٨٦٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977 - 09 - 0422 - 8

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري ـ ت : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



أحس قلقا بالغا على مستقبل الإسلام وأمته وأوطانه، فإن القوى المخاصمة له تطمع في استئصال حقيقته، واستباحة بيضته ..

وهي ترى أن الظروف ملائمة لبلوغ هذه الغاية الهائلة ..!

وعندما أنظر إلى الواقع الكئيب أجد أعداءنا يتقدمون بخطا وئيدة، وخطط صريحة حينًا، ما كره حينًا آخر ..

ولكنها خطط مدروسة على كل حال، محسوبة المبادئ والنهايات، لا مكان فيها للدعاوى والمغالطات، ولا للارتجال والمجازفات ..!

وعندما أشعر بأن حلقات الحصار تضيق حول الإسلام، وأن مكاسب عداته تكثر على مر الأيام أتسائل :هل وعى تاريخنا الطويل أحوالا فى مثل هذه القساوة والخباثة..؟

وأتردد في الجواب قليلاً !!

لقد سقطت الدولة الإسلامية قديما، وناوشها الأعداء من الشرق والغرب، واحتلوا عواصمها، وألحقوا بها أفدح الخسائر .. ومع ذلك نهضت من عثرتها واستأنفت السير، فلم لا تكون ظروف اليوم كظروف الأمس ؟



وأقول لنفسي :لعلّ !!

